

عباس الجراري
الأدب المغربي
من خلال ظواهره وقضاياه
الجزء الأول
مكتبة
الأدب
المغربي
منشورات
مكتبة المعارف
الرباط
طبعة ثانية

الأدب المغربي

من خلال ظواهره وقضاياه

*

عباس الجراري

*

الجزء الأول

*

نشر وتوزيع
مكتبة المعارف
زنقة باب شالة ـ أمام المسجد الأعظم
ص.ب: 239. ☎: 24-265
الرباط ـ المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تتدخل فى البحث الادبى — وأى درس فيما أعتقد — عناصر ثلاثة تعمل بتكامل ، وفى اطار وعى الدارس بها ، على بلورته سواء فيما يتعلق بتحديد نوعه أو تكييف درجته . هذه العناصر هى :

1 — طبيعة الموضوع

2 — مصادره

3 — منهج التناول

* * *

واذ كان الادب — باعتباره بنية ابداعية — يرتبط فى اشكاله ومضامينه ببقية بنيات المجتمع الذى ينبغ فيه مبدعوه ، فانه لا مناص له من أن يتأثر بمختلف العناصر الجد لية التىتوجه حركة تاريخ هذا المجتمع وتتحكم فى تشكيل نمطه وتكوين شخصية أفراده .

وعلى الرغم من الاقتناع المبدئى الذى ينطلق منه الباحث فى تاريخ المغرب ، والذى يجعله يتصور هذا البلد بحكم موقعه بوتقة تجمعت فيها واعتملت كل الحضارات والثقافات التى عبرت منه أو انتهت اليه ، فانه لا يلبث أن يصادف فجوات بين المراحل المتعاقبة ، بدءا من فترة ما قبل التاريخ حتى العهد الاسلامى ، مرورا بالفينيقيين والرومان فالوندال والبيزنطيين . فبين كل هذه الحقب توجد ثغرات ناتجة اما عن موقف مفروض من الخارج أو مواجهة وطنية من الداخل ، ولكنها فى جميع الاحوال الايجابية والسلبية تشكل فراغات تعوق استمرار الشريط الحضارى والثقافى ، وتحول دون وجود الكيان الموحد المتكامل عبر التاريخ . بل ان العهد الواحد قد يشهد توقفات اثر انهيار دولة وقيام أخرى غالبا ما تحاول جهدها لمحو الآثار السابقة ، فتبدو وكأنها تبدأ من جديد أو تنطلق من الصفر

فى مجتمع يوجد لاول مرة ، فيضيع بذلك تراث كثير يفرض على الناس أن يهملوه وينسوه . وهذه ظاهرة تولد نتوءات وتمزقات تمنع الرؤيا الواضحة لتاريخ المغرب ، سواء حين يتعلق الامر بجانب السياسة فيه أو جانب الفكر . كما انها تجعل المؤرخين والمتسلطين على رواية التاريخ وكتابته — وهم كثيرون — يطمسون بقصد وبدون قصد ، معالم من هذا التاريخ ويزيفون حقائق منه اذا كانت مرتبطة بشخصيات أو بفترات لا يروقهم ابرازها أو لا يروق معاصريهم من أولى الامر الحكام ، أو من زعماء الطوائف وقادة الهيآت التى ينتمون اليها ، اذ الملل والنحل كانت ابدا موجودة فى المجتمع البشرى وبصيغ متعددة ، تتحزب لها فئات من الناس فى انحياز مذهبى ينطلق من تباين الرؤيا ووجهة النظر فى مختلف شؤون الحياة ، سياسية كانت أو فكرية أو دينيـــة .

هذه للاسف حقيقة تكيف طبيعة تاريخ المغرب وتلقى بظلال كثيفـــة على كثير من مظاهره الحضارية والثقافية ، بما فيها من آداب وفنـــون ، تضاف اليها قضيتان اثنتان اظن اننا مطالبون بطرحهما للنقاش ، حتـــى ننتهى منهما الى توضيح ، ان لم ننته الى نفى أو اثبات .

أما الاولى فتتعلق باهتمام المغاربة بالفقه وتأثر ابداعهم الادبـــى بهذا النوع من العلم . وقد لخصها المقرى فى الازهار (1) حين ذهب الى أن « ملكة العلوم النظرية .. قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عنايـــة لحذاق القرويين والافريقيين الا بتحقيق الفقه » .

وأما الثانية ، واظنها ناتجة عن الاولى ، فقلة الميل عند المغاربة الى التسجيل والتدوين ، وما يترتب على ذلك من اهمال يصيب الرجال ومـــا ينتجون . وقد عبر اليوسى عن هذه الظاهرة فى محاضراته فقال بأن « الاعتناء بالاخبار والوقائع والمساند ضعيف جدا فى المغاربة ، فغلب عليهم فى باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية ، وفيما سوى ذلك لا همة لهم » (2) ، وكان قد سأل شيخه أبا عبد الله بن ناصر عن السند فيما كان اخذ عنه فقال له : « انا لم تكن لنا رواية فى هذا وما كنا نعتنى بذلك » (3) .

* * *

(1) ج 3 ص 26 . (2) ص 59 ط حجريـــة . (3) نفس المصـــدر .

مثل هذه الملاحظة تفضى حتما الى مشكل المصادر ، وهى تقل حين وتنعدم أخرى ، مما يجعل مادة البحث اللازمة غير متوافرة للدارس الذى غالبا ما ينتهى به الجهد المضنى الى مادة مفككة غير مكتملة ولا مرتبطة الحلقـــات .

وانه لمن المؤسف حقا أن يكون كثير من انتاج أدبائنـــا مـــن الكتـــاب والشعراء قد ضاع لسبب من الاسباب ، وأن يكون غير قليل من كتب تاريخ المغرب قد لقى نفس المصير ، خاصة وأن بعض هذه الكتب يرجع الى فترة نحن لا نسعف فيها الا بالنزر اليسير كتاريخ الادارسة للبرنسى الذى ينقل عنه صاحب القرطاس ، وتاريخ القاضى محمد بن عبد الملك بن الودون عن الادارسة كذلك ، وقد ذكره صاحب بيوتات فاس الكبرى لدى حديثه عن بيت بنى الودون ، ومثلهما كتاب « المقباس فى اخبار المغرب وفاس » لمؤرخ من منتصف القرن السادس الهجرى هو عبد الملك الوراق ، وعنه ينقل ابن عذارى والجزنائى وابن أبى زرع ، وقبله يذكـــر كتـــاب المؤرخ أبى عبد الله محمد بن يوسف التاريخى المعروف بالوراق والمتوفى سنة 292 هـ ، وفيه تحدث عن مدن مغربية كالبصرة وسجلماسة ونكور وما اليها من مدن كانت مزدهرة فى عصره ، وكان الفه للامويين ، وكثيرا ما ينقل عنه ابن عذارى فى البيان .

واذا كان دارس الادب قلما يقف على نصوص الابداع مجموعة فى دواوين ، فانه يضطر الى البحث عن هذه النصوص واخبار أصحابها موزعة فى الوان من المصادر متباينة ، ككتب التاريخ العـــام والخـــاص ، وكتب التراجم والطبقات ، وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكذلك فى الفهـــارس والبرامج ، وحتى فى الكناشات وكتب النوازل الفقهية ، فضلا عن الدراسات الحديثة والمعاصرة ، سواء منها ما كتب بالعربية أو اللغات الاجنبيـــة ، والفرنسية والاسبانية منها خاصة ، والكثير منها منشور فى صحف ومجلات عربية واستشراقية قلما يتيسر الوصول اليها أو الى جميع ما صدر فيهـــا مـــن أعـــداد .

ومثل هذا التشتت لا يواجه الباحث فى الادب المغربى القديم فحسب ، ولكنه يواجه كذلك دارس أدبنا الحديث والمعاصر ، وهو ادب كما لا يخفى مبثوث فى المجلات والصحف السيارة ، وان اتجه أدباؤنا المعاصرون — ولا

سيما منهم الشباب — الى تهر ما عندهم من دواوين شعرية ومجموعات قصصية ، على ما فيها من غث كثير باعتبار معظمها مجرد محاولات أولية .

واذا كانت الدراسات السابقة تمهد السبيل للباحث فيما هو بصدده ، فانها غالبا ما تطرح له اشكالات تتجلى فى الاحكام المسبقة التى قد يصادف فيها ، وهى فى بعضها صادرة عن بحث موضوعى محدود بما كان يمكن الوصول اليه فى المكتبة المغربية ، ولكن أمر هذه المكتبة لم يعد كما كان ، وظهر فيها جديد لا يستهان به ، فغدا واجبا علينا أن نعيد النظر فى تلكم الاحكام . كما أنها فى بعضها الآخر صادرة بعيدا عن الموضوعية وتحت تأثير دوافع ذاتية تختلف اتجاهاتها عند الباحثين اذا كانوا مغاربة أو أجانب ، وقد زالت كثير من الظروف التى حركت هذه الدوافع ، فأصبح لزاما علينا أن نراجع ما نشأ عنها من أحكام .

وليس معنى هذا أن النقاب كشف كليا عن المكتبة المغربية ، ولا أن أسباب البحث العلمى قد تيسرت للدارسين ، فما زال الغبار الكثيف يخفى الكثير من تراثنا المكتوب ويتيح للارضة التهامه ، وما زال التخلف الفكرى يفرض مواقف التنكر والاهمال والتشويه ضد التراث الذى صدر عن الشعب فى جميع المجالات ، وما زال الباحثون يتكبدون من المشاق ويلقون من العراقيل ما يعوق عن الاستمرار ان لم يعق عن البدء ، ولكنا مع ذلك نرى حقا لنا نحن أبناء هذا الجيل وحتما علينا كذلك أن نقول كلمتنا ، نضيف بها دما جديدا أو نحرك الدم القديم على الاقل .

وانا لعلى يقين من أنه يوم يزاح الستار عن المكتبة المغربية وما يكملها من مختلف ألوان التراث ، والشعبى منه خاصة ، ويوم يعاد الى هذه المكتبة ما عبثت به يد مجرمى الثقافة ولصوصها الذين انعدم فيهم الضمير الوطنى والمهنى والعلمى ، فاستغلوا مناصبهم واستبدوا بمصادر قيمة عجزوا عن الاستفادة منها وعز عليهم أن يستعملها غيرهم ، فلجأوا الى السرقة لامتلاكها والتصرف فيها والحيلولة دون وصولها الى جمهور القراء والباحثين ، وبالتالى تعطيل البحث العلمى ووضع الموانع والمصاعب فى سبيله ، ويوم يلتفت الى هذا التراث بجد وصدق ، فتقام للنهوض بمختلف مرافقه مؤسسات حية ترصد لها مخصصات كافية ، ويوظف فيها علماء عاملون قادرون على تنظيمه وفهرسته ودراسته ، ويوم يتاح البحث فى كل

تراثنا بموضوعية علمية وفكر متحرر من جميع الوان القيود ، يومئذ سيعاد النظر كليا فى تاريخنا الثقافى والحضارى ، وسيكتب هذا التاريخ من جديد فى اطار يبرز الخصائص الحقيقية للذات المغربيـــة ، متخطيـــا مختلف الفجوات والحواجز التى تحول دون تكميل ملامح هذه الذات فى جوانبها الوطنية والقومية والانسانية .

أما الكتب المدرسية التى يزعم أصحابها انهم يضعون بها تاريخا للادب العربى ، فان قارئها لا يلبث أن يحس غيابا مطلقا لبعض الاقاليم العربية ولا سيما المغرب ، وإن ينتهى من قراءتها — نتيجة هذا الفراغ المهول — الى ادراك الخلل الذى تعانى منه منهجا ومادة . والسبب انها تؤرخ للادب وفق نظرية تعتمد ربط الادب بالسياسة ، وبالسياسة فى منطقة معينة ، مما جعل مؤلفيها يقعون فى أخطاء كشفت عن عيوب منهجية واضحة ، مرجعها أن السياسة لم تكن تسير فى اتجاه واحد فى جميع البلاد العربية ، وأنها مهما تكن لا تنهض بأحداثها وتطوراتها المفاجئة مقياسا للادب أو موجها له . ونتج عن ذلك أن وقف مؤرخو الادب عند بلاد معينة وسياسة معلومة قسمت الى عصور ، وعند أسماء غدت لامعة براقة لانها كانت تواكب هذه السياسة ، ونتج كذلك أن أهملت بعض البلاد ، وحكم على عصور بالازدهار وعلى أخـــرى بالانحطـــاط .

* * *

بهذا أرانى أصل الى قضية المنهج ، وأعترف منذ البدء أنى ربطته برسالة الجامعة . وهى تقتضى — فيما أرى — تلبية حاجيات الامة مـــن الاطر ، كما تقتضى استثمار الطاقات الفكريـــة لنمو المجتمع والسير بـــه فى طريق التقدم ، حتى تصبح الجامعة جزءا من تاريخنا الوطنى ومحركا فى نفس الآن لهذا التاريخ ، ان لم تكن صانعه . ولن يتسنى لها النهوض بهذا الدور اذا هى لم ترتبط فى برامجها ومناهجها بطبيعة البلد وواقـــع المجتمع وبالاختيارات التى أجمعت عليها الامة .

ومثل هذا الارتباط سيجعل الجامعة تلح فى أهدافها على نشر الوعى وتوجيه الرأى وصقل الذهن وتوضيح الرؤيا وتعميق المفاهيم وتهذيب القيم وتفتيح الآفاق لنظرة وسلوك علميين . وسيجعلها تلح كذلك على جعـــل العلم فى خدمة قضايا الوطن ومشاكل التنمية ، والتوسل به فى تحديد ملامح

شخصيتنا وذاتيتنا وكشف السبيل لمستقبلنا القريب والبعيد . كما سيجعلها تلح على اعطاء منظور قومى واضح للعلوم الانسانية ، وعلى تكوين ثقافة وطنية أى على صياغة فكر جديد ينقل من خلاله الفكر القديم الى الاجيال الناشئة بعد تغيير النظر اليه واخضاعه لمقاييس النقد العلمى ، حتى يتاح لهذه الاجيال أن تتعرف الى تجارب الماضين وتدرك أسرار التطور، وحتى تتمكن عن طريق دراسته وطرح قضاياه للبحث والتحليل والنقد أن تنمى فكرها وشخصيتها وتربى فيها استقلال الرأى .

انطلاقا من هذا المفهوم لرسالة الجامعة ، وقد كنت فصلت عنها القول فى كتابى عن « الثقافة فى معركة التغيير » ، واقتناعا بأن تواريخ الادب المعروضة على التلاميذ والطلبة فى المدارس والجامعات لا تطابق الواقع الفكرى للامة العربية ، واقتناعا كذلك بأن المنهج التاريخى فى عمومه لا يسعف فى تلبية ما نطمح الى تحقيقه فى مضمار الدرس ، بدأ تناولى للادب المغربى سواء فى تدريسه بالكلية أو فى الابحاث التى نشرت ، بمنهاج تشكل عندى فى اطار ومحتوى أو نوع وكيف .

أما الاطار فيتمثل فى الاقليمية التى تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها اساسا للدراسة . وأؤكد أننى حين أقول الاقليمية وتأثير البيئة فى الاديب لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية ، و لاأعنى تضييق الافق والانحصار فى اطار المحلية ، ولكنى أعتبرها الوسيلة الوحيدة للم شتات الادب العربى فى كل الاقطار التى أبدعته ، والوسيلة كذلك للعالمية والانسانية بل انى أرى انه كلما قسم نطاق الاقليم فى الدراسة الى بيئات صغيرة ، كانت دراسة الاقليم مكتملة ومستوفاة ، وهذا ما يجعلنى احبذ الابحاث والتواريخ التى الفت وتؤلف — ولو بطريقة قديمة — عن مدن كمراكش وسوس وتطوان والرباط وفاس ، فانه من مجموع هذه الكتابات يمكن تهىء المادة التى قد تساعد على استخراج الصورة الحقيقية للمغرب ، سواء فى تاريخه السياسى أو الفكرى .

ويكتمل الاطار عندى بعناصر ثلاثة :

أولها : النظر الى الادب من خلال نوعيه المدرسى والشعبى .

الثانى : اعتبار مفهومه شاملا لكل الانتاج الفكرى لامتنا دون حصره

فى نطاق الشعر والنثر الفنى كما يحـــدده الاصطـــلاح المدرسى الضيـــق لمدلـــول الادب .

الثالث : تناوله سواء فى قديمه أو حديثه عن طريق طرح ظواهره وقضـــايـــاه .

وأما المحتوى او الكيف ، فيقضى معالجة هذه الظواهر والقضايـــا بفكر نقدى يستند الى الواقع والمعاصرة ، وبجدلية وموضوعية تعتمدان على معطيات استقرائية واستنتاجات منطقية ، بعيدا عن اى توثن او معتقدية متزمتة أو موقف تبريرى ، اذ فى ظنى انه لا يمكن فصل المنهج عن المضمون كما انه لا يمكن ممارسة نقد قبلى ، أى نقد سابق على المعرفة .

ويقضى محتوى المنهج عندى كذلك أن أنظر الى تلك القضايا والظواهر من زاوية تعطى الاسبقية للتمثل العقلى على النقد التأثرى ، اى بنظـــرة فكرية عقلانية وليس الى مجرد التذوق الفنى النابع من الاحساس الجمالى والتأثر العاطفى والانفعال الانطباعى بالاثر المدروس . وان كنت لا انكر أهمية المنهج الفنى وجدواه بالنسبة لنوع معين من الموضوعات ، وقد سبق لى أن جربته فى بعض الابحاث ، وخاصة فى دراسة لى منشورة عن « فنية التعبير فى شعر ابن زيدون » .

وبهذا يحقق المنهج جملة اهداف ، فى طليعتها الكشف عن مواطن الجمال وعن الدلالات الفنية وما ينبثق عنها من حرارة يحث تحسسها على ادراك ما يتكثف تلك الدلالات من مضامين فكرية ، باعتبار الجانب الفنى المتمحور حول اللغة وبنائها التركيبى ظاهرا يبطن فكرا ، أو انـــه بعد أولى يخفى أبعادا أخرى عميقة . وبذلك تبرز قيمة الابداع ، وتبرز من خلالها كل الشحنات الشعرية والطاقات الفكرية والمضامين الانسانية والابعاد الصراعيـــة سلبا وايجابا .

كما يحقق المنهج من أهدافه اثبات الوقائع وربطها بالاسباب ووصف الظواهر وتعليلها والبحث عن بواعثها الخفية والظاهرة القريبة والبعيدة ، واستخلاص العلاقات التفاعلية بينها وبين غيرها .

وأثناء هذا كله يتحقق هدف ذاتى لا أخفيه ، يتلخص فى التجربـــة الفكرية النقدية التى أشعر بها من معاناة البحث ، وما ينشأ عن التجاوب

مع الموضوع من ردود فعل تعتمل فى العقل والاحساس بتلقائية وامتاع .

وفى اعتقادى أن مثل هذا المنهج هو الذى سيعلمنا وسيجعلنا نعلم طلابنا كيف يوقف على النصوص والاخبار لاستنطاقها ، وكيف تطرح الاسئلة وان لم تتيسر الاجابة عليها دائما ، وكيف ترفض الاحكام السابقة للنقد ، وكيف تقدم تقويمات جديدة على أساس من البناء العقلى ومن التفكير فى واقع التاريخ ولحظات الاحداث وممارستها وما يحيط بها من ملابسات . ولعلى فى غير حاجة الى القول بأن طرح المعضلات ـــ وما أكثرها فى تاريخنا السياسى والفكرى ـــ أشق فى أحيان كثيرة من حلها ، لا سيما حين يجازف الدارس بأحكام وآراء يعرف مسبقا أنها معرضة النقد والنقض .

* * *

فى نطاق هذه المعطيات أقدم جزءا عن أدبنا ، آمل أن تعقبه ان شاء الله أجزاء أخرى ، لا أقصد منها الى مسح لهذا الادب أو الى تغطيـــة تاريخه وتتبع حركته على ما فى كمه وكيفه من امتداد، ولكنى أقصد الى تناول جوانب من هذا التاريخ وذاك الادب من خلال ظواهر وقضايا تشترك بتفاوت فى تحقيق الكثير من أهداف المنهج الذى ارتأيت البحث ، وان كنت طرحتها فى مجالات ومناسبات علمية مختلفة . وهى متخيرة من القديم والحديث فى غير خضوع لاى تسلسل تاريخى ، وان جاء هذا التسلسل عفوا فى بعضها . كما أنها محصورة فى اطار المغرب الاقصى الا فى حالات اقتضت تناول الظاهرة أو القضية فى نطاق الشمال الافريقى كموضوعى العصر الجاهلى والتجديد، أو النطاق العربى الواسع كما فى موضوع المسرح .

وانى اذ أضيف هذا العمل الى بقية الاعمال التى أنجزت فى مضمار الفكر المغربى ، لا أملك الا ان أعترف بأنها مجرد جهود قاصرة واجتهادات متواضعة ، حسبى منها أنها تطرح منهجا لدراسة أدبنا ، وأنها تتيح للقراء عامة ، والجامعيين منهم خاصة ، فرصة التعرف الى هذا الادب ، وانها تفتح للباحثين بعض الآفاق الجديدة ، ولا سيما منهم طلابنا الذين ينجزون فى نطاق الدراسات العليا أبحاثا تبعث على أمل كبير بالمستوى الذى تطمح الى ادراكه ، وبما تنم عنه من صبر ووعى .

والله نسأل أن يوفقنا ويوفق جميع العاملين المخلصين .

الربـــاط ـــ صيف 1978 عبـــاس الجرارى

وجود المغرب الحضاري والثقافي

في العصر الجاهلي

※ نشر فى مجلة (المناهل) العدد الثامن السنة الرابعة ربيع الاول 1397
مارس 1977 (وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ــ المغرب) .

من بين قضايانا التاريخية والفكرية ، تبدو قضية مغــرب ما قبل الاسلام ذات أهمية كبيرة ، لما صادف هذا المغرب عند المؤرخين المغاربة والمسلمين عامة من اهمال يكاد أن يكون تاما . والسبب فى هذا الاهمال راجع الى الفكرة التى انطلقوا منها فى التاريخ له والتى وهموا فيها انه ولد مع الفتح الاسلامى ، وانه لم يكن له من قبل أى وجود . فكان أن أعرضوا عن تلك الفترة ، وغدا التاريخ عندهم بالنسبة للمغرب لا يبدأ الا مع الفتح .

وعلى الرغم من أنا لا نشك فى أن الاسلام أعاد خلق المغرب وغير مجرى الحياة فيه ، وفتح له آفاق حضارة وثقافة جديدتين ، وجعله فى نطاق هذه الآفاق يتحمل رسالة نهض بها خلال التاريخ . وما زال ، فان وهم المؤرخين فى فكرتهم يبدو سافرا لمن يطالع فى أبحاث الدارسين من الاجانب ، فيتعرف الى تاريخ المغرب فى المرحلة السابقة على الاسلام ، ويجده حافلا بالاحداث وملامح الحياة ، وبما يجعله يستحق أن ينظر فيه ويعنى به ، على الرغم مما يكتنفه من غموض واضطراب يعزيان الى عدم تطور هذا التاريخ فى خط طبيعى وباطراد ، اذ تعرض لانتكاسات ساهمت فى خلق فجوات تمثلها الحلقات المفقودة التى نصادف باستمرار، ونحن نتتبع تاريخنا القديم وما تعرض له من تغيرات حضارية

وثقافية تحمل معها من الغموض والابهام بقدر ما يكون فيها من مدى وعمــق .

والذى يعود الى الدراسات التى عنيت بالمغرب القديم ، يبحث عن الحياة فى فترة ما قبل التاريخ (1) ، فانه يصعب عليه أن يحدد المراحل الحيوية التى مر بها الانسان المغربى . ومن حسن الحظ أنه قد عثر فى بعض المناطق على بقايا وآثار ، تثبت أن المغرب عرف نوعا من الحياة الانسانية فى هذه الفترة ، لعلها أول حياة جربها البشر ، وهى تدل على ان الانسان الاول الذى ظهر فى افريقيا الشمالية هو أقدم انسان عثر على اثر له الى هذا اليوم ، وانه عاش منذ ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة تقريبا (2) فأجزاء الجماجم الانسانية التى اكتشفت فى لكبيبات بناحيــة الرباط سنة 1933 (3) ، وكذلك العظام التى عثر عليها سنـــة 1939 فى مغارة العالية بطنجة تدل على أن المغرب كان مسكونا فى العصر الحجرى الوسيط وفى فترات ما قبل التاريخ . تضاف الى ذلك الادوات التى كشف التنقيب عنها فى سيدى عبد الرحمن بناحية الدار البيضاء ، وفى مناطق أخرى من بـــلاد الشمـــال الافـــريقـــى .

---

(1) يقدر الباحثون أن ما قبل التاريخ يتمثل فى المرحلة التى سبقت اختراع الكتابة اى قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف عام على التقريب .

(2) انظر تاريخ شمال افريقيا لشارل أندرى جوليان ص 40 — 41 تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة (الدار التونسية للنشر) .

(3) انظـــر :

—) H. Mar cains — Découverte de restes humains fossiles dans les grès quatrenaires de Rabat — L'antropologie T XLIV 1934.

—) H. V. Valois — L'homme de Rabat — Bulletin d'archéologie ma rocaine T III 1958 - 1959.

وقد تطورت هذه الادوات خلال العصور الحجرية الـــى

آشكال متقنة مصقولة كالفاس مثلا وبعض الآلات الحجريـــة والعظمية التى يتوسل بها لصناعات النقش والزخرفة ، سواء فى الطين أو على الحجارة . وقد تجلت فى صناعة الحلى مـــن أسورة وأقراط وخلاخل وقلائد . كما تجلت فى « فن صنع التماثيل الشبيه بما نجده فى الصحراء اذا نحن عددنا .. أصنام تابل بلات ذات الرؤوس الآدمية فى الصحراء الشرقية (4) » وتجلت بعد هذا فى النقش على الحجارة ، وفـــق مـــا تثبت الرســـوم والكتابات التى كشف عنها فى جنوب اقليم وهران والتى تعرف بـــ « الحجرات المكتوبة » وكذلك أحجار أخرى مكتوبة كشف عنها فى غير هذا الاقليم (5) .

وقد درس بعض الباحثين (6) هذه النقوش ، وهى تمثل حيوانات كالجاموس القديم والفيل والايلات والاسود والفهود والزرافات والنعام وبعض الحيوانات الآهلة و « خاصة كباشا مغطاة رؤوسها بغطاء مدور الشكل يذكرنا فى شيء من الغرابـــة بقرص كبش عمـــون » (7) .

وغير خاف ان المغرب ــ كبقية بلاد الشمال الافريقى ــ

---

(4) تاريخ شمال افريقيا ص 57 .

(5 E.F. Gautier — Le passé de l'Afrique du Nord p. 20 — Payot Paris 1952

(6 G.B. Flamand — Les pierres écrites du Nord-africain — Paris Masson 1921

(7) تاريخ شمال افريقيا ص 60 . وعند St. Gsell أن تاريخ هذه النقوش يقدر بثلاثة آلاف سنة قبل المسيح ، وعند Flamand و H. Obermaier أن فن النقش على الصخور يرجع للعصور النيوليتية (أنظر نفس المصدر ص 62) .

تسكنه منذ فجر التاريخ شعوب الامازيغ (8) التى أطلق الرومان عليها اسم البربر (9) وكذلك اسم الموريين ، فى حين كان اليونان يسميهم اللوبيين Lebou وعند ابن خلدون « أن افريقش ابن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار ، وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر » (10) . وعنده أن البربر « يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس ، وهما معا ابنا بر » (11) .

وقد كانت هذه الشعوب تتحدث بلهجات مختلفة تقترب جميعها من اللهجة المصرية القديمة ، تنحدر مثلها من أصل واحد هو اللغات الكوشية أو الحامية ، وتمت بنسب للغات السامية . كما كانت هذه الشعوب تعرف الكتابة وتتخذ لها حروف الهجاء الليبية التى لا تزال — هى نفسها أو شبيهة بها — معروفة فى الجنوب عند الطوارق وتدعى : التيفيناغ .

ويكاد يتفق البحث النزيه على أن هؤلاء البربر وفدوا من

---

(8) امازيغ ج أيمازيغن ، ومعناه الحر الشريف ، وهذه التسمية تدل على طبيعة الشعب وتطلعاته .

(9) انظر فى البربر دائرة المعارف الاسلامية والمصادر المذكورة (مادة بربر — المجلد الثالث) .

(10) التاريخ ج 6 ص 89 (ط بولاق) .

(11) نفس المصدر .

الجزيرة العربية ومصر فى العصر الحجرى ، وعلى أنهم ربما اختلطوا عند وصولهم الى بلاد الشمال الافريقى ببعض الشعوب الاخرى التى كانت قد وصلت بدورها وافدة من أوربا عن طريق شبه الجزيرة الابيرية . ومثل هذا البحث يؤكد لا شك ما ذهب اليه التاريخ العربى ، وخاصة عند ابن خلدون ، (12) من أن البربر عرب حميريون من بنى قحطان . وهو رأى لم يقبله بعض الدارسين الغربيين الذين أرادوا أن يجعلوا البربر أقرباء للسكان القدامى لاوربا الغربية (13) ، وأن يعتبروا بلادهم بالتالى أوربية (14) . وحتى الذين اعترفوا بالارومة الافريقية المشرقية لبلدان المغرب ، لم يقولوا ذلك الا ليضيفوا مدى قوة روابطها مع أوربا وضرورة استمرار هذه الروابط التى تشكل جزءا من ملامح طبيعة تلك البلاد (15) .

واذا كانت الدراسات السلالية لم تقنع مثل هؤلاء الدارسين بالاصل الحقيقى للبربر ، فان البحث اللغوى كان أقدر على الاقناع ، حيث انتهى الى أن اللغة البربرية تنتسب ـ كما أسلفنا ـ للمجموعة الحامية السامية . فهى ، بما يتفرع عنها من لهجات منتشرة فى أماكن متفرقة داخل البلاد التى استقر بها البربر منذ

(12) انظر الجزء السادس من تاريخه ص 93 — 97 حيث أورد أقوال مختلف المؤرخين والنسابة .

(13) انظر :

G. Camps — Aux origines de la Berbérie, rites et monuments funéraires, p. 29 — Paris 1961

(14) انظر :

GL. E. Bremond — Berbères et arabes — Paris Payot 1938

(15) انظر :

L. Balout — Quelques problèmes nord-africains de chronologie préhistorique — Revue africaine T 13 1948

فترة ما قبل التاريخ ، أى من غرب مصر عند واحة سيوة شرقا حتى ساحل المحيط الاطلسى غربا ، ومن شواطىء المتوسط شمالا حتى جنوب نهر النيجر جنوبا . ويمكن أن نميز فيها هذه الفروع الثلاثة :

1 — الزناتية : (تاريفيت) ويتكلم بها الريفيون المغاربة وسكان بعض المناطق الاطلسية والبرابرة الليبيون والتونسيون والجزائريون ما عدا القبائل .

2 — المصمودية : (تاشلحيت) ويتكلمها سكان الاطلس الغربى الكبير وسوس .

3 — الصنهاجية : (تامازيغت) ويتكلم بها رجال القبائل وسكان الاطلس المتوسط وشرقى الاطلس الكبير وشرقى الاطلس المتوسط وناحية ملوية وطوارق الصحراء .

وقد أثبت الذين درسوا البربرية واللغات الحامية والسامية أن التشابه كبير بينها ، سواء من الناحية البنيوية أو فيما يتعلق ببعض القواعد النحوية . وأثبت هؤلاء أن الشبه بين الخط الليبى والخطوط التى كانت تستعمل فى شبه الجزيرة العربية يدل على مكانهم الاصلى ، وأن وجود خطوط ليبية فى سيناء ودلتا النيل يدل على طريق عبورهم للشمال الافريقى من مصر .

كذلك عنى دارسون آخرون (16) بالبحث فى الموسيقى البربرية القديمة ، وانتهوا الى اقرار الشبه بينها وبين الالحان

---

(16) امثال هانز هلفرتز Hanz Helfritz (انظر كتابنا : من وحى التراث ص 96 — الرباط 1971) .

فى أغانى جنوب بلاد العرب .

ولم تقف الدراسات التى عنيت بأصل البربر عند حد التشكيك فى هذا الاصل ، بل زادت فأثارت قضية لا تخلو من بعض الاشكال والاغراض ، وهى أن البيئة الجغرافية للبلاد التى يسكنها البربر أثرت فى تكوين وحدات قبلية صغيرة ، مفرقة حينا ومجمعة حينا آخر ، وحالت بذلك دون لم شتات مختلف القبائل فى أمة واحدة . وهى ظاهرة كانت فى طليعة العوامل التى شجعت الدول على محاولة غزو الشمال الافريقى .

والحقيقة أن البيئة لم تكن وحدها مسؤولة عن هذا النبعثر، فقد كان الميل الشديد الى الحرية ورفض الخضوع يشكل بدوره عاملا على خلق كيانات صغيرة . ومع ذلك ، وعلى قبولنا ــ جدليا ــ رأى الذين يعتبرون أن الدراسات البيئية والاتنوغرافية الفيزيقية لم تثبت أن اندماجا كبيرا تم بين البربر وبين الشعوب التى استوطنت بلادهم طوال التاريخ ، فاننا نعتقد فى جزم لا يدع مجالا للشك أن عنصر اللغة والدين كان قادرا فى ظل الاسلام والعربية على صهر البربر فى بوتقة واحدة ، وأن هذا العنصر بما يترتب عنه من تكوين عقلية مغربية متميزة داخل اطاره ، كان أكثر من أى عنصر آخر قادرا على الادماج والتوحيد.

مهما يكن ، فان البربر كانوا فى الفترة التى نتحدث عنها، يعيشون على شكل جماعات من الرحل تنتقل بأغنامها وأبقارها سعيا وراء الكلا ، تقصد الجبال فى الصيف ، وتنزل فى الشتاء الى السهول ، وكانت بعض شعوبهم تعيش حياة مستقرة تقوم

على نظام جماعى يتجلـــى فى اشتراكيـــة الارض والفلاحـــة والممتلكات ، وخاصة فى السهول ـ كسهل سبو مثلا ـ حيث الطبيعة تساعد على اقامة زراعة منتظمة ، أساسهـــا القمـــح والشعير والزيتون والكروم ، وتجارة منتظمة كذلك بما يفيض من الحبوب وانتاج الزيت ، وتساعد بالتـــالى علـــى انشاء أسر وقبائل فى قرى صغيرة كانت تقام على الهضاب ، حماية للسكان والثروة من الاخطار ، وخاصة كوارث الطبيعة وهجمات الحيوانات الضارية التى كانت معروفة لهذا العهد ، كالفيلة والسباع ، مما جعلهم يمهرون فى الصيد وصناعة آلاته وأسلحته .

وعلى الرغم من أن التاريخ الفكرى لهذه الفترة يكاد أن يكون غير معروف ، فان البحث قد أثبت أن هذه الشعوب كانت متدينة الى حد كبير ، تعتقد السحر وخلود الروح (17) وتعبد النجوم والاشجار وعيون الماء وبعض الحيوانات (18) ، وتشكل من بعضها آلهة لها حيث يحدثنا التاريخ أنه « كان لهم فى القرن الاول قبل المسيح آلهة تحميهم تسمى افريكا رأسها مغطى بجلد فيـــل » (19) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن مثل هذا التقـــديس لمظاهـــر الطبيعة والكون كان ـ سواء عند البربر أو غيرهم من الشعوب التى مارسته ـ يقرن بألوان من الطقوس تتميز فى الغالب بتراتيل

---

(17) مما يدل على ذلك وعلى ايمانهم بالبعث انهم كانوا يضعون مع الميت عند دفنه بعض الاوانى والاثاث وشيئا من الزاد ، ويجعلـــون لـــه حوضا للاغتســـال .

(18) راجع كتابنا : من وحى التراث ابتداء من ص 91 .

(19) تاريخ شمـــال افريقيـــا ص 78 .

وأناشيد ، وبرقص يعتمد ايقاعات معينة ، يكاد فى حركاته وحلقاته يقترب من المسرح ، كما يقرن بصناعة الدمى والتماثيل واتخاذ الاقنعة والرسوم (20) . وهى كلها تدل على وجود فن يتوسل فى تعبيره باللغة والتشكيل .

* * *

ولعل أهم ما يلاحظ الباحث فى تاريخ المغرب القديم انه تعرض كما تعرض الشمال الافريقى كله لحضارتين كبيرتين ، هما حضارة الفينيقيين وحضارة الرومان .

وقد ظهر الفينيقيون فى غرب المتوسط عند منتصف القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، واستمروا فى الشمال الافريقى زهاء ألف عام . ومع ذلك فان معلوماتنا عنهم قليلة ، وترجع فى أغلبها الى الفترة المتأخرة التى بدأت مع الحروب البونيقية وانتهت بانتصار الرومان . وقد وصلت معظم هذه المعلومات بواسطة مؤرخين لاتين تحدثوا عن عظمة رومة ، وكذلك عن طريق مؤرخين يونان . وتعد رحلة حنون Le périple d'Hannon وثيقة قرطاجنية هامة ، وقد وصلتنا منها ترجمة اغريقية ، وهى تلقى الاضواء على التجارة الفينيقية ومراكزها فى الشمال الافريقى (21) .

ومن المعروف تاريخيا ان الفينيقيين – بحثا عن أرض

(20) انظر من وحى التراث ابتداء من ص 104 .
(21) انظر :

— E. F. Gautier — Le passé de l'Afrique du Nord p. 32
— J. Carcopino — Le Maroc antique — Gallimard 1943
— G. Germain — Qu'est ce que le périple d'Hannon — Hespéris 1957 pp. 205 - 248

الغروب التى أطلق اليونان عليها هسبريس Hespéris — وصلوا الى هذه البلاد وأنشأوا فيها مراكز ، وأهمها مدينـــة تشميش وهى لاكيش أو ليكسوس Lixus عند مصب نهر اللوكــوس قريبا من مدينة العرائش وذلك حوالى سنـــة 1100 أو 1110 ق م . ثم روسادير Rusaddir التى هى مليلية ، وطنجى ، Tingi التى هى طنجة . ومن هذه المدن كذلك مدينة قرطاجنة التـــى أسسوها فى تونس سنة 813 — 814 ق م ، ولعلها أهمها جميعا .

فهذه المراكز وغيرها تدل على أن دولة الفينيقيين كانت فى أساسها تقوم على المال وتبادل التجارة بأساطيل تجوب المتوسط والاطلسى ، متنقلة بين مختلف المراكز التى أقاموها أو التـــى كانوا يتعاملون معها . ولم يكن هذا الطابع التجـــارى ليصرف المغاربة عن الفلاحة ، بل زاد اهتمامهم بها وبالصناعات المرتبطة بها ، كانتاج الزيوت والخمور وما اليها من صناعات غذائيـــة كتصبير الاسماك . وبلغ من تبريزهم فيها ان أحد القادة البونيقيين — هو ماغون — ألف فيها كتابا من ثمانية وعشرين جزءا ، تحدث فيه عن « الزراعة وتربية الماشية ، بل ضبط كذلك ضبطا مدققا قواعد ادارة الاملاك الريفية » (22) . وقد استفـــاد الرومـــان منـــه وترجمـــوه .

ولم يقف اهتمام المغاربة عند هذا الحد ، ولكن تعداه الى مجال الصناعات الثقيلة المتصلة بالسفن والاساطيـــل وأجهـــزة الموانىء ، فضلا عن تطوير بعض الصناعات التى كانت معروفة

---

(22) تاريخ شمال افريقيا ص 112 .

لديهم من قبل ، كصناعة الاسلحة والامتعة والحلى والاقنعة وأدوات الزينة والاوانى المزخرفة والصناعات الجلدية والخشبية والآلات الفلاحية .

وليس من شك فى أنه كان لمثل هذه النهضة أكبر الاثر على نشر اللغة والتقاليد وكثير من مظاهر الثقافة والحضارة الفينيقية فى البلاد البربرية ، وهى مظاهر شرقية ، مصرية واغريقية فى الغالب . فقد سجل التاريخ أن القرطاجنيين « كان لباسهم شرقيا بحتا ، فكانوا يرتدون الجبة الطويلة ذات الاكمام الواسعة عامة ، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معطف السفر » (23) .

أما فنهم فمتأثر بالفن المصرى والاغريقى ، ومن بين كبار فنانيهم النحات بويطوس Boéthos ، وهو الذى أنشأ تمثال ايفيز.

كما أنهم عرفوا المسرح (24) على الطريقة اليونانية . وقد ذكر البكرى أن « أعجب ما بقرطاجنة دار الملعب وهم يسمونها الطياطر ، قد بنيت أقواسا على سوارى وعليها مثلها ما أحاط بالدار ، وقد صور فى حيطانها جميع الحيوان وصور أصحاب جميع الصناعات ، وجعلت فيه صور الرياح ، فجعل صورة الصبا وجهه مستبشر ، وصورة الدبور وجهه عابس .. وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو ، أقباء معقودة طبقات كثيرة، مطل على البحر فى غربيه قصر يعرف بالطياطر ، وهو الذى فيه

---

(23) المصدر السابق ص 117 .

(24) انظر من وحى التراث ص 100 وموضوع « المسرح عند العرب والمغاربة » فى آخر هذا الجزء .

دار المعلب المذكورة . وهو كثير الابواب والتراويح ، وهو أيضا طبقات ، على كل باب صورة حيـوان رخـام وصـور جميـع الصنـاع » (25) .

وفى مجال العبادات اتخذ الشمال الافريقى فى هذا العهـد آلهة مزيجة من الآلهة البربرية والالهة الفينيقية المتأثرة بما كان يعبد فى مصر وبلاد الاغريق . وقد اشتهر من بين آلهتهم بعـل حمون ، وهو شبيه بأمون المصرى وكذلك تانيت بينيبعل ومعناه وجه بعل ، وكانا يشكلان فى صور بشرية وتصنع لهما التماثيل. وعند اكتشاف معبدى سوسة وقرطاج عثر على انصاب وأحجار وأوانى ومحارق تثبت ان سكان المغرب الكبير — وخاصة منهم القرطاجنيين — كانوا يقدمون للالهة قرابين بشرية وحيوانية . كذلك « عثر فى معبد صياغة (فى بئر بورقبة قرب خليج الحمامات) على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد ، كما عثر على أبـو الهول ذى ضروع » (26) .

وربما ساعد على انتشار مثل هذه المظـاهر الحضاريـة والثقافية فى بلاد البربر أن الفينيقيين كانوا مستوطنـين ولـم يكونوا مستعمرين ، يضاف الى ذلك ما يوجـد بينهـم كعـرب كنعانيين وبين البربر كعرب حميريين من تقارب وتشابه ، خاصة فى نطاق اللغة . ولقد بلغ من انتشارها أن القديس البربرى أو غستان ذكر أنها فى أيامه — أى فى القرن الرابع للميلاد — كانت منتشرة فى البوادى المغربية ، كما أكد المؤرخ البيزنطى بروكوب

(25) كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (المسالك والممالك) ص 43 — 44 — نشر دوسلان — الجزائر 1857 .
(26) تاريخ شمال افريقيا ص 124 .

Procope انها كانت متداولة فى القرن السادس (27) . ولا شك أن مثل هذه الظاهرة تسجل فى عهود قريبة من الفتح الاسلامى ، تضاف الى التشابه الموجود بين العربية والفينيقية لتؤكد مدى السهولة التى وجد البربر فى تعلمهم للغة القرآن .

* * *

وما أن حل القرن الثالث قبل الميلاد حتى بدأت بلاد الشمال الافريقى تتحرك فى انتفاضات لاقامة امارات مستقلة ، مستغلة دخول القرطاجنيين مع الرومان فى نزاعات هى التى مثلتها الحروب البونيقية فيما بعد (28) Les Guerres puniques والتى استمرت من 146 ق م الى 435 ب م ، فكان أن أقيمت فى شمال المغرب امارة موريطانيا وفى الداخل امارة نوميديا Numidie

ولكن المغرب لم يلبث بهذه الحروب أن تعرض للغزو الرومانى الذى لم يستطع أن يخضع لسيطرته غير جزء من البلاد ؛ أما الباقى فقد ظل محافظا على نوع من الاستقلال ، ويؤكد التاريخ أن الرومان حاولوا القضاء على اللغة والتقاليد الفينيقية ، لدرجة أنهم دمروا مدينة قرطاجنة ومكتبتها العظيمة، وحاولوا من أجل محو الثقافة الفينيقية أن ينشئوا مدارس لتعليم اللغة اللاتينية ، ولكن البربر ظلوا محتفظين باللغة

---

(27) انظر : Gsell — Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T IV, p. 498 — Paris Hachette 1913-28

(28) نسبة الى القرطجنيين واصلها لاتينى وهو Punicus مأخوذ من Poeni بمعنى قرطاجنة أو قرطاجنى . وربما يكون الاصل فى Poeni كلمة Pouanit التى كان يطلقها المصريون على بلاد العرب ثم انتقل فيما بعد ليطلق على Poeni اى قرطاجنة أو فينيقيا Phénicie

الفينيقية وبلغاتهم المحلية القديمـــة .

على أن هذا لا ينفى أن الرومان أثروا على طبقة معينـــة من البربر ذات مصالح ، هى الطبقة الارستقراطية التى كـــانت تختلف الى مدارسهم ، وتتسمى بأسمائهم ، وتتكلـــم اللغـــة اللاتينية ، وتعبد الآلهة الرومانية مثل مارس وهرمس وسيريس وباخوس وأسكولاب وأيزيس وأوزيريس ومترا . أما الطبقات الشعبية فقد ظلت تقدس الآلهة الفينيقية وان أخفتها تحت ستار أسماء جديدة . فبعل حمون كان يعبد تحت اســـم ستـــرنس أغسطس ، وتانيت كان يعبد تحت اسم كيلتيس ، فضلا عن أن تلك الطبقات حافظت على آلهتها البربرية المحلية كما كورتا ويونا وماكورغوس وماتيلا ، وفيهينا وبونشور وفارسيسيما .

وعلى الرغم من استعداد المغاربة لتقبل فكرة الوحدانية ، غانهم لم يميلوا كثيرا للمسيحية التى لم تنتشر الا عند النخبة المتعلمة فى المدارس الرومانية ، حيث كان التعليم يهـــدف الى تكوين أطر لتسيير الادارة المحلية باللغة اللاتينيـــة . وكـــانت مناهجه تقتضى تدرج التلميذ من تعلم القراءة والكتابة والحساب الى النحو والآداب والموسيقى والعـــروض والفلسفـــة والفلك والرياضيات . وينتقل بعد ذلك الى مدارس أعلى كانت تؤسس فى أهم المدن ، وغيها يتعلم الشعر والخطابة وما يتطلبان من بلاغة وجدل وارتجال وقد ينتقل بعد ذلك الى رومة أو غيرها من مدن الدولة المركزية لتنمية معارفه أو تولى بعض المناصب .

وقد احتفظ التاريخ بأسماء غير قليل من الادباء والفلاسفة

وعلماء الدين الذين تخرجوا فى هذا التعليم من مختلف أقطار الشمال الافريقى ، وعبروا باللاتينية فى الغالب ، لانها كانت لغة الفاتح المستعمر ، وليس لان اللغة الوطنية كانت قاصرة كما ذهب جوليان (29) ، نذكر من بينهم :

1 — دوناتوس المتوفى سنة 335 ، وهو مؤلف كتاب عن الروح القدس ، وزعيم المذهب الدوناتى الذى ظهر فى خضم الصراع الكنسى الدائر يومئذ (30) والذى كان ينضوى تحت لوائه كل الرافضين للسيطرة الرومانية (31) .

2 — برمانيانوس صاحب كتاب ضخم فى الدفاع عن الدوناتية ومجموعة من المزامير .

3 — الاسقف أبتا الميلى الكاتوليكى ، وقد اشتهر بانتقاده للمذهب المذكور .

4 — تيكونيوس المنتقد من طرف الدوناتيين « كان لائكيا ولكنه فقيه عالم أريب ، نشر شرحا للجليان Apocalypse نال شهرة عظيمة ، وتفسيرا للكتاب المقدس تصدى فيه بطريقة جديدة الى النصوص والى أشتات من الكلام لم يعرف عنها الشراح شيئا قبله » (32) .

5 — القديس أغسطينوس — أو غستان — ولد فى سوق

(29) فى كتابه تاريخ شمال افريقيا ص 252 .
(30) من المذاهب التى ظهرت فى هذه الفترة كذلك مذهب الدوارين وكان يسير فى خط الثورة على الرومان .
(31) انظر :
CH Courtois — Les vandales et l'Afrique, p. 147 — Paris 1955
(32) انظر تاريخ شمال افريقيا ص 310 .

أهراس سنة 364 وفيها بدأ تعليمه ثم انتقل الى رومة وميلانو وعاد ليتقلد مناصب عدة كان أهمها أسقف عنابة سنة 395 . وقد اشتهر باعترافاته وبكتابه (مدينة الله) الذى دافع فيه عن المسيحية ، كما اشتهر بانتقاده الشديد للدوناتيين . وكان « خطيبا وكاتبا من طراز عال ، فلم يتح للمسيحية أن رزقت زعيما فى مرتبته قط » (33) .

6 — ترتوليانوس المتوفى سنة 240 ، اشتهر بكتاب فى الدفاع عن الدين المسيحى وبمذهب يدعو الى العفة والاخلاق الفاضلة وبموقف ضد اليهود وأهل البدع .

7 — مينوسيوس فيليكس ، وهو صاحب كتاب فى الدفاع عن المسيحية .

8 — القديس الشهيد قبريانوس ، كان يعيش فى القرن الثالث ، له كتاب فى الرد على اليهودية والاحتجاج للمسيحية .

9 — أرنوب وهو خطيب وكاتب وشاعر ، وله كسابقيه كتاب فى الدفاع عن الدين .

10 — لكتانسيوس تلميذ أرنوب ومؤلف عدة كتب عن عقاب المذنبين ، والاموات المضطهدين ، والزندقة والحكمة .

11 — باتيليانوس ، وهو خطيب وكاتب ، كانتله مراسلات مع أغسطينوس .

12 — قودانسيوس ، وهو خطيب من تيمكاد ، كان يعيش

(33) المصدر السابق ص 305 .

فى منتصف القرن الرابع .

13 — كرنيتوس ، وهو فيلسوف وخطيب كان يشرف على بعض مدارس رومة فى عهد كلوديوس ونيرون .

14 — فلوروس ، وهو خطيب ومؤرخ وشاعر ، وكان يشارك فى المهرجانات الشعرية التى كانت تقام بالكابيتول .

15 — فرونتيوس ، وكان أستاذ الامبراطور مرقس أوروليوس فى البلاغة اللاتينية .

16 — أبليوس المولود حوالى سنة 123 ، وهو أشهر كتاب وشعراء هذا العهد . وقد خلف قصة المسوخ أو الحمار الذهبى، وديوان الازاهير الذى قال فيه : « أعترف بأنى أوثر من بين الآلات شق القصب البسيط أنظم به القصائد فى جميع الاغراض الملائمة لروح الملحمة أو فيض الوجدان لمرح الملهاة أو جلال المأساة وكذلك لا أقصر لا فى الهجاء ولا فى الاحاجى ولا أعجز عن مختلف الروايات والخطب يثنى عليها البلغاء ، والحوارات يتذوقها الفلاسفة . ثم ماذا بعد هذا كله ؟ اننى أنشىء فى كل شىء باليونانية أم باللاتينية بنفس الامل ونفس الحماس ونفس الاسلوب » (34) .

وقد نبغ الى جانب هؤلاء بعض القادة البربر الذين تربى معظمهم فى أحضان حضارة الرومان وثقافتهم ، وكانت لهم مع ذلك أو لبعضهم مواقف وطنية تهدف الى تحرير الشمال الافريقى وتوحيده والنهوض به أمثال حنبعل ابن عبد ملقرط البرقى الذى

(34) نقل بـ فالات ، بواسطة جوليان (تاريخ شمال افريقيا ص 252) .

أبلى بلاء حسنا فى الحرب البونيقية الثانية ، وأخوه عز ربعل ، والشهيد ماتوس زعيم البربر ضد قرطاج على اثـر الحـرب البونيقية الاولى ، وماسينيسا التوفى سنة 148 ، وكانت تخطب وده كل من قرطاج وروما (35) ، وسيفاكس الذى كان فى نفس موقف ماسينيسا . ومن أشهر القادة كذلك يوغورطة الذى كانت تحاول روما كل جهدها للقضاء عليه الى أن وقع فى يدها بحيلـة مشنقته . ومثله يوبا (36) الاول الذى كانت له مواقف عداء مع القيصر تمثلت فى حركات ثورية وطنية انتهت بهزيمته وانتحاره سنة 47 . ولكن لم يمر وقت طويل حتى اعتلى ابنه عرش المملكة الموريطانية ، وهو أغسطس المعروف بيوبا الثانى ، زوج كليوباطرة سيلنى بنت كليوباطرة الكبيرة . وكانت له عناية بالفنون والآداب وفى عهده أسست معاهد الموسيقى . درس العلوم وأتقن اللغات اليونانية والبونيقية واللاتينية ، وكانت له مكتبة عظيمة ونساخ عديدون ، كما كانت له عناية خاصة بجمـع التماثيـل والصـور واستقدام النفائس من مختلف الاقطار ، وتوجد منها الآن كمية ثرية بمتحف الجزائر وشرشال .

---

(35) عنـد Gsell ان روما خربت قرطاجنة لتمنع ماسينسيا من احتلالها واتخاذها عاصمة لملكـه .
(Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T IV, p. 496)
وانظر مدى ارتباطه فى سياسته ومواقفه بالرومان عند G. Camps
(Aux origines de la Berbérie, Massinissa ou les débuts de l'histoire- Alger 1960)

(36) يوبا أو جوبا هو الاسم الذى كان يطلق عند البربر على العاهل وهو بهذا ليس علما ولكنه مرادف (اكليد) اى الملك ، ويجمع على (ايكليدن) وهو فى أصل لفظه يعنى نفس مدلول الكلمة العربية : الجبة . أنظر A. Benachenhou
(Connaissance du Maghreb, pp. 44 - 55 - Alger 1971)

وشرشال هذه هى عاصمة ملكه ، وسماها قيصرية تقديرا لعظمة القيصر . كما اتخذ وايلى عاصمة ثانية (37) . ولكنه لم يلبث أن اغتيل فأتاح اغتياله لروما أن تخضع بلاد الشمال الافريقى لحكمها المباشر . ومع ذلك قام البربر فى فترات عدة من هذا الحكم بثورات وطنية متلاحقة للتحرر ، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونهم « مفطورين على قلة الولاء » (38) وهم فى الحقيقة مفطورون على حب الحرية والاستقلال .

فى خضم هذه الاحداث والاضطرابات يبقى عهد يوبا الثانى متفردا بمميزات حضارية وثقافية ، يكفى لتمثلها ــ بالاضافة الى ما ذكرنا له من اهتمامات علمية وفنية ــ أن نعرف ما كانت عليه وليلى ، ونتأمل ملامح الصورة التى أعطيت لها لتكون شبيهة بروما . فنظام الحكم فيها نيابى يقوم على تمثيل الشعب بواسطة الانتخاب على طريقة مجلس الشيوخ الرومانى المعروف بـ Sénat والمدينة محاطة بالاسوار والابراج ، وبداخلها فوروم Forum أى ميدان عمومى، وكابيطول Capitole أى معبد، وقوس النصر تعلوه عربة تجرها ستة خيول ، وكانت بها كذلك خزائن لحفظ الكتب وتماثيل الآلهة ، وفسقيات وحمامات عمومية مفروشة أرضها بالرخام ومغطاة جدرانها بالفسيفساء المصورة لمناظر من الطبيعة ومشاهد من الحياة . أما المدينة نفسها فكانت مقسمة الى قسمين: أحدهما فى الجنوب تجمعت فيه المصانع والمخابز ومعاصر الزيت والدكاكين والدور الشعبية ، والثانى فى الشمال يسكنه الاغنياء

---

(37) انظر : Le Maroc antique, p. 34

(38) على حد قول جوليان فى تاريخه ص 183 .

والحكـــام .

وما زالت بعض الآثار الباقية فى وليلى شاهدة على مــا كانت عليه هذه المدينة ، حيث كشف النقاب عن بعض الشوارع والمنازل والمعاصر ، وعن قاعة الاجتماعات والساحة العموميــة التى كانت تعتبر المكان المحورى فى المدينة ، وعن بعض التحف كتمثال برونزى لكلب وآخر لغلام ورأس مرمــرى وتمثالــين نصفيين لبروتوس ولبعض الامراء .

بل ان مراكز حضارية أخرى غير وليلى ظلت محتفظة بما كان للمغرب فى هذا العهد من آثار فنية ومعمارية .

وقد امتد فى المغرب تأثير هذه الفترة طويلا ، وما زلنــا نلاحظه حتى اليوم متجليا فى الفسيفساء ، والزليج وهندسة بناء الحمامات والمنازل ، وخاصة هندسة القصور المعروفة فى المناطق البربرية ، فهى لا تختلف عن هندسة الكاستروم الرومانى Castrum بأبراجه الاربعة ، وان كانت تقترب الى حد كبير من مبانى حضر موت وبلاد اليمن ، مما قد يؤكد عنصر الاصل العربى المشترك الذى سبق طرحه فى بداية هذا البحث .

ومن جانب آخر لهذا التأثير نلاحظ أن أسمــاء الشهــور الفلاحية فى اللغة البربرية والعربية الدارجة هى نفسها التى كان يستعمل الرومان وفق توقيت جوليان Julien ، بل ان كثيرا مــن الالفاظ اللاتينية وخاصة ما يتعلق بالفلاحة ظلت على لسان البربر أما الفلاحة نفسها فكانت دائما مزدهرة ومتطورة فى المغــرب ، والذى قام به الرومان فى مجالها هو تنظيم الرى بحفر الآبــار

والسواقى وبناء الصهاريج والاحواض اتجميع الماء ، وكذلك بناء القنوات والسدود والخزانات والجسور . كمـا انهم لتسهيـل العمليات التجارية شقوا طرقا كثيرة ربما كان من أهمها الطريقان اللذان يربطان طنجة بسلا ووليلى .

ومع ذلك ، فباستثناء بعض الآثار العمرانيـة والتقاليـد الفنية والبصمات اللغوية المحدودة ، فان التأثير الرومانى يكاد يكون غير موجود ، خاصة فى البنية الاجتماعية والتكوين الفكرى. وربما كان السبب فى ذلك أن البربر رفضوا أن يصبحوا رومانا كما رفضوا أن يصبحوا مسيحيين (39) .

وعلى الرغم من الطابع الاستعمارى لهذا العهـد ، فقـد استطاع المغرب — على حد ما رأينا — أن يفرض وجوده علـى رومة ، سواء فى الميدان الحربى بالثورات المتعددة والانتفاضات التى قادها أبطال مغاربة ، وفى الميدان الدينى بالكيان المستقل الذى أعطى القساوسة البربر للمسيحية ، ، ثم فى الميدان الفكرى والادبى بنبوغ كثير من الادباء والفلاسفة الذين أغنوا بعطاءاتهم مجال الثقافة اللاتينية .

والحق ان الازدهار الشامل الذى عرفه المغـرب فى هـذه العهود كان بسبب طبيعة البلد وملاءمة مناخه ، وكذلك بسبب ذكاء المغاربة وحيويتهم (40) .

* * *

---

(39) انظـر G.H. Bousquet — Les Berbères, p. 43 (Presses universitaires — Que sais-je ? - 1961)

(40) انظـر Gsell — Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T I, p. 40

غير أن المغرب لم يلبث أن تعرض فى أعقاب الحروب البونيقية لهجوم الوندال (434 – 534) قادمين اليه من جرمانيا فقد كانت الظروف المضطربة وحركات التمرد التى عرفها حكم الرومان فى المغرب ، وخاصة على عهد قسطانس المعروف بفالتينيان ، من أهم الاسباب التى أغرت الوندال بغزو افريقيا بعد أن كانوا قد رتعوا فى أوربا فترة طويلة ، حيث عبروا مضيق جبل طارق فى صيف 429 بقيادة ملكهم جنسريق (41) الذى كان صدى قوته المتوحشة يبعث الهلع فى كل مناطق نفوذ الامبراطورية الرومانية ، بل ان رومة نفسها استسلمت لجيوشه سنة 455 .

وعلى الرغم من تساؤل المؤرخين عما اذا كان الشعب المغربى تحالف مع الوندال لرد عدوان الروم ، وعما اذا كان تدخلهم يعتبر تحريرا للبلاد من الاستعمار الرومانى ، فان واقع التاريخ يثبت أن فترة احتلالهم للمغرب وغيره من مناطق الشمال الافريقى تميزت بالتخريب والتدمير وبالحكم المطلق والاستبداد التام ، مع ما يترتب عن ذلك من استغلال للموارد وخنق للحريات وتنكيل برجال الدين . وهى فترة لم يفد منها المغاربة أى شىء ، وان عمل الوندال على ادخال بعض التقاليد الجرمانية التى كانت تمس أشكال بعض تنظيمات الحكم والسلطة . وهذا ما جعل وجودهم لا يؤثر على مجال اللغة والفكر الا بالقدر الذى يعطله .

ولكن حكم الوندال سرعان ما تعرض لاضطراب شديد بعد

---

(41) توفى فى 24 يناير 477 .

وفاة جنسريق وتولية خلفائه من بعده : ابنه الطاغية حنياريق(42) وغاتموند (43) وتراسموند (44) الذين حاولا ارجاع الحريــة الدينية ، ثم الشيخ هلدياريق المعزول سنة 535 ، وأخيرا جليمار حفيــد جنسريــق .

فى عهد هؤلاء بدأت تبرز عيوب الاحتلال الوندالى متمثلة فى ظهور حركات تمرد وفى بعض المصاعب الاقتصادية ، الشىء الذى تمخض عنه تكوين امارات محليــة مستقلــة ، كمملكــة « مازونا » الذى كان يدعى (ملك القبائل المورية والرومان) .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجىء الوندال بقدوم وفــود من الرحل راكبى الجمال ، جاءوا من طرابلس يقودهم الامــير كاباون ، وكانت لهم خطط فى الحرب وأساليب فى المواجهة لا عهد بهــا للونــدال .

وجاء فى هذا الوقت تحرك الامبراطور يوسطينيانوس الذى كان يتوق الى اعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، فوجه جيشه وأسطوله الى الشمال الافريقى فهزم الوندال وأسر جليمــار . وبذلك انتهى حكم هؤلاء ليبدأ حكم جديد ، وبالضبط فى سنة 534 ، حيث أعلن الامبراطور منح استقلال ادارى لافريقيــا ، ولكن البربر لم يكونوا ليقبلوا هذا الوضع ، خاصة وأن تحركاتهم التمردية كانت قد بدأت تنجح فى عهد احتلال الوندال ، فدخلوا فى مواجهات كانت تتسم فى غالبها بالعنف .

---

(42) توفى سنــة 484 .
(43) توفى سنــة 496 .
(44) توفى سنــة 523 .

ويبدو أن الشمال الافريقى لم يفد شيئا يذكــر فى هــذه المرحلة ، سواء تحت حكم الوندال أو البيزنطيين ، ومع ذلك فقد ظهرت بعض الاسماء التى لمعت فى مجال الفكر والادب أمثــال الشاعر الملحمــى دروكانسيوس الذى ألف فى السجن ابتهــالات ذاعت شهرتها فى القرون الوسطى ، ومنها استوحى ماتون أشعاره فى الجنة (45) ، وكذلك الشاعر كوريبوس صاحب ملحمة يوحنا.

وليس من شك فى ان الاوضاع التى كانت لا تزيد الا تأزما عملت قبيل الفتح الاسلامى على انهيار النفوذ الرومانى وظهور زعامات صغيرة فى هذا الاقليم أو ذاك ، حيث كانت توجد مناطق تعيش فى انعزال ونوع من الاستقلال لا يــزال تاريخهــا للاسف مجهــولا .

والواقع أن الفترة التى سبقت مباشرة مجىء الاسلام الى المغرب تعتبر من أكثر الفترات غموضا فى التاريخ المغربى ، وكل ما نعرف من خلال الآثار الباقيــة أن البيزنطيين منــذ القــرن السادس كانوا قد احتلوا مدينة سبتة ، واتخذوا منها مركــزا لمراقبة الشواطىء المقابلة ، وانه ظل للرومان بعض النفوذ الدينى واللغــوى .

ويتضح من الكتابات التى عثر عليها فوليلى انه حتى سنة 655 كانت توجد فى المغرب جالية لاتينية مسيحية ، فى حين كانت قلة من البربر هى التى تدين بالمسيحية أو اليهودية . بــل ان التاريخ يتحدث عن آثار للمسيحية فى القرن الثامن للميلاد

---

(45) انظر تاريخ شمال افريقيا ص 346 .

بمنطقة نفيس عند سفح الاطلس الكبير حيث كانت لا تزال تعيش جالية منتسبة لهذا الدين الذى لا يعرف متى دخل الى المغرب ، وان كان معروفا ان مدينة طنجة كانت أكثر مدن المغرب آثارا تشهد له بماض بعيد فيه .

أما اليهودية فقد كانت وبقيت موجودة فى نطاق ضيق ، وهى لا شك دخلت الى المغرب فى ركاب بعض الهجرات التى وفدت من الشرق فى القديم ، مما يدل على أنها كانت منتشرة قبل المسيحية . وفى هذا رد لا شك على من افترض (46) ان البربر لم يعتنقوا اليهودية الا مع الفتح العربى بدافع محاربة المسلمين من جهة ، وبدافع اثبات لاوثنيتهم حتى لا يحاربهم المسلمون(47).

* * *

والحق أنه اذا كان المغرب مر قبيل الاسلام بفترة غامضة، فانه فى المراحل الاخرى سواء حين اتصل بالفينيقيين أو الرومان، فتح لنفسه صحائف فى التاريخ وعرف كيف يضطلع بدوره الحضارى والثقافى ، متأثرا بمن حوله ومؤثرا كذلك ، وليس مجرد مقلد أو تابع .

ولعلنا ــ بهذا العرض المحدود ــ أن نكون أبرزنا بعض ملامح هذا الدور ، ولفتنا النظر الى جوانب حية من تلك الصحائف، عسى الدارسون من شبابنا أن يغروا بالبحث والتنقيب ، سواء فى آثار العمران الباقية أو الوثائق المنقوشة أو المكتوبة ، أو حتى

---

(46) هو R. Montagne

(47) انظر : G. H. Bousquet — Les Berbères, p. 39

فى التراث الشعبى لما يضم من معالم هامة ودقيقة .

وفى اعتقادنا أن البحث سيظل مبتورا اذا هو لم يعتمد على نوعين من المصادر نراهما أساسيين :

أحدهما : الآثار التى خلفتها هذه الفترات ، وهى رومانية فى الغالب وتحتاج الى مزيد من العناية والاهتمام ، وكذلك الآثار البربرية التى لم تلتفت اليها الانظار بعد .

والثانى : المصادر اليونانية والرومانية اللاتينية المسيحية، وهى تطرح صعوبات فى قراءتها ، فضلا عما فيها من توجيه يجعلها لا تكشف عن واقع التاريخ المغربى .

وفى اعتقادنا كذلك أن البحث ينبغى أن ينطلق من حقيقة طبعت مسيرة بلدنا الحضارية والثقافية على مر التاريخ ، حتى فى فترات تعثر هذه المسيرة ، وهى ان موقع المغرب الجغرافى على على رأس افريقيا جعله مفتوح الشواطىء على بحرين عظيمين ، متحكما فى منافذهما ، ومنفتحا بالتالى على ما وراءهما فى الوقت الذى هو يضرب بجذور ثابتة فى أعماق القارة التى ينتمى اليها ، متوسطا بذلك كل جهات الكون ، مما جعله يتحرك فى مركز ثقل العالم بتفاعل جدلى مستمر ، مع يد ونظر ممدودين أبدا الى الشرق ، فى عملية أخذ وعطاء لم يشهد التاريخ لها توقفا أو انقطاعا ، مما أنتج تركيبا حضاريا وثقافيا لهذا البلد يكاد يكون متفردا بخصوصيات متميزة ، دون أن يفقد هذا التركيب خيوط الالتحام والانسجام مع العناصر التى تفاعل معها فى الاصل وما زال .

نشأة الادب العربي في المغرب
(ظروفها ومظاهرها)

* نشر فى مجلة (المناهل) العدد الثانى ــ السنة الثانية صفر الخير 1395 ــ مارس 1975 .

ليس يخفى ان الخلفاء الراشدين لم يفكروا فى توجيه حملة اسلامية (1) الى المغرب ، وأن عمر بن الخطاب كان قد طلب اليه أن يأمر بفتح الشمال الافريقى ولكنه رفض . ولعله كان يدرك ما ستتكبده أية حملة تتجه الى هذا البلد من متاعب ومصاعب ، لا سيما وبعد المسافة سيحول دون تتبعه لعملية الفتح ، وسيجلعه عاجزا عن امدادها عند الاقتضاء الملح الطارىء . بل ان عمرو بن العاص كتب اليه يقول بعد أن تم له فتح طرابلس : « ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام ، فان رأى أمير المومنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » فأجابه : « لا ، انها ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ،

(1) يقال ان بعض المغاربة أسلموا قبل الفتح « أول من أدخل دين الاسلام للمغرب .. رجال رقراقة السبعة من المصامدة وقيل كانوا اثنى عشر رجلا اجتمعوا مع النبى صلى الله عليه وسلم وكلمهم باللس البربرى ، والصحيح انهم لم يجتمعوا به ، وانما أسلموا عل عمر وعلمهم دينهم وتوجهوا لمغربهم . ولما بلغوا قومهم منهم ومنهم من أبى ، وذلك عام ثمانية عشر من الهجرة . وفى أسلم مغراوة ، قيل وفدوا على عثمان مع أميرهم (صو أسر فى الحرب مع جماعة من أعيانهم . ولما بلغوا المد يد عثمان ، وله عليهم الولاء عام أربعة وثلاثين ، ثم (الترجمانة ص 80 — 81) . ويلاحظ على ه الاسلام فى هذه الفترة انه خال من أى اثبات

لا يغزوها أحد ما بقيت » . وفى رواية أخرى : « لا أوجه اليها أحدا ما مقلت عينى الماء » (2) .

وعلى الرغم من أن عثمان بن عفان لم يمانع فى فتح الشمال الافريقى حيث أرسل جيشا دخل تونس بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى سرح قبل سنة 30 هـ ، فان الاهتمام الحق بهذه المنطقة لم يبدأ الا على عهد الامويين الذين لم يقنعوا بفتحها ، بل حاولوا اقامة حكمهم عليها وربطها بمركز الخلافة . والحق انه كان لا بد لدولة الاسلام على عهد الامويين ، وقد ذهبت بعيدا فى الفتوح ، أن توجه اهتمامها لحوض المتوسط وما يحيط به من بلاد وما يزخر به من تجارة ، خاصة وانهم كانوا — على عكس الخلفاء الراشدين — مهتمين بشؤون البحر . ولكن الامر لم يكن يسيرا على الاطلاق ، ففى الوقت الذى استطاع المسلمون أن يقيموا خلال بضع سنوات دولة واسعة الرقعة فى المشرق ، فانهم ظلوا زهاء قرن من الزمان يحاولون أن يثبتوا دعائم الدين الجديد فى بلاد الشمال الافريقى .

ويمكن القول بأن فتح المغرب تم على مرحلتين : الاولى على يد عقبة بن نافع فى زمن يزيد بن معاوية ، والثانية على يد موسى ابن نصير فى عهد الوليد بن عبد الملك . ففى سنة 61 — 62 هـ وصل عقبة الى المغرب مبشرا بالدين الجديد ، وفتح مدينة طنجة ووليلى — وكانتا من أهم المراكز المغربية قبل الاسلام — وانتهى فى محاربة القبائل وبث الدعوة فيها الى منطقة سوس ، ولكنه لم يلبث ، بعد

---

(2) فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم ص 173 .

سنتين أو أقل من الجهاد ، أن قتل من طرف البربر فى جنوب بسكرة عند واحة تهودا فى الزاب . ولعل معاملته القاسية للبربر ، وخاصة زعيمهم كسيلة ، كانت السبب الرئيسى فى تدبير أمر قتله .

وقد ظلت البلاد منذ هذا التاريخ — أو جزء منها على الأقل — تواجه الدعوة الاسلامية بمعارضة شديدة تمثلت فى زعيمين هما كسيلة والكاهنة (3) ، الى أن استطاع موسى بن نصير ابتداء من سنة 79 هـ (4) ، وكان واليا على افريقيا والمغرب ، أن يضبط الامور بشيء غير قليل من القوة والحزم ، وأن ينشر بذلك الاسلام فى كثير من المناطق التى كانت لم تعتنقه بعد . وربما ساعد البربر على تقبل الدين الجديد مشاركتهم للعرب بأغلبية ساحقة فى فتح الاندلس ، فلعلهم كانوا يعللون نفسهم بما قد يحصلون عليه من الغنائم ، ولعلهم كذلك وجدوا فى هذا الفتح ما يغذى ميلهم

(3) من المعروف ان الكاهنة خربت البلاد التى تركتها للفاتحين ظنا منها انها بذلك ستثنيهم عن الاستمرار فى الفتح . وهو موقف يحث على طرح قضية ملكية الارض فى المغرب . وقد حاول العلماء تناوله حين تحدثوا عن هذه الارض وهل فتحت عنوة أو صلحا . فعند ابن القاضى : « قال أبو الحسن بن القابسى فى شرح الموطأ من كتاب الجهاد : اختلف الناس فى أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة على ثلاثة أقوال . الاول وهو الظاهر من رواية ابن القاسم عن مالك انها عنوة افتتحت بالسيف لانه جعل النظر فى المعادن للامام . الثانى قيل صلحا صالح أهلها عليها . الثالث قيل انها مختلطة حرب بعضهم من بعض فتركوها فمن بقى بيده شيء كان له وهو الصحيح والله أعلم . وقال التادلى أسلم عليها أهلها وحكى عن بعض عمال المنصور بن أبى عامر حين تغلب على أرض فاس قال لهم : اخبرونى عن أرضكم أصلح هى أم عنوة ، فقالوا له : لا جواب عندنا حتى ياتى الفقيه يعنون أبا جيدة بن أحمد . فجاء أبو جيدة فسأله فقال : ليست بصلح ولا عنوة وانما أسلم عليها أهلها فبقيت لهم » . (الجذوة ص 4 — 5) .

(4) انظر جذوة المقتبس ص 338 .

الطبيعى الى المحاربة ، خاصة وانهم كانوا يسمعون عن هذه البلاد المجاورة ما جعل فى نفسهم لا شك رغبة الى اكتشافها ، وان كنا بهذا لا نحكم على جميع البربر ، وانما نريد أن نثبت ان الاسلام لم يكن قد تغلغل بقوة فى قلوب المغاربة . ونحن نعرف أنه حتى القرن الثانى كانت لا تزال فى منطقة نفيس عند سفــح الاطلس الكبير قبائل تدين بالمسيحية ، وكانت قبائل غيرها تدين باليهودية أو الوثنية . ولعل الاسلام لم يستقر فى المغرب الا بعد أن استقر فى الاندلس من جهة وفى تونس من جهة أخرى . وغير خاف أن الحملتين اللتين وجهتا لفتح المغرب ، أو بالاحرى لمواجهة تفشى المذهب الخارجى فيه (122 — 123 هـ) لقيتا فشلا ذريعا . فقد هزمت الاولى فى معركة طنجة ، وقضى على الثانية عنــد وادى سبو وكانت بقيادة كلثوم .

وقد جعلت مثل هذه الهزائم وغيرها مما لقيتــه الجيوش العربية فى بقية الشمال الافريقى تؤكد قولة سابقة كان قد كتب بها حسان بن النعمان لعبد الملك بن مروان ، يخبره أنه من المستحيل فتح البلاد الافريقية ، وانه متى قضى على قبيلة بربرية الا وتخلفها قبيلة أخرى . ولعل التكوين البنيوى لطبقات المجتمع المغربى ، سواء على الصعيد السلالى أو الاقتصادى والثقافى كان عامــلا أساسيا فى التأثير على موقف المغاربة من الفتح .

وربما يبالغ بعض الباحثين العرب حين يقولون بأنه مــا « انقضت سنة 51 هـ الا وقد أنهى عقبة بن نافع الفهرى بنـــاء

القيروان وفتح شمال افريقيا والسودان » (5) . ونحن نعرف أن البربر على حد قول ابن أبى زيد القيروانى قد « ارتدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس الى طنجة ، ولم يستقر اسلامهم حتـــى أجاز موسى بن نصير الى الاندلس بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرهم برسم الجهاد ، فاستقروا هنالك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » (6) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع الاسلام — ولو بعد زمن طويل — أن يجد له مكانا فى هذا البلد وفى نفس أبنائه ، خاصة وانه كان فى تلك الفترة الاولى يبدو لهم بسيطا فى مبادئه خاليا من كل خلاف أو تعقيد ، وخاصة كذلك ان القائمين على شؤونه من العرب الفاتحين الاول لم يكونوا يقيمون الامور على غير العدل ، ولم يكونوا يظهرون غير المحبة والمساواة .

وكان نتيجة لهذه العوامل أن اطمأن المغاربة للدين ، وزال — ولو موقتا — ما كان فى نفوسهم ضد العرب ، وزاد الاتصال بالمشرق الذى أخذت أصداء أحداثه تتردد فى المغرب ، وخاصـــة أصداء النزاع على الخلافة والحكم ، وبدأت فئات الخـــوارج المنهزمة تفد عليه من المشرق ، ولا سيما منها الاباضية والصفرية تحـــاول الترويـــج لمذهبهـــا .

ويبدو ان البربر مالوا الى هذا المذهب الذى وافق طبيعتهم الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم ، سواء

(5) مـــراكـــز الثقـــافـــة ص 12 .
(6) تاريـــخ ابـــن خلـــدون ج 6 ص 110 .

كانت عنصرية أو دينية . ولعلهم أفهموا من خلاله حقيقة الاسلام وحقيقة أسلوب الحكم فيه . كذلك كان التعاطف قويا مع آل البيت والانتصار لهم فيما يعانون من محن بالمشرق . وقد تجلى هـذا التعاطف فى الترحيب الذى لقيه المولى ادريس فى المغرب(7)وتنازل عبد الحميد بن اسحق الاوربى عن امارته له فى وليلى ودعوته القبائل أن تبايعه سنة 172 هـ (8) .

وقد عمل ادريس (172 ـ 177 هـ) على متابعة عملية نشر الاسلام ، وخاصة فى منطقة الشرق وتلمسان وفى الجنوب حيث واجه البرغواطيين (9) ، وكانوا قد أنشأوا شبه امارة مستقلة فى تامسنا (10) بزعامة صالح بن طريف الاندلسى سنة 127 هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك على أساس مذهب محرف عن الدين ، حيث أقروا نبوة ابن طريف الذى وضع لهم قرآنا وتشريعات(11) يبدو من شديد تأثره بالاسلام فى وضعها وكأنه يريد مغربة هذا الدين أو بربرته وطرحه فى صيغة جديدة .

ولم تلبث مثل هذه التحركات الادريسية وما كان يصاحبها

---

(7) فى قدوم المولى ادريس الى المغرب قولان : احدهما وهو الشائع يذهب الى انه فر من وقعة فخ سنة 169 هـ على عهد الهادى العباسى، والثانى يذهب الى أن اخاه محمد بن عبد الله الذى كانت له مواجهات مع المنصور أوفده الى المغرب قبل تاريخ وقعة فخ بنحو عشر سنوات . (انظر مقالات الاسلاميين للاشعرى ج 1 ص 145) .

(8) انظر بحث الكاتب عن « المغرب وتيار المذاهب الاسلامية » .

(9) أو البلغواطيين (بفتح الباء واللام) .

(10) هى بالتقريب منطقة الشاوية وما حولها ، يكونها السهل الممتد من وادى أبى رقراق الى أم الربيع . وتجدر الاشارة الى أن هذا الاسم لم يعد معروفا .

(11) انظر البيان المغرب ج 1 ص 226 ـ 227 .

من انتصار أن أقلقت بال الرشيد فى بغداد ، فبعث له من غتله فى قصة معروفة . ثم استأنف العمل ابنه ادريس الثانى (177 — 213 هـ) بعد وصاية مولاه راشد ، وسعى إلى توسيع رقعـــة الدولة ، وخاصة فى الوسط ومنطقة الحوز وسهول الشمال . وكان من أهم أعماله توسيع مدينة فاس (12) وانشاء حكومة شبه ائتلافية بين العرب والبربر ، قائمة على مبادىء اسلامية كانت بمثابة النموذج الذى احتذته الدول التى تعاقبت على الحكم فى المغرب ، لولا أن العنصر العربى كان طاغيا عليها ومستبدا بأمرها ، الشىء الذى أثار البربر وأزم الوضع . فقد كان فى اعتبارهم أن ادريس الاول زعيم عربى لاجىء ، وانه على الرغم من كونه ينتمى لآل البيت المناضلين فانه قنع باللجوء والاحتماء بالبربر المسلمين المتعاطفين معه ، ورضى — ورضوا مثله — أن يكون — وهو عربى — زعيم امارتهم البربرية . أما ادريس الثانى فيبدو فى نظرهم قد تجاوز هذا الاطار حين حاول فرض امامته ، وحين حاول بالتالى تأطير هذه الامامة بتكوين بلاط عربى بما يقتضى من وزارة وحرس وبطانة وما اليها من مظاهر يبدو أنها لم ترق البربر ، خاصة وأن حظوظهم فيها كانت هزيلة . لذا لا نستغرب حين نرى المغرب يقع

(12) لا بناءها كما كان يظن . انظر بحثا لبروفنسال عن بناء مدينة فاس وان مؤســـها هو ادريس الاول فى :
Annales de l'Institut d'Etudes Orientales T 4 1938 pp. 23 - 53.
وقـــد أعاد نشره فى أول كتابه : L'Islam d'Occident، pp. 3 - 41
وفيه يذهب الى أن ادريس الاول بنى فاس سنة 172 فى المنطقة التى تعرف بعدوة الاندلس وأن ابنه اسس عدوة القرويين (أو المدينة العالية) سنة 192 . وقد اعتمد فى هذا الراى على بعض النصوص التاريخية وعلى قطع من العملة سكت فى مدينة فـــاس قبل سنة 192 وعلى قطع أخرى تحمل اسم ادريس الثانى ضربت فى مدينة العالية التى أصبحت مركز سك العملة .

فريسة الاضطراب والفوضى والنزاعات بين أبناء ادريس الثانى الذين أرادوا أن يتقاسموا مناطق النفوذ ـ وكانوا اثنى عشر ـ فلم تبق لهم غير ولايتين : احداهما فى فاس والثانية فى الريف ، وبالتحديد فى مدينة مندرسة الآن تسمى البصرة ويطلق عليها بصرة الكتان ، الى أن كان الغزو الفاطمى سنة 305 حيث بدأت نهاية الادارسة واخراجهم من فاس ، وبدأت كذلك محاولات لاقامة مراكز شيعية فى شمال المغرب (13) . وقد كان يكتب لهذه المحاولات بعض النجاح ، ولكنه نجاح موقت ، وخاصة فى فاس حيث كان الفاطميون وبعض أعوانهم يقيمون حكم الائمة ، ولو فى فترات متقطعة .

وكانت هذه المحاولات الفاطمية فى التقدم نحو غرب الشمال الافريقى تقلق بال الامويين فى الاندلس ، ولكنها ، لم تدفعهم الى اتخاذ أية مبادرة غير الاحتياط والاحتراس ، علما بأن لهم مراكز فى شمال المغرب ، هى سبتة وطنجة وأصيلا والبصرة . ولعلهم وجدوا فى القبائل الزناتية خير من يرد عنهم خطر الفاطميين فى المغرب . فمن جهة كانت قبائل مكناسة مستقرة فى شرق المغرب منذ عهد الادارسة ، وكانت قد بدأت فى هذه الفترة ـ بزعامة موسى بن أبى العافية ـ توسع لنفسها وتتقدم نحو سهول الغرب ومنطقة الواحات حيث أنشأت تازة ومكناس وسجلماسة (14) . ومن جهة أخرى كان بنو يفرن والمغراويون قد أقاموا فى وسط المغرب وبدأوا يراحمون بنى العافية .

---

(13) بدات دولة ابى عبيد الله سنة 296 حين قضى على دولة الاغالبة .
(14) دام امر بنى العافية مائة وأربعين عاما حيث انتهى سنة 363 هـ .

وكما جعل الامويون فى الاندلس من القبائل الزناتية خط دفاع ، فكذلك اتخذ الفاطميون من الصنهاجيين ليس خط دفاع فقط ، بل خط هجوم كذلك على المغراويين وبنى يفرن . غير أن هاتين القبيلتين لم تلبثا بعد انتهاء أمر الامويين فى قرطبة أن دخلتا فى نزاع حول مناطق النفوذ . يضاف الى ذلك عودة الادارسة(15) الى الريف حيث كانوا يقيمون تحت تصرف الجهة المتغلبة ، سواء شيعة افريقيا أو مروانى الاندلس .

وهكذا ظل المغرب فترة غير قصيرة موزعا بين هذه القوى المشتتة الى أن كان عهد المرابطين الذى يعتبر بحق بداية الحكم المغربى المنظم والقوى والمستقر .

* * *

كان طبيعيا — ووضع المغرب على حد ما رأينا — أن يستهدف الفتح الاسلامى أمرين : نشر الدين أولا ونشر العربية ثانيا باعتبارها أداته ولغة القرآن . وكان طبيعيا كذلك واللغة تساير الفتح وتواكبه أن تستقبل بسهولة ويسر حيث يستقبل بسهولة ويسر ، وأن ترفض بقوة وعنف حيث يرفض بقوة وعنف.

لذلك تعرضت حركة التعريب لمختلف الهزات والانتكاسات التى تعرض لها نشر الدين ، بل أكثر من ذلك نستطيع أن نقول انها سارت أبطأ منه ، خلافا لما كان ينبغى أن يكون ، بسبب عوامل كثيرة ، لعل من بينها طبيعة الجيوش التى كانت توجه للفتح . وقد تسنى لهذه الحركة أن تشهد غير قليل من التوسع

(15) قامت دولة الادارسة الثانية على يد القاسم كنون وكان مقرها فى قلعة بجبل سماتة تعرف بحجر النسر أو حجر الشرفاء وبدار القرار.

فى هذا العهـد حيث أتيحت جملـة أسبـاب يمكـن تلخيصهـا فيمـا يلـى (16) :

1 ــ حالة الاستقرار التى سادت مناطق نفوذ الادارسة .

2 ــ عـروبـة الاداسـة .

3 ــ انشـاء جامـع القـروييـن .

4 ــ خروج المغاربة فى رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى المغرب .

5 ــ كثرة الوفود العربية التى قصدت مدينة فاس قادمـة اليها من الاندلس والقيروان .

6 ــ قرب اللهجة البربرية ــ وقد تأثرت بالفينيقية ــ من اللغـة العربيـة .

7 ــ عدم مقاومة اللهجة البربرية للغة العربية الا فى المناطق الداخلية النائية .

8 ــ تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم واعجابهم بلغته واعجـازه .

9 ــ تهجير أفواج من المغاربة فى شكل سبى الى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية .

وليس من شك فى أن المغرب ــ لهذه العوامل مجتمعة وخاصة قدوم الاندلسيين فى هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم ــ قطع مرحلة فى التعريب لا يستهان بها ، كان من المنتظر

---

(16) انظر تفصيل الكلام على هذا الموضوع فى كتابنـا « القصيـدة » (فصل : مراحل التعريب) ابتداء من ص 85 .

أن تعقبها مراحل أخرى لولا انه تعرض فى أواخر أيام الادارسة وبعدها لاضطراب شديد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين ، وكان محتما أن يتأثر سير التعريب بهذا الاضطراب (17) .

واذا كان الفكر فى كل زمان ومكان متأثرا باللغة فى حال ازدهارها وركودها ، باعتبارها الوعاء الذى يأخذ به ويصب فيه ، واذا كانت حركة التعريب قد تعثر سيرها — على حد ما رأينا — بحكم ظروف الاضطراب التى عانتها البلاد سواء فى نشر الدين أو استقرار أحوال الحكم ، فاننا لا نكون مبالغين اذا نحن اعتبرنا الفكر المغربى قد تأثر بكل عوامل التفتح والانطماس التى عرف المغرب . وتكاد تكون أهم ظاهرة فكرية يمكن للباحث أن يستنتجها فى هذه الفترة من خلال تلك العوامل هى أخذ المغاربة بالمذهب المالكى والتزامهم بآرائه فقها وعقيدة (18) .

أما الادب ، فلست أدرى اذا كان جائزا لنا أن نتحدث عن وجوده فى هذه الفترة ، واللغة ما زالت تتعثر فى طريقها للوصول الى الالسنة بله القلوب والعقول . ولست أدرى كذلك اذا كان عدم وجود هذا الادب ، أو وجوده هزيلا يرجع الى تلك العوامل التى أثرت على اللغة وعرقلت سيرها الذى كان طبيعيا أن تسير فيه   وأكاد أكون متأكدا من أن هذه الاسباب التى حالت دون استقرار البلاد وانتشار العربية وازدهار الفكر هى نفسها التى وقفت دون انطلاق الادب .

---

(17) انظر المصدر السابق .
(18) انظر تفصيل ذلك فى « المغرب وتيار المذاهب الاسلامية » .

ولا أخفى أن العجب ياخذنى وأنا أقرأ فى كتاب « الادب المغربى » ما يذهب اليه المؤلفان من أن فتح الاندلس كان « على المغرب من الناحية الادبية خسارة تشبه تلك الخسارة التى منيت بها الجزيرة العربية وقد فارقها أهلها ، فتوجهت الانظار الى البلاد المفتوحة ونفقت فيها سوق الادب ونبغ فيها الشعراء وغيرهم من رجال الادب فلم نعد نسمع للجزيرة بعد ذلك هذا الصدى القوى الذى كان يتردد فى جنباتها أيام الجاهلية وأوائل الاسلام » (19) فى حين ان القضية معكوسة ، ولا يبدو فيها أى وجه للمقارنة . والسبب أن الجزيرة العربيـــة التى أراد هذا القول أن يشبـه المغرب بها فى انطلاق الفتح منه الى الاندلس ، كما انطلق منها الى سائر الاقاليم ، كانت فى فترة الاسلام الاولى وفترة الجاهلية قبلها مهد أدب مزدهر لا يخفى على أحد . أما المغرب فلم يكن يعـــرف من هذا الازدهار أو ما هو شبيه به أى شىء . واذا كانت الجزيرة العربية قد ضاعت فى أبنائها الذيـــن استشهدوا فى الفتـــوح أو استقروا فى الامصار الاسلامية الجديدة ، وكان فيهم خطباء وشعراء وحفاظ القرآن والحديث ، فان المغرب لم يرسل لفتـــح الاندلس غير جيش من المحاربين ، لم يكن الاسلام قد تمكن مـــن قلوبهم ، ولم تكن اللغة العربية قد وصلت الى ألسنتهم وأفهامهم بل أنا نؤكد ما سبق أن قلنا قبل من أن الاسلام استقر فى المغرب بسبب استقراره فى الاندلس ، أو على الاقل كان ذلك من أهـــم العوامل . ثم انه لولا وجود الاندلس لما تشجع أولئك المشارقة الذين وفدوا اليها على الاقامة فى المغرب بدلا منها لما كان عليـــه

---

(19) ص 121 .

وضعه ـ فى هذه الفترة ـ من الفوضى وعدم الاستقرار . وربما زاد فى أهمية الاندلس واعتبار المغرب مجرد ممر عبور لهـا انها أصبحت مركز خلافة الامويين . ولا انكار بعد هـذا أن المغرب أفاد من الاندلس سواء فى هذه المرحلة أو بعدها ، وانها أشعت عليه اشعاعات مختلفة وفى جميع الميادين ومختلف الفترات ، وان كنا لا ننكر كذلك أن المغرب فى وقت ما أنقـذ الاندلس من الضياع وتبادل واياها الكثير من العطاء .

وربما اعتمد الذين يقولون بوجود أدب فى المغرب لاول عهده بالاسلام على الخطبة (20) المشهورة التى ألقاها طارق بن زياد فى الجيش المتوجه لفتح الاندلس . والحق أن الباحثـين وقفوا بشأن هذه الخطبة مختلفين . فعند الاستاذ كنون أنهـا « فهمها الجيش كله وأثرت فيه تأثيرها البليغ المشهود فى اندفاعه الى حومة الوغى وتهافته على الموت بايمان وحماس ، فكيف يفسر هذا بغير سرعة انتشار العربية كالسرعة التى انتشر بها الاسـلام ؟ » (21) .

---

(20) قد يثار الكلام فى هذا المجال عن سابق البربرى الذى جاء ذكره فى مصادر غير قليلة ، وخاصة الكامل للمبرد والاغانى للاصفهانـى وحماسة البحترى والميزان للذهبى وحماسة الجـراوى وفهرسـة ابن خير الاشبيلى وتاريخ ابن خلدون والبداية والنهاية لابـن كثير وشرح المقامات للشريشى حيث وردت له أشعار كثيرة يغلب عليها طابع الحكمة والموعظة . غير أن مغربيته مشكوك فيها . وقد كتب عنه الاستاذ عبد الله كنون ثلاث مقالات (دعوة الحق س 2 ع 1 ، س 6 ع 8 ـ 9 ، س 8 ع 4) وكان ذهب فى المقال الاول الى القول بأنه « ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربى يقول الشعر فى لغة الضاد والاجادة فيه » غير أنه علق فى المقال الثانى بقوله : « لم يحقق بعد ما اذا كان سابق ينتمى الى مغربنا الصغير » .

(21) ج 1 ص 42 .

ويذهب والدنا حفظه الله الى أن جند طارق « كان في مجموعه يدرك مدلول ما احتواه الخطاب الحماسي العربي ، وهو ما هو علوا في البيان والروعة والسمو يجعلنا نومن بأن برابرة المغرب لذلكم العهد الاسلامي الفتى كان لهم المام واسع ومعرفة لا تقصر عن فهم أمثال هذا الخطاب الحربي البليغ الذي حول فزعهم ثباتا وشجاعة واضطرابهم يقينا وصمودا » (22) .

ونجد الامير شكيب أرسلان في العرض الذي قدم به لكتاب (النبوغ) في طبعته الجديدة يبدي بعض الشك في هذه الخطبة ، ولكنه لم يلبث أن يتراجع عن هذا الشك ، مقتنعا برأي صاحب (النبوغ) ، فهو يقول : « .. ظهر الطابع العربي على البربر ونبغ فيهم العلماء والخطباء بالعربية الفصحى ، وحسبك شاهدا طارق بن زياد الذي خطب قبل الموقعة التي هزم فيها لذريق ملك الاندلس ، تلك الخطبة الطنانة التي لو حاول مثلها قس بن ساعدة أو سحبان وائل لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها . ولقد كنت أفكر مليا في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي : .. هنا لغز من الغاز التاريخ لا ينحل معناه بالسهولة ، فقد اتفقت الروايات على كون طارق بن زياد بربريا قحا ، وكذلك اتفقت الروايات أيضا على كونه هو لا غيره صاحب الخطبة الرنانة المعدودة من أنموذجات الخطب العربية ، فكيف يمكن التلفيق بين هذين الامرين المتناقضين وأنى لطارق البربري مثل

---

(22) تاريخ الادب الناثر والشاعر بالمغرب قديما وحديثا ص 4 .

هذه العربية . وكنت أفكر فى أن طارق يكون أحسن تعلم العربية كما أحسن ذلك كثير من أبناء جيله ، وكما تعلمت العربية رجال فارس حتى بزوا فى العربية أقرانهم مـــن أنفس العرب ، ولكنى لم أكن مستريح البال من جهة اتقان طارق للعربى الفصيـــح وبلوغه فيه هذه الدرجة العليا ، وكان يحز فى صدرى أن تلك الخطبة كانت بلاغتها فى المعنى وانما وضعها رواة العرب فى هذا القالب الذى سحر الالباب ، وما زلت مترددا فى هذا حتى جاءنى ثلج اليقين على يد الاستاذ عبد الله كنون الذى جزم بأن هـــذه الخطبة النادرة انما كانت من جملة ثمرات انطباع البربر بالطابع العربى البحت » (23) .

وعلق الاستاذ كنون على هذا الكلام فى الهامش فقال : « يستشكل بعض الباحثين صدور خطبة طارق بن رياد منه وهو بربرى قح ، يستبعد أن تكون له هذه العارضة القوية فى اللغة العربية ، حتى يأتى بتلك الخطبة البليغة . وهو استشكال فى غير محله ، (أولا) لان طارق بن زياد ان كان أصله بربريا فقـــد نشأ فى حجر العروبة والاسلام بالمشرق ولم يكن هو الذى أسلم أولا بل والده ، بدليل اسمه زياد فانه ليس من أسماء البربر ، ولا شك انه كان من مسلمة الفتح المغربى الاول وانه انتقل الى المشرق حيث تولاه موسى بن نصير ونشأ ولده فى هذا الوسط العربى الذى كونه وثقفه . (ثانيا) لان نبوغ غير العرب فى اللغة العربية منذ اعتناقهم الاسلام أمر غير بدع حتى يستغرب من

---

(23) النبـــوغ ج 1 ص 22 — 23 .

طارق وهو قد نشأ فى بيت اسلامى عربى . فعندنا سلمان الفارسى الذى قضى شطر حياته فى بلاد عجمية فلما أسلم بعد ذلك تفتق لسانه بالعربية الى أن قال فيها الشعر ، وبيته المضروب بـه المثل فى الاعتزاز بالاسلام واعتباره هو نسبه الذى يفخر به ، اذا افتخروا بقيس أو بتميم لا يخفى على أحد . ونمثل ببربرى آخر غير طارق وهو عكرمة مولى ابن عباس الذى قال فيـه الشعبى : ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة ، ومقامه فى العلم والرواية لا يجهل . (ثالثا) لانه ليس فى الخطبة من صناعة البيان ما يمنع نسبتها لطارق ، وبلاغتها فى نظرنا انما ترتكز أولا وبالذات على معانيها . والمعانى ليست وقفا على عربى ولا عجمى . نعم يمكن أن يكون وقع فى هذه الخطبة بعض تصرف من الرواة بزيادة أو نقص ، ونحن قد صححنا فيها بالفعل احدى العبارات التى لم تكن واضحة الدلالة على معناها ولكن هذا لا ينفى أصل الخطبة ولا يصح أن يكون حجة للتشكك فى نصهـا الكـامـل » (24) .

وفى رأى الاستاذ عبد الله عنان « انه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة الى طارق ، فان معظم المؤرخين المسلمين ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير اليها ، ولم يذكرها ابن عبـد الحكم ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ، ولم تشر اليها المصادر الاندلسية الاولى ، ولم يشر اليها ابـن الاثير وابن خلدون ، ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ،

---

(24) المصـدر السابـق ص 23 .

وهى على العموم أكثر ظهورا فى كتب المؤرخين والادباء المتأخرين . وليس بعيدا أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف ان كثيرا من قادة الغزوات الاسلامية الاولى كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ، ولكن فى لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ما يحمل على الشك فى نسبتها الى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقا فى الاسلام والعروبة ، والظاهر انها من انشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان » (25) .

وقريب من هذا الرأى ما ذهب اليه الدكتور أحمد هيكل ، فعنده أن الخطبة يحف بها كثير من الشك لاسباب هى :

1 ــ « أن طارق بن زياد كان بربريا مولى لموسى بن نصير ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . .

2 ــ ان المصادر الاولى التى سجلت حوادث الفتح قد خلت تماما من أى حديث عن هذا الادب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها فى باب الاساطير . وقد استوت فى ذلك الصمت عن هذا الادب المصادر الاندلسية والمغربية والمشرقية جميعا ، ولم يرد هذا الادب المنسوب الى طارق الا فى بعض المصادر المتأخرة كثيرا عن فترة الفتح مثل نفح الطيب . .

3 ــ الاسلوب الذى جاءت به لم يكن معروفا فى النثر العربى خلال الفترة التى تعزى اليها تلك الخطبة فالسجع

---

(25) دولة الاسلام فى الاندلس ــ العصر الاول ، القسم الاول ــ ص 47 .

الكثير والمحسنات المتكلفة قد شاعت فى عصر متأخر كثيرا عن القـــرن الاول .

4 ـ قوله لجنده وكانوا كما نعرف من البربر : (وقـــد اختاركم أمير المؤمنين من الابطال عربانا) . فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عربانا. ومن هنا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذى لا يقوله الا غير عالم بحقيقة جيش طارق » (26) .

وأغلب الظن أن فى كل هذه الاقوال (27) مبالغة لا تنكر . أما بالنسبة لما ذهب اليه الوالد وصاحب النبوغ فنحن نعرف أن البربر بمجرد أن أسلموا ، أو بالاحرى أسلمت طائفة منهم ، خرجوا للفتح من غير أن تتاح لهم أية فرصة ـ مهما كانت هذه الفرصة قصيرة ـ ليتعلموا اللغة العربية لدرجة تمكنهم مـــن الخطابة بهذا الاسلوب الذى وردت به خطبة طارق .

وأما بالنسبـــة لصـــاحب « الادب الاندلسى » وصاحب « دولة الاسلام » قبله فنحن لا نختلف معهما فى أن طارق بن زياد لم يتح له من تعلم اللغة ما يسمح له بالقاء تلك الخطبة ، ولكنا نختلف معهما فيما بعد ذلك . فاهمال المصادر القديمة لهذا الادب ـ ان كان هناك اهمال حقا ـ لا ينهض دليلا على رفضه، لا سيما ونحن نعرف ان ما وصلنا من هذه المصادر قليل جدا ،

(26) الادب الاندلسى ص 71 ــ 72 . وعليه اعتمد مؤلفا كتاب « الادب المغربى » حيث نقلا كلامه بتصرف .

(27) وقد سلم الدكتور عبد الكريم كريم ببعض هذه الاقوال ونقلها معتمدا عليها فى مقال له عن « الخطبة واحراق السفن » (مجلة الباحث س 3 م 3 ــ 1974) .

وأن ما وصلنا فيها من أخبار ونصوص ليس غير جزء ضئيل مما كنا ننتظر وما زلنا ننتظر أن يصلنا يوم يكشف النقاب عن تراثنا الدفين . ثم ان القول باهمال المصادر القديمة لهذه الخطبة قول مبالغ فيه ، فقد فات كلا من الاستاذين هيكل وعنان أن يطلعا على كتب كثيرة ألفت قبل « نفح الطيب » وردت فيها الخطبة بنصوص متشابهة حينا ومختلفة حينا آخر ، نرى ضرورة اثباتها هنا (28) :

1 — ففى تاريخ ابن حبيب (29) المتوفى سنة 239 هـ ورد انه « لما بلغ طارقا دنوه منه قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ثم قال : أيها الناس أين المفر والبحر من ورائكم والعدو أمامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر ، ألا وانى صارم الى طاغيتهم بنفسى لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه » .

---

(28) نشير هنا الى أن للدكتور عبد السلام الهراس مقالا حول هذه الخطبة أورد فيه نصها كما جاء فى معظم المصادر مع استعراض بعض الآراء حولها (خطبة طارق من جديد دعوة الحق س 11 ع 5 مارس — أبريل 1968) . وقد علق الاستاذ عبد الله كنون على هذا المقال بمقال صغير يحمل عنوان : (حول خطبة طارق) اضاف فيه نص الخطبة الوارد فى « سراج الملوك » للطرطوشى (دعوة الحق س 11 ع 6 — 7 مـاى 1968) .

(29) نشر قطعة منه فى ضميمة فى بحث د . محمود مكى المنشور مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد تحت عنوان :
Egypto y la Historiografia Arabico - Espanola
سنة 1957 عدد 5 ص 222 .

2 ــ وفى كتاب «الامامة والسياسة» يورد ابن قتيبة (30) المتوفى سنة 276 الخطبة بهذا النص : « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس ثم والله الا الصدق والصبر فانهما لا يغلبان وهما جندان منصوران ولا تضرهما قلة ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيها الناس ما فعلت من شىء فافعلوا مثلــه ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ألا وانى عامد الى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أقتل

---

(30) عند بروكلمان فى الجزء الثانى من الترجمة العربية (ص 230) : « يذكر دى خويه RSO I, 41521 ان هذا الكتاب صنف فى مصر أو فى بلاد المغرب فى أثناء حياة ابن قتيبة . وبعض أقسام الكتاب المذكور مأخوذ عن كتاب فى التاريخ ينسب الى ابن حبيب (ت 239 ــ 853) . انظـــر : Dozy. Recherches, 2 ed Bd I p 23, 3. edition Bd I, 9 - Noeldeke, Zdmg 1886, S. 316
وقد تحدث د . محمود مكى عن « الجزء الخاص بالاندلس من كتاب (الامامة والسياسة) المنسوب الى ابن قتيبة وعرض آراء الباحثين المحدثين فيه مثل ميكيلى أمارى وبسكوال دى جاينجوس ودوزى ودى خويه وهنرى بيرس ، وخلص من بحثه لهذه القطعة الى أن مؤلفها ينبغى أن يكون مصريا وأن يكون قد عاش فى القرن الثالث الهجرى . ثم أشار الى ان المؤرخين الاندلسيين والمصريين يتحدثون عن كتاب يسمونه (أخبار الناس) ألفه رجل من ولد موسى بن نصير فاتح الاندلس عن قصة الفتح وأشاد فيه بطبيعة الحال بالدور الذى قام به جده موسى فى كل ذلك . أما اسم هذا المؤلف فهو معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير . وقد استقصى الكاتب أخبار نسل موسى بن نصير بعد عودته الى المشرق وبين أن معاركا هذا ينبغى أن يكون مصرى النشأة وأن حياته انما كانت فى غضون القرن الثالث . فاذا فحصنا بامعان تلك الاخبار التى اشتملت عليها القطعة الخاصة بفتح موسى بن نصير للمغرب والاندلس وجدنا انها تتفق مع ما ذكره المؤرخون عن كتاب معارك بن مروان الذى اشرنا اليه بشكل يمكن أن يكون هذا الجزء وكتـــاب معـــارك شيئا واحدا » (مصر والمصادر الاولى للتاريخ الاندلسى ــ ملخصات ص 331 ــ 332 مجلة معهد الدراسات ــ المجلد الخامس 1957) .

دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعــوا فتفشلـــوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير . واياكم اياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد حل لكم من ثواب الشهادة فانكم أن تفعلوا والله معكم ومعيذكم نبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين وها أنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملى » (31) .

3 ـ وفى (سراج الملوك) للطرطوشى المتوفى سنة 520 هـ بعد الحديث ء ن القتال الذى دار بين جيش المسلمــين وجيش الروم : « فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضهم على الصدق والصبر ورغبهم فى الشهادة وبسط آمالهم ثم قال : (أين المفر البحر مــن ورائكم والعدو أمامكم فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم وانـــا فاعل شيئا فافعلوا كفعلى فو الله لاقصدن طاغيتهـــم فاما أن أقتله واما أن أقتل دونه) » (32) .

4 ـ وفى (ريحـــان الالبـــاب وريعـــان الشبـــاب فـــى مراتب الآداب) (33) لابى محمد عبد الله بن ابراهيم المواعينى الاشـبيلى ـ وكان معاصرا للموحدين ـ ورد تحت عنـــوان : (مقتضبة فى ذكر ولاة الاندلس من عهد فتحها الى وقتنا هذا) : « ولما أجاز طارق البحر ودمرهم قال : (انكم بين عدوين بين

---

(31) ج 2 ص 53 .
(32) ص 154 .
(33) مخطوط بالخزانة الملكية رقم 2647 .

أهل الكفر وبين البحر فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عمــلا صالحا) وأحرق سفن الجواز .. فلما أشرف طارق على جمعهم قال لاصحابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وانــى مصمم بنفسى نحو طاغيتهم حتــى يحكم الله بينى وبينه وقد فرض الله الواحــد منكــم العشرة فاحملوا كما أمر الله ينصركم « وان ينصركم الله فــلا غالب لكم » ثم أجاز موسى البحر الى الاندلس .. » .

5 ــ وفى (وفيات الاعيان) لابن خلكان المتوفى سنة 681:

« فلما بلغ طارقا دنوه قام فى أصحابه فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ثم قال : « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكــم والعدو أمامكم فليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلمــوا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مآدب اللئام وقــد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمــرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب برعبها منكــم الجــرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته المحصنة وان انتهــاز الفرصة فيه لممكن لكم ان سمحتم بأنفسكم للموت وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متــاع فيها النفوس أبدا فيها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم علــى الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم

عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعام واستماحكم لمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة ويكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم اليه وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون » (34) .

6 — وفى (تحفة الانفس وشعار أهل الاندلس) لعلى بن عبد الرحمن بن هذيل — وهو من كتاب القرن الثامن الهجرى — ورد هذا النص : « أيها الناس أين المفر . البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم

(34) ج 2 ص 177 — 178 لدى ترجمة موسى بن نصير .

لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبـــة مـــن أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانـــى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاعا فيها النفوس أبدأ بنفسى واعلموا أنكم ان صبرتم علـــى الاشق قليلا فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبـــد الملك أمير المومنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم لمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثوا بالله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين . أيها الناس ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال وانى عامد الى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيـــل وأسير واياكم اياكم أن ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما

عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين وها أنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى » (35) .

ومن عجيب الامر أن ينقل عنان هذه الخطبة من نص ابن هذيل ثم يترك القارىء يفهم من تعليقه عليها ان النفح أقدم مصدر أوردها ، ونحن نعرف ان صاحب النفح توفى سنة 1041 هـ .

وأظننى فى موضوع الاسلوب لا أرى ما يباعد بين خطبة طارق وخطب الامويين ، من حيث التأثير على المشاعر ، واثارة العواطف ، واللجوء فى ذلك الى الاستفهام والتساؤل والتمنى والترغيب واستعمال الالفاظ القوية فى الجرس والمفهوم . واذا كان السجع قد اختفى من خطابة هذا العصر فى مفهومها العام ، فانه لم يختف من المحاورات وبعض الخطب السياسية .

أما قول طارق « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الابطال عربانا » فلعل المقصود به القواد العرب الذين كانوا على رأس فرق الجيش . بل أنا نجد فى بعض الروايات كلمة العربان هذه قد أضيفت اليها نقطة فأصبحت عزبانا (36) جمعا لعزب وهو الذى لم يتزوج . وليس مستبعدا أن تكون هذه الرواية صحيحة

---

(35) دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 ص 46 — 47 نقلا من تحفة الانفس (لوحة 48 مخطوط رقم 1652 الاسكوريال) وكان قد نشره المستشرق مرسييه . ويلاحظ ان النص الوارد فيه يجمع بين نصى ابن قتيبة والمقرى .

(36) انظر النفح ج 1 ص 226 .

بدليل قول الخطبة بعد ذلك : « ورضيكم لملوك هـذه الجزيرة أصهـارا وأختـانا » (37) .

والرأى عندى بعد هذا ان الخطبة ثابتة وان كان اختلاف النصوص يدعو الى الشك فى هذا الثبوت ، ثم انى أرجح انهـا ليست من انشاء طارق وانما كتبت له ليلقيها فى الجيش ، وانها فى هذه الحالة من انشاء عربى من الفاتحين يتقن الكتابة بل لعل مهمته كانت تقضي أن يكتب للجيش ولقائده . وليس هذا بغريب فقد كان مألوفا أن تكتب للامراء والوزراء خطبهم ورسائلهم ، بل ما زلنا اليوم نرى المسؤولين على مختلف طبقاتهم يكتب لهم حين يريدون أن يخطبوا أو يراسلوا ، سواء منهم من يعـرف اللغـة أو يجهلهـا .

ونفى انشاء الخطبة عن طارق لا يمس اسلامه ولا يطعن فى عملية الفتح أو يشكك فى حقائق التاريخ كما قد يظن (38) . ولعلنا فى غنى عن القول بأنه ليس فى اثباتها جملة أو عدمه مـا يريد شيئا فى الاسلام أو ينقص منه ، بل ان تعثر الفتح نفسه فى المغرب ــ وهو حقيقة تاريخية ــ لا يؤثر على الديـن ولا يخدش عقيدة المغاربة حتى من تأخر اعتناقهم له .

وهبنا نقبل جدلا أن الخطبة لطارق ، وانها دليـل علـى انتشار اللغة العربية واتقان البربر لها فى هذا العهد المبكر ، فأين هى اذن آثار هذا الانتشار والاتقان ؟ أيعقل أن يكون لسان

---

(37) ج ختن وهو الصهر أو كل من كان من قبل المرأة .
(38) انظر مقال « حول الثقافة العربية المعاصرة فى شمـال المملكـة المغربية » للدكتورة آمنة اللوه (دعوة الحق س 16 ع 6 ماى 74).

البربر قد تعرب لدرجة انشاء الخطب البليغة ، وليس غير طارق متعربا خطيبا ؟ أيعقل ذلك فى هذا الوقت – فى أواخر القــرن الاول – ونحن لن نعثر بين المغاربة بعد ذلك على من ينشىء أدبا الا فى القــرن الرابــع .

على أننا ونحن نناقش صحة نسبة هذه الخطبة لطارق ، لا نرى مناصا من ادخال أصل صاحبها فى الموضوع ، وهو عنصر يحدد اتجاه تناولنا للخطبة ، حيث أننا نبحثها ونهتم بها على اعتبار أنها صادرة عن طارق ، مفترضين أو مسلمين انه مولــى لموسى بن نصير وانه من البربر الزناتيين أ والنفزاويين ، وان كنا نرتاب فيما يقال من أن والد طارق وجده كانا مسلمين كما يتضح من اسمه « طارق بن زياد ابن عبد الله » (39) لان ذلك لا يساير حوادث التاريخ التى تجعل الفاتح الاول للمغرب وهو عقبة يصل عام 61 – 62 ه ، الا اذا كنا نتفق علــى أن طارقا وأباه وجده كانوا جميعا على قيد الحياة فى هذا الوقت وأسلموا فى فتــرة واحــدة .

وقد يتخذ البحث اتجاها آخر ، وربما يصبح غير ذى جدوى اذا نحن افترضنا أو سلمنا بأنه ليس مولى ولا بربريا وانما هو من صدف ، أو اذا نحن افترضنا أو سلمنا بأنه مولى لموسى ولكن ليس بربريا وانما مولى له فارسيا من همدان (40).

وما قلناه عن الخطبة نقوله عن الابيات الشعرية التــى

---

(39) البيــان المغــرب ج 1 ص 43 .
(40) انظــر النفــح ج 1 ص 238 .

أوردها له المقرى (41) نقلا عن الحجارى فى المسهب وابن اليسع فى المغرب ، وهـــى :

ركبنـــا سفينا بالمجـــاز مقيـــرا عسى أن يكون الله منا قداشترى
نفوسا وأمـــوالا وأهلا بجنـــة اذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا اذا نحن ادركنا الذى كان أجدرا

وقد علق والدنا على الابيات بقوله : « .. وقـــد اشتـــد شوق الاخوان البرابرة وقوى شغفهم باللسان العربى الجديـــد ساعة ما أخذ القائد طارق يخاطب اخوانه بلون جديد من ألوان الكلام منشدا اخوانه قصيدته فى الفتح .. بل حسبنا أن نرى هذا اللون من الكلام المقفى والاسلوب المتزن الجديد الذى لا تفتـــأ تقاطيعه الشعرية ونبراته الغنائية ذات النوبات التفعيلية القارة تجتذب نفسية الاخ البربرى وتحرك شوقه الحار لهذا النـــوع الطريف من القول الحافز بهدوئه الموسيقى الى الاصغاء بقلب واع ونفس تواقة للنسج على منواله الهندسى الدقيق رافعا مكانته فى مقام الكلام الى أسمى ذروة فى الوزن والتقفية » (42) .

* * *

ولعلنا الى جانب هذه الخطبة والابيات ، نستطيع أن نقسم الانتاج الادبى ــ ان صح أن نسميه كذلك ــ الى فرعين :

الاول : انتاج غير مغربى ولكنه قيل فى المغـــرب . ويجب الانتباه فى هذا المضمار الى أننا قد نجد فى المصادر التى تحدثت عن

---

(41) ج 1 ص 248 حيث قال : « وانشد فى المسهب وابن اليسع فى المغرب لطارق من قصيدة قالها فى الفتح » .
(42) تاريخ الادب الناشر والشاعـــر ص 5 .

هذه الفترة بعض الشعر ينسب لولاة أو غيرهم ، وفدوا الى المغرب ، ولكن قد لا تعنى « المغرب الاقصي » بقدر ما تعنى كل الشمال الافريقى ، على حد ما نقرأ ليزيد بن حاتم (43) فى هذين البيتين :

ما يألف الدرهم المضروب خرقتنا   الا لماما يسيرا ثم ينطلق
يمر مرا عليها وهى تلفظه   انى امرؤ لم يحالف خرقتى الورق(44)

ويعتبر الشاعر الناهرتى بكر بن حماد (45) أشهر من وفد على المغرب ومدح حكامه . وله فى أحمد بن القاسم بن ادريس هذه الابيات :

ان السماحة والمروءة والندى   جمعوا لاحمد من بنى القاسم
واذا تفاخرت القبائل وانتمت   فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار فى درج العلا   وعلى العضب الحسام الصارم
انى لمشتاق اليك وانما   يسمو العقاب اذا سما بقوادم
فابعث الى بمركب أسمو به   على أكون عليك أول قادم
واعلم بأنك لن تنال محبة   الا ببعض ملابس ودراهم(46)

وله فى أبى العيش عيسى بن ادريس صاحب جراوة وتلمسان قصيدة منها هذه الابيات :

---

(43) المتوفى سنة 171 ، وكان قد ولاه أبو جعفر المنصور على افريقية والمغرب بعد أن كان تولى أرمينية والسند ومصر واذربيجان وغيرها .
(44) البيان المغرب ج 1 ص 81 .
(45) حوالى 200 — 296 هـ . أنظر فيه « الدر الوقاد » لمحمد رمضان شاوش .
(46) البيان المغرب ج 1 ص 236 والدر الوقاد ص 72 — 73 .

سائل زواغة عن فعال سيوفه ... ورماحه فى العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها ... والخيل تمرغ بالوشيج الذبل
وغشى مغيلة بالسيوف مذلة ... وسقىجراوةمن نقيع الحنظل (47)

كذلك نقرأ هذه الابيات من أرجوزة للشاعر أحمد بن جعفر المروزى ، وكان قد مال لعبيد الله حين دخل مدينة نكور منتصرا على سعيد بن صالح :

لما طغى الأرذل وابن الارذل ... فى عصبة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معقلى ... أتاه محتوم القضاء الفيصل
من الاله كالحريق المشعل ... فحل أرضا طالما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكلكل ... وجاء رأس رأسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل ... ذو لمة شاعثة لم تغسل
ولحية غبراء لم ترجل (48)

وربما جاز لنا أن نعتبر من الادب الوافد ذلكم الادب الذى صدر عن الادارسة . حقا انهم أقاموا فى المغرب ونشأوا فيه ، ولكنهم ظلوا يعيشون فى بيئة عربية خالصة ، ولم يتح لهم من ظروف الزمن وعوامل الاندماج ما يعتبرون به مغاربة ، الا ما كان من حفدتهم فانهم قد يسحبون من هذا الحكم . فباستثناء الرابط الدينى لم تكن توجد — فى الفترة الاولى للادارسة — عناصر مشتركة من شأنها أن تخلق التكاثف والتجانس والامتزاج، وأن تخلق بالتالى نمطا ثقافيا وحضاريا واحدا يجمعهم مع

(47) المسالك والممالك ص 143 والبيان المغرب ج 1 ص 200 والدر الوقاد ص 74 .
(48) المسالك ص96 وانظر البيان ج 1 ص 179 — 180 مع بعض التعديل

المغاربة داخل اطاره ونطاقه ، بل كانوا يعيشون خارج النمط المحلى . وكذلك كان المغاربة الذين لم تكن قد أتيحت لهم ظروف التعرف على ما فى النمط العربى المشرقى الذى حمله الادارسة ، فضلا عن أن يندمجوا فيه وينسجموا معه ، علما بأننا لا نعرف الا أشياء قليلة عن بنيات كل من النمطين . وقد ظل الادارسة مشارقة بالروح والعقلية وبنمط الحياة وبطبيعة العلاقات ومستوى التعبير ، لا يفارقهم الشعور بأرومتهم ، ذلكم الشعور الذى كان ثابتا فيهم متأصلا يتمثل فى الحنين الذى لم يخب قط فى نفوسهم ، بل ان هذا الحنين ظل يراودهم بقوة فى بعض الاحيان ، وخاصة حين تتأزم الاحداث والظروف ، على حد ما نقرأ لادريس الثانى يشكو الهموم وبعد الاحباب (49) :

لو مال صبرى بصبر الناس كلهم	لضل فى روعتى أو ضل فى جزعى
وما أريع الى يأس ليسليني	الا .. يأس الى طمع
وكيف يصبر مطوى هضائمه	على وساوس هم غير منقطع
اذا الهموم توافت بعد هجعته	كرت عليه بكأس مرة الجرع
بان الاحبة واستبدلت بعدهم	هما مقيما وشملا غير مجتمع
كأننى حين يجرى الفكر ذكرهم	على ضميرى مخبول من الفزع
تأوى همومى اذا حركت ذكرهم	الى جوانح جسم دائم الولع

وبأقوى من هذا النفس ، وفى شيء غير قليل من اليأس والانسلاخ عن كل ما قد يربطه بالمغرب ، يتحدث ابنه القاسم فى معرض اعتذاره عن محاربة عيسى بن ادريس حين خرج على

---

(49) الحلة السيراء ج 1 ص 55 — 56 .

أخيه محمد فيقول :

سأترك للراغب الغرب نهبـا وان كنتفى الغرب قيلا وندبا
واسمو الى الشرق فى همـة يعـز بهـا رتبا مـن أحبـا
وأتـرك عيسى علـى رأيـه يعالج فى الغرب همـا وكربا
ولو كان قلبـى عـن قلبـه لكنت لـه فى القرابـة قلبـا
وان أحدث الدهر مـن ريبـه شقاقا علينـا وأحدث حـربا
فانى أرى البعـد سترا لنـا يجـدد شوقا لدينـا وحبـا
ولم نجن قطعا لارحـامنـا نلاقى به آخر الدهر عتبـا
وتبقـى العـداوة فى عقبنـا وأكـرم بـه حين نعقب عقبا
وأوفق من ذاك جوب الفلاة وقطع المخارم نقبا فنقبا(50)

ويكاد كل الشعر الذى صدر عن الادارسـة يكشف عـن اضطراب نفسى ناتج عن الظروف المتأزمة التى كانوا يعيشون ، سواء فيما بينهم أو مع خصومهم . وهذه أبيات كتب بها ادريس الثانى لبهلول بن عبد الواحد المضغرى ــ وهو مغربى كما سنرى بعد ــ وكان قد مال الى ابراهيم بن الاغلب عامل الرشيد علـى افريقية ، يقـول فيهـا :

أبهلول قد حملت نفسك خطـة تبدلت منهـا ضلـة برشـاد
أضلك ابراهيم مـع بعد داره فأصبحت منقادا بغير قيـاد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب وقدما رمى بالكيد كـل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا ومناك ابراهيمشوك قتاد(51)

ومثلها أبيات لابراهيم بن ادريس بعد أن أخرجه المنصور

(50) المصـدر السابـق ص132 ــ 133 .
(51) الاستقصـا ج 1 ص 164 .

ابن أبى عامر من قرطبة ، قالها يخاطب المروانيين لما رأى غلبة المنصور على هشام المؤيد ، وهى :

فيما أرى عجب لمن يتعجب ... جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى لاكذب مقلتى فيما أرى ... حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد ... ويسوس هذا الملك هذا الاحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج ... أعواده فيهن قرد أشهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى ... منكم وما لوجوهها تتغيب(52)

وابراهيم هذا هو صاحب قصيدة طويلة فى مدح مؤيد الدولة هذيل ابن خلف بن رزين ، وقد أورد منها ابن الابار هذه الابيات : (53)

للبين فى تعذيب نفسى مذهب ... ولنائبات الدهر عندى مطلب
أما ديون الحادثات فانها ... تأتى لوقت صادق لا تكذب
والبين مغرى كيده بأولى النهى ... طبعا تطبع والطبيعة أغلب
أيقنت أنى للرزايا مطعم ... ودمى لوافدة المكاره مشرب
فأنا من الآفات عرض سالم ... وجوانح تكوى وعقل يذهب

وفى هذا الاطار يقول عبيد الله بن يحيى بن ادريس يخاطب الناصر لدين الله الاموى بعد أن فتح سبتة سنة 319 :

بسيفك دانت عنوة وأقرت ... بصائر كانت برهة قد تولت
وما قربت أهواؤها اذ تقربت ... ولا حليت بالزى لما تحلت
ولكن أزالت راسيات عقودها ... عزائم لو ترمى بها العصم زلت
ودولة منصور اللواء مؤيد ... تدال بحمد الله من شر دولة

---

52 الحلة السيراء ج 1 ص 227 .
53 نفس المصدر .

فهذا أوان النصر منها وهــذه   بشائره تروى الانام بسبتة(54)

ثم لا نلبث أن نصل الى ما ينسب لادريس الثانى من خطب، وخاصة خطبته بعد مبايعته والخطبة التى ألقى فى أول جمعــة أقيمت بعد بناء مدينته ، فنجد أن الامر يختلف .

أما الاولى ــ ومن العبث محاولة اثبات صحة نسبتها له ــ فقالها وهو طفل عمره أقل من احدى عشرة سنة ، لا مجال للحديث عن « فصاحته وبيانه ورصانة عقله وبلاغته » (55) . وفيها جاء : « الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه وأعوذ بالله من شر نفسى ونمر ذى شر ، وأشهد أن لا الاه الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله الى الثقلين بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، صلى الله عليه وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، أيها الناس انا قد ولينا هذا الامر الذى يضاعف للمحسن فيه الاجر وللمسىء الوزر ، ونحن والحمد لله على طريق قصد فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا فان الذى تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا » (56) .

وأما الخطبة الثانية ، وقالها بعد الاولى بنحو ست سنوات ، فلعل حدة الشك حولها تخف ، وقد ختمها بهذا الدعاء : « اللهم انك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه

(54) البيــان ج 1 ص 201 .
(55) جنــى زهــرة الآس ص 16 .
(56) نفس المصــدر .

وسلم ما بقيت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الارزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قدير » (57) .

ولعلنا ، ونحن نبحث فى هذا الجانب من شعر المشارقة الذى قيل فى المغرب ، أن نتساءل عما قال شعراء الفتح الاسلامى — ان كان هناك شعراء — سواء ما كان منه متعلقا بالوقائع أو ما كان معبرا عن مشاعرهم فى هذه الوقائع من رثاء للشهداء وحنين الى الاوطان والاحباب ، على حد ما نقرأ فى شعر الفتوح الشرقية فى بغداد وفارس ، وهو ذلك الشعر الذى يزخر به كتاب فتوح البلدان للبلاذرى وتاريخ الطبرى ومعجم البلدان لياقوت الحموى والاسف أنا لا نجد مثل ذلك شعرا يصور الفتح الاسلامى للمغرب، وأغلب الظن أن السبب راجع الى طبيعة هذا الفتح والى أن الجيوش التى شاركت فيه كانت فى جلها مكونة م نعرب الجنوب ومن أهل اليمن خاصة ، ومعروف أن حظهم من الشعر قليل وربما لا يذكر . والاسف أن هذه الظاهرة لم تؤثر على حال شعر الفتح فقط ، بل تعدته الى تأخر النهضة الادبية عموما وتخلفها فى المغرب.

الثانى : انتاج مغربى ولكن قليل . ويكاد ما وصلنا منه يتصل كله بالصراع السياسى والمذهبى الدائر حول أزمة الخلافة فى المشرق وحول قضية النفوذ والحكم فى المغرب ، يعبر — شأنه كشأن أدب الادارسة — عن ظلامية المرحلة وما كانت تعكس فى نفوس المغاربة من ملامح الاضطراب وعدم الاستقرار . ويبرز

(57) الاستقصا ج 1 ص 167 .

لنا فى طليعة الاسماء بهلول بن عبد الواحد المضغرى الذى كان « رئيسا فى قومه » (58) و « من خاصة ادريس .. وأركان دولته » (59) ، وكانت له مكاتبات مع ابراهيم بن الاغلب الذى « أرهف عزمه للتضريب بين البربر واستفسادهم على ادريس » (60) أفضت فى النهاية الى مساندة البهلول لابن الاغلب الذى كان قد جند نفسه لخدمة بنى العباس فى الشمال الافريقى . ويهمنا فى هذا الصدد أن نورد أبياتا للبهلول يخاطب فيها ابن الاغلب ، وهى :

لئن كنت تدعونى الى الحق ناصحا ... لتكشف عن قلبى ضمير خلاف
لقد ما أتانا عنك أنك ناصح ... لمن قال بالصلح الخلافة كاف
وانك محمود النقائب عندهم ... تزين ما تأتى لهم بعفاف
فعجل على رد رأيى فاننى ... أرد الهوى للحق حين يوافى (61)

وفى اتجاه مضاد يقول شاعر سعيد بن صالح صاحب امارة النكور مخاطبا عبيد الله الشيعى الذى كان تغلب ودعا أهل المغرب الى الدخول فى طاعته :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ... ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت الا كافر ومنافق ... تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد ... وقد جعل الرحمن همتك السفلى (62)

---

(58) الحلة السيراء ج 1 ص 111 .
(59) الاستقصا ج 1 ص 164 .
(60) المصدر السابق .
(61) الحلة السيراء ج 1 ص 112 .
(62) البيان المغرب ج 1 ص 178 والمسالك ص 95 .

وهى رد على أبيات كان بعث بها عبيد الله ، منها قوله :(63)

فان تستقيموا أستقم لصلاحكم | وان تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاهرا لسيوفكم | وأدخلها عفوا وأملأها قتلا

ومن أسماء الشعراء التى وصلتنا : سعيد بن هشام المصمودى وعبد الله الكفيف ومحمد بن اسحاق البجلى وابراهيم بن محمد الأصيلى وابراهيم بن أيوب النكورى .

فمن شعر سعيد قوله يهجو البرغواطيين وأميرهم أبا عفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ويذكرهم بوقعة بهت التى هزموا فيها ، وفى « البيان المغرب » (64) انها قصيدة طويلة ، منها هذه الابيات (65) :

قفى قبل التفرق فاخبرينا | وقولى واخبرى خبرا مبينا
هموم برابر خسروا وضلوا | وخابوا لاسقوا ماء معينا
الايم أمة هلكت وضلت | وزاغت، عن سبيل المسلمينا
يقولون النبى أبو عفير | فأخزى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر يوم بهت | على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى | وعاوية ومسقطة جنينا
سيعلم أهل تامسنا اذا ما | أتوا يوم القيامة مفظعينا
هنالك يونس وبنو أبيه | يقودون البرابر حائرينا

---

(63) المصدر السابق .
(64) ج 1 ص 226 .
(65) وردت فى مصادر مختلفة وبنصوص غير موحدة (انظر البيان ج 1 ص 226 والمسالك ص 183 وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 208) ولعله واضح أن التأثر كبير فى هذه القصيدة بمعلقة عمرو بن كلثوم ، وأولها :
الا هبى بصحنك فاصبحينا | ولا تبقى خمور الاندرينا

اذا وريــاورى زمــت عليــه   جهنــم قائــد المستكبــرينـــا
فليس اليــوم ردتكــم ولكن   ليالى كنتم متميسرينـــا (66)

ومن شعر عبد الله الكفيف فى حاميم الغمارى المفتــرى المسمى بابن من الله وكان قد تنبأ فى غمارة (67) :

وقالوا افتراء ان حاميم مرسل   اليهم بدين واضح الحق باهر
فقلت كذبتم بدد الله شملكم   فما هو الا عاهر وابــن عاهر
فان كان حاميم رسولا فاننى   بمرسل حاميــم لاول كافــر
رووا عن عجوز ذات افك كهينة   تجاوز فى أسحارها كل ساحر
أحاديث افك حاك ابليس نسجها   يسرونها والله مبدى السرائر (68)

أما عند غير هؤلاء فيميل القول الى التعبير الذاتى على حد ما نقرأ لمحمد بن اسحاق البجلى فى عدوة القرويين بفاس :

يا عدوة القرويين التى كرمت   لا زال جانبك المحبور ممطورا
ولاسرى الله عنك ثوب نعمته   أرض تجنبت الآثام والزورا (69)

وعلى حد ما نقرأ كذلك لابراهيم بن محمد الاصيلى (70) معرضا بمدينــــة فاس :

دخلت فاسا ولى شوق الى فاس   والحين يأخذ بالعينين والرأس
فلست أدخل فاسا ما حييت ولو   أعطيت فاسا بما فيها من الناس (71)

---

(66) نسبة الى ميسرة المضغرى صاحب ثورة طنجة .
(67) ادعى النبوة فى غمارة سنة 310 ووضع على نسق البورغواطيين تشريعا تمحرفة عن الاسلام ولم يدم أمره طويلا حيث قتل سنة 315
(68) البيان المغرب ج 1 ص 192 والمسالك والممالك ص 100 — 101 (مع بعض الاختلاف فى النص) .
(69) انظر المسالك ص 117 .
(70) والد المحدث الفقيه عبد الله بن ابراهيم الاصيلى المتوفى سنة 372. وعند البكرى انه المذحجى (ص 117) .
(71) البيان ج 1 ص 183 والمسالك ص 117 .

وهو القائل فى أرض هوارة وكان بها قوم يعرفون ببنى زياد (72) :

سقى غربى أرض بنى زياد سحائب ما يجف لها غروب
ولا زال النعيم يعم قوما ازاءهم من الشرق الكثيب

أما ابراهيم بن أيوب النكورى فيقول :

أيا أملى الذى أبغى وسولى ودنياى الذى أرجو ودينى
أأحرم من يمينك رى نفسى ورزق الخلق فى تلك اليمين
ويحجب عن جبينك لحظ طرفى ونور الارض من ذاك الجبين
وقد جبت المهامة من نكور اليك بكل ناحية أمون (73)

ولعله واضح من هذه القطع والابيات ــ وهى تمثل جل الشعر الذى قيل أو بالاحرى الذى وصلنا عن هذه الفترة ــ انها فى غالبها تصوير لبعض جوانب الاضطراب الذى كان يعانيه المغرب ، وانها بلغت من اليسر فى الاسلوب ومن البساطة فى العواطف ومن الوضوح فى المعانى درجة تكاد أن تصل الى الفتور والضعف ، مما يجعلنا لا نبالغ حين نحكم عليها بالهزال ، وكذلك نحكم على حال الادب المغربى عموما فى هذه المرحلة .

72) البيان ج 1 ص 235 .
73) المسالك ص 91 .

التيار الفقهي المرابطي
ومدى تأثيره على الفكر والادب

---

* نص المحاضرة التى افتتح بها الموسم الدراسي لجامعة محمد الخامس (1973 — 1974) · وقد القيت يوم الاربعاء 7 نوفمبر 1973 بمدرج ابن خلدون بكلية آداب الرباط · (نشرت بمجلة دعوة الحق العددان الرابع والخامس صفر 1394 مارس 1974 وزارة الاوقاف والشؤون الاسلاميــة ـــ المغرب) ·

موضوع هذه المحاضرة التى يشرفنى أن أفتتح بها الموسم لجامعى الجديد هو : « التيار الفقهى المرابطى ومـــدى تأثيره على الفكر والادب » وسأناقش فيه قضية لعلها من أهم القضايا لتى يثيرها أدبنا ــ الادب المغربى ــ والتى لا جدال فى أنهـــا تعترض إلباحثين فيه .

هذه لقضية ترتبط فى اطارها العام بفكـــرة شاعت عنـــد الدارسين وغير الدارسين ، تذهب الى طغيان الروح الدينى والطابع الفقهى على أدبنا فى مختلف أنواعه وأشكاله وعلى مر الحقب والعهود ، وترتبط فى اطارها الضيق بعصر لا أخال عصرا من عصور التاريخ والادب فى المغرب تعرض لما تعرض له من نقد متطرف لاذع ، كاد لشدته وعنفه أن يشوه ملامح صورة القوة والمجـــد التى رسمها المغاربة على صفحات التاريخ لهذا العهد ، ببطولة نادرة وفى كثير من الصدق والاخلاص .

ويتلخص هذا النقد فى حملة اتهام للمرابطين بالاقتصار على الفقه والجمود عنده ومحاربة ما سواه . وقد بدأت هـــذه الحملة على المرابطين منذ عهد خصومهم الموحدين ، وعلى يـــد مؤرخ موال لهم هو عبد الواحد المراكشى ، ثم انتقلت الى بعض الاندلسيين أمثال الشقندى ، واستمرت كذلك الـــى أن تلقفهـــا المستشرقون فيما بعد ، لهوى صادفته فى نفوسهم ، وغلفوها بمظهر من الموضوعية العلمية والبحث النزيه ، حتى حمل عنهم عبء شنها بعض الدارسين العرب ، سواء منهم المشارقـــة أو المغاربة ، عن اقتناع حينا وعن تقليد فى غالب الاحيان .

ويكفينا للتعرف على الاتجاه الذى سارت فيه هذه الحملة أن نستعرض أمثلة من أقوال هؤلاء :

يقول المراكشى فى المعجب : « فلم يكن يقرب مـن أمير المسلمين ويحظى عنده الا من علم علم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره الى اختلال فى العقائد » (1) .

وعند المستشرق دوزى فى تاريخه ان الحياة الفكرية تدهورت فى الاندلس المرابطية بسبب سيطرة الفقهاء (2) .

أما المستشرق أشباخ فبأقسى من هذه اللهجة يتحـدث ، ويذهب فى تاريخه للاندلس الى أن المرابطين « اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ، وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التى تنكرها التعاليم المرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التى تحتويها وأحرقوها علنا » (3) .

وفى موضع آخر من تاريخه يضيف : « ظهر المرابطون من

(1) ص 172 .
(2) ج 3 ، ص 155 .
(3) ج 2 ، ص 239 .

بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء لكل حضارة عربية ، ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حيث يهب على الغياض النضرة ، تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون .. وكان أولئك الحكام القساة يمقتون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة بكل ما وسعوا ، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون كتبهم » (4) .

* * *

ونود منذ البدء أن نقرر أن التيار الفقهي ــ متمثلا فى المذهب المالكى ــ كان موجودا بالفعل على عهد المرابطين . ولكنه لم يكن جديدا على المغاربة . فقد أخذوا به والتزموا بآرائه فقها وعقيدة منذ العهد الادريسي ، واستمروا يعمدون به ــ ولا يزالون ــ لاسباب ترتبط بعملية فكرية تاريخية طويلة ستحيد بنا عــن الموضوع لو حاولنا تناولها . كل ما فعل المرابطون انهم عمموا نشره واتخذوه دليل عمل لحركتهم الاصلاحية .

ومعروف ان الدولة قامت على أساس من الاصلاح الدينى، انطلاقا من التفوق الاقتصادى ، لحماية هذا التفوق من جهة . ولضرورة تقتضيها هذه الحماية ، وهى اقامة تنظيم سياسى . أى اقامة الدولــة .

هنا يحق لنا أن نذكر ما قاله يحيى بن ابراهيم الجدالــى ــ أحد زعماء المرابطين قبل انشاء الدولة ــ فى التعبير عن الواقع الفكرى للمنطقة التى خرج منها هؤلاء المرابطون . فقد قــال :

---

(4) ج 2 ، ص 250 .

« اننا فى الصحراء منقطعو ن، لا يصل الينا الا بعض التجار الجهال ، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ، ويرغبون فى الفقه والدين لو وجدوا الى ذلك سبيلا » (5) .

وهذا النقد الذاتى المتمثل فى هذا الاعتراف بالجهل كان فى الواقع أساس انبعاث صادق ، وأساس تطور المعرفة عند المرابطين ، تلكم المعرفة التى انطلقوا منها فى حركتهم الاصلاحية حتى أتيح لهم انشاء الدولة .

مهما يكن ، فقد أسس المرابطون — ولاول مرة — دولة بكامل المعنى ، ليس على مستوى القطر المغربى فحسب ، بل على مستوى منطقة تمتد فى الشمال الافريقى والصحراء وفى شبه الجزيرة الايبيرية . ونقول لاول مرة لان المغرب لم يكن يعرف من قبل غير نظام الامارات الموزعة هنا وهناك على أساس أسرى أو قبلى .

وقد ساعدت على ظهور هذه الدولة جملة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : التحام عدد من القبائل الكبيرة ، وأهمها لمتونة وجدالة وجزولة . وهو التحام لم يلبث أن تحول الى سند شعبى لم يلبث بدوره أن تحول الى سند عسكرى لم يلبث فى النهاية أن تحول الى قوة .

---

(5) الحلل الموشية ، ص 9 .

ثانيا : قوة اقتصاد هذه القبائل وسيطرتها على مناجم المنطقة وطرقها التجارية .

ثالثا : (وهو مهم) اعتماد المرابطين فى مبادىء حركتهم الاصلاحية على المذهب المالكى حيث كان المغاربة مستعدين (وهنا تكمن أهمية هذا العامل) لقبول هذه المبادىء لمعرفة سابقة لهم بالمذهب ولموافقة مزاجهم .

وكان — وفى هذه المرحلة التاريخية بالذات — المذهب الوحيد القادر على توحيد المغاربة فى خط ايديولوجى معين .

ولعلنا أن نسجل هنا أن المستوى الفكرى والحالة العقلية التى كان عليها المغاربة يومئذ لم تكن لبساطتها تسمح بفتح المجال للمذاهب المعقدة ، وانما كانت فى حاجة الى أن تثبت فيها قواعد الدين ومبادئه الاولية بأبسط ما يكون . وليس يخفى ان المذهب المالكى — باعتماده على النص والنقل وابتعاده عن المنطق والقياس — كان أكثر من غيره قدرة على تحقيق هذا الهدف . ولو حصل شىء غير ذلك فى هذه الفترة الاولى من عهد الاصلاح لعاد المغرب لما كان يعانى من فوضى فكرية ، ولاستغل المشعوذون وأصحاب الاغراض هذه الفوضى لترويج بضاعات مزيفة ومذاهب باطلة ضالة — وما أمر البورغواطيين ببعيد — من شأنها أن تصدع الصفوف وتمزق الوحدة وتبعث على التفرقة والضلال ، لا سيما وان العالم الاسلامى فى هذه الفترة كان يتخبط فى خلافات مذهبية وانقسامات حزبية لم يكن يجنى منها غير ألوان من التفرقة وضروب من التنافر والتناحر لا حد لها ولا حصر .

من هنا لم يكن الدين عند المرابطين مجرد مذهب ، بل حركة تقود نضالهم ، وتكيف طبيعة هذا النضال ، وتحدد شروطه وغاياته . ومن تحليل للواقع التاريخي وتناقضاته سواء فى المغرب أو الاندلس ، فى المغرب الـذى كـان يتخبط فى فوضى فكريـة واضطراب سياسى ، ثم فى الأندلس التى كانت ظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية تنذر بالانهيار ، من تحليل هذا كله انطلق المرابطون يحققون الاصلاح الدينى ، ويحققون فى نفس الوقت الاسلام المبسط الواضح فى صيغة ثوريـة كـانت رهنا بمرحلة نضالية محدودة الاهداف ، لا ترمى الى برنامج طويل الامد والى أهداف بعيدة ونهائية . وكانوا فى هذه المرحلة مطالبين بتحديد طبيعة الدولة وتحديد علاقاتها بالمجتمـع ، أى تحديـد المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أى وضع تنظيم متكامل ، ولكن على غير النموذج الذى كان ينهـار أمامهـم فى الاندلس .

والاصلاح ــ بصفة عامة ــ اما أن يدعو له فلاسفة ومفكرون ينطلقون فيه من تأملات واستنباطات وارهاصات بالنظـر الى الاوضاع ونقدها وتمثل صياغة جديدة لهذه الاوضاع ، واما أن يدعو له رجال الدين بالرجوع الى كتب هذا الدين ومبادئه ، وهذا ما حدث فى ظل المرابطين .

ولنا أن نتساءل : من هم رجال الديـن الذيـن قـادوا هـذه الدعـوة ؟

والجواب ليس صعبا ، فالداعية الاول هو عبـد الله بـن

ياسين وهو فقيه مالكى ، وشيخه ودافعه للدعوة هو وجاج بن زلو اللمطى وهو فقيه مالكى كذلك ، أما الموجه الاول فهو أبو عمران الفاسي الذى كان المغراويون قد ضايقوه واضطروه الى مغادرة فاس والذهاب الى القيروان ، وكان شيخ فقهاء المالكية فى عصره .

اذن ، ليس غريبا أن يكون المذهب الذى تقوم عليه هذه الدعوة هو المذهب المالكى . هنا أفتح قوسا : وجود أبى عمران فى طليعة الموجهين ، وهو يومئذ بالقيروان ، وخروج يحيى بـــن ابراهيم الكدالى ــ السالف الذكر ــ فى رحلة استطلاعية ــ كما يقال ــ الى المشرق قبل الاتصال بأبى عمران فى طريق العودة ، أليست هذه عناصر تسمح لنا بأن نوسع مجال النظر الى الامر ، وبأن نعتقد أن اعتماد المرابطين على المذهب المالكى داخل فى نطاق صراع المذهب السنى عموما مع المذهب الشيعى على مستـــوى العالم الاسلامى ، ولا سيما فى الشرق ؟

ولست أريد أن أدخل فى التفاصيل ، ولكنى لا أستبعد ذلك لا سيما حين أرى مساندة العباسيين ليوسف بن تاشفين ، وكان بحاجة الى مثل هذه المساندة ، بل الى مسالمة مع الجانب الشرقى، حتى لا يعزل سياسيا وحتى لا يواجه أى تحالف ضده ، وحتى يتفرغ للعمل فى الداخل ، أى فى المغرب والاندلس .

أقفل القوس ، وأعود الى اللائحة فأراها طويلة بأسماء الفقهاء المالكيين الذين زخر بهم العصر ، ولا داعـــى للاطالـــة بذكرهم ، ولكن الذى يجب التنبيه له هو انهم لم يكونوا فقهاء بالمعنى التنقيصى الذى يتبادر الى ذهننا بعد أن مسخ لقب الفقيه،

بل كانوا علماء كأوسع ما يعطيهم الوصف ، ليس فى الفقه وما يتصل به فقط ، بل فى جميع فنون العلم والثقافة المعروفة لوقتهم.

وقد احتفظ لنا المقرى فى النفح بمفهوم لقب الفقيه حيث قال : « وسمة الفقيه عندهم (أى عند الاندلسيين لانه فى النص يتحدث عنهم) جليلة ، حتى ان الملثمين « أى المرابطين » كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذى يريدون تنويهـه بالفقيـه » ويضيف المقرى : « وهى الآن (فى عصره أى فى أوائل القـرن الحادى عشر) بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لانها عندهم أرفع السمات » (6).

وكان الفقهاء المرابطون فى نفس الوقت رجال الدولـة ، يخططون سياستها ويتحملون مسؤولية حماية كيانها والاشراف على تنفيذ التعاليم وتوجيه الحكام . ولعله خير لامة مهما كانت ــ ولا سيما اذا كانت ناشئة فى العلم والسياسة كما كان حال المغرب يومئذ ــ أن تتولى شؤونها طبقة من العلماء ، ولتكن طبقة فقهاء المالكيـة .

والمرابطون ، باعتمادهم على الفقه ، كانـوا يرفضـون العفوية واللاعقلانية ، وينظرون للحكم والدولة من خلال تصـور علمى وتمثل واع تجليان عندهم فى التعاليم الدينية . وابن تاشفين، وهو رجل عمل وممارسة أكثر مما هو رجل معرفة وتأمل ، كان حكيما حين لم يعتبر نفسه حكيما .قويا تغنيه حكمته وقوته عن أى قانون ، وحين أراد أن يعطى لحكمـه الشرعيـة الشكليـة

---

(6) ج 1 ــ صفحـة 221 .

الموضوعية ، وحين احتكم فى هذه الشرعية الى الدين والى الفقه المالكــى خاصــة .

* * *

الآن ، وبعد أن أثبتنا وجود التيار الفقهى وطابعه ودوره ، ننتقل الى نقطة أخرى فى الموضوع ، فنتساءل : هل كان لهــذا التيار أثر على الفكر والادب ؟

ونبدأ بالجــانب الفكــرى .

وقبل أن أشير الى ملامح الحركة العلمية فى المغرب ، لا بد أن ألفت النظر الى بعض أعلام الفكر الاندلسي الذين كان لهم دور فى تنشيط تلكم الحركة ، والذين فى وجودهم وأمثالهم دليل قاطع ضد من زعم أن المرابطين خنقوا الفكر فى الاندلس .

ففى العلوم الدينية لمعت أسماء أبى على الصدفى وأبى على الغسانى وابن أبى الخصال وابن أيوب الفهرى الذى قامت حوله نهضة احياء السنة . وفى المتكلمين لمع اسم أبى بكر المرادى الذى كان قد استقدمه أبو بكر ابن عمر ، زعيم المرابطين قبل ابــن تاشفين وابن عمه . ويعتبر المرادى كما عند المقرى فى أزهــار الرياض (7) أول من أدخل علوم الاعتقاد الى المغرب ، وكان له فيها تلميذ حمل مشعلها ، هو يوسف بن موسى الكلبى . وقــد ذكر عياض انه أخذ عنه أرجوزة فى الموضوع (8) وفى الفلسفة ظهر مالك بن وهيب الذى كان وزيرا لابن يوسف ، ومثله أبو بكر ابن باجة . و فىالطب برز أبو العلاء بن زهر الذى قال عنه ابــن

---

(7) ج 3 ، صفحــة 161 — 162 .

(8) نفــس المصــدر .

أبى أصيبعة فى طبقات الاطباء : « كان فى دولة الملثمين .. وحظى فى أيامهم ونال المنزلة الرفيعة والذكر الجميل ، وكان قد اشتغل بصناعة الطب .. وفى زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا الى المغرب » (9) .

كان طبعيا أن تلقى هذه النهضة العلمية الاندلسية باشعاعاتها على المغاربة ، وهم ما يزالون فى طور التكوين ولما ينضج فكرهم بعد ، فازدهرت الى جانب الفقه المالكى دراسة التفسير وما يتصل به من علوم ، وخاصة علم القراءات . وظهرت عناية المغاربة بالرواية والحفظ والاسناد ، ونشط التصوف التعبدى البعيد عن التعقيدات الفلسفية .

واشتهرت أسماء كثير من الفقهاء نذكر منهم عبد الملك المصمودى قاضى الجماعة بمراكش ، وعبد الله ابن سعيد الوجدى وكان قاضيا ببلنسية ، وعبد الله اللخمى قاضى الجماعة بمراكش وكان بارعا فى الحديث والاصول ، وعبد المنعم بن علوش الطنجى الذى تولى القضاء فى عدة مدن بالاندلس ،وابراهيم البصرى قاضى سبتة ، والعالم المناظر عبد الرحمن الكتامى الاصيلى المعروف بابن العجوز ، وعبد الله الازدى القاضى المفتى الذى كان مشهورا بصلابته وعدم مصانعته ، وكان ابن يوسف يقدر فيه ذلك .

واشتهر من رجال التفسير والقراءات أبو بكر محمد بن على المعافرى السبتى المعروف بابن الجوزى وقد ألف تفسيرا لم يتمه ، وأبو عبد الله القيسى المكناسى ، وأحمد بن عبد الله بن

---

(9) صفحة 517 .

الحطيئة اللخمى الفاسى الذى كانت له رحلة الى المشرق عـرض عليه فيها قضاء مصر فرفض .

وبرز فى الحديث بكار بن الغرديس الذى روى عن الهروى حافظ مكة ، وابراهيم بن أحمد بن خلف السلمى المعروف بابن فرتون ، ومحمد بن عيسى التميمى الفاسي ، وابراهيم اللواتـى أحد شيوخ عياض فى الحديث (10) . ولمع فى التصوف اسم على ابن حـرزهم .

ونبغ فى العلوم اللسانية الحسن بن طريف السبتى شيخ القاضى عياض فى النحو والادب والحديث كذلك (11) .

وفى الاصول والكلام لمع نجم أبى القاسم المعافرى السبتى . وقد ذكر القاضى عياض فى فهرسته (12) انه درس هذين العلمين فى سبتة طوال حياته ، وعليه أخذهما جماعة من العلماء ، وكان الناس يرحلون اليه لدراستهما .

أما الفلسفة فقد استدعى ابن باجة لتدريسها وما يتصـل بها من علوم ، وكذلك الطب فقد كان يدرسه ابن زهر ، ونبـغ فيه من المغاربة أبو الحسن بن زنباع الطنجى . وفى علوم أخرى كالحساب برع ابن مرانة السبتى وتلميذه ابن العربى ، وهـو مـن سبتـة كذلك .

اذا أضفنا الى هذه اللائحة المقتضبة اسم القاضى عياض مفخرة المغرب فى هذا العصر والذى يليه ، واذا أضفنـا أسماء

(10) فهرست عياض ، ص 50 — 52 .
(11) المصـدر السابـق ، ص 58 .
(12) صفحـة 68 .

العديد من العلماء الذين زخرت بهم الحركة الفكرية ، سواء فى المغرب أو الاندلس على عهد الموحدين ، من أمثال ابن رشد وابن طفيل ، دون أن ننسى أن هذا العهد استمرار لعهد المرابطين ، تأكد لنا الى أى حد كانت مبالغة تلكم الاحكام التـــى صدرت ضـــد المرابطين والتى رمتهم بخنق الفكر وتعطيل حركته وتقييده داخل الفقه المالكى لا يتعداه لما سواه .

ومع ذلك لا مناص لنا من الاعتراف بأن المذهب المالكى قد اكتسب فى هذا العهد قوة جعلته يصمد أمام تيار الموحدين ، ابتداء من دعوة المهدى الى التقلبات المذهبيـــة الاخـــرى التـــى عرفتها هذه الدولة ، ولا سيما أيام المنصور .

سيقول لنا معترض : تذهب الى أن الحركة الفكرية كـــانت مزدهرة ، وكانت الحرية الفكرية متيسرة ، ولم يكن هناك خنق أو تعطيل ، فكيف يحرق كتاب احياء علوم الدين لابى حامـــد الغـــزالـــى ؟

الحق أن القضية كبيرة ومثيرة ، وسأحـــاول مناقشتهـــا بسرعة ، وفى نقاط محدودة :

أولا : قضية الاحراق فى حد ذاتهـــا دليـــل على أن الامير ــ والمقصود هنا على بن يوسف ــ كان يصغى للفقهاء ، ويخضع لما يفتـــونـــه بـــه .

ثانيا : الذين ثاروا على كتاب الاحياء أو « نبحوا ضده » على حد قول المستشرق جولد تسيهر (13) هم بعض فقهـــاء

(13) Islam d'Occident - Provençal صفحـــة 254 .

الاندلس ، وعلى رأسهم أبو عبد الله ابن حمدين قاضى قرطبة ، ثم تبعهم بعض الفقهاء المغاربة .

ونسبة القضية للاندلس لا تبرىء ساحة المرابطين من التهمة الملصقة بهم ما دامت العدوتان تكونان دولة واحدة . حقا ان الوحدة كانت تجمع الاندلس والمغرب ، ولكن لا ينبغى أن ننسى شيئا ، لعله أن يؤكد ما نقصد اليه حين ننسب القضية للاندلس ، وهو أن الوحدة بين البلدين كانت قائمة على الاخذ والعطاء ، وعلى التبادل المثمر لكل من الطرفين . فالمغرب لقوته يحمى الاندلس ويسير فيها شؤون الحكم ، والاندلس لمكانتها العلمية تثقف المغرب وتؤدبه . وكلا الطرفين أفاد مما عند الآخر الشىء الكثير ، واذن فلعلماء الاندلس وفقهائها أن يحكموا على الاحياء ويفتوا بعدم صلاحيته وبضرورة احراقه ، وعلى أمراء الدولة وولاتها — وقد اعترفوا للاندلس بهذا الحق — أن يطبقوا الفتيا ، ويعملوا على تنفيذها بكل شدة وحزم .

ثالثا : بعض الفقهاء المغاربة عارضوا فى الاحراق وانتصروا للغزالى . وموقف أبى الفضل بن النحوى وفتياه المضادة أكبر شاهد على ذلك . وكان قد تبعه فيها على بن حرزهم ، ففى (التشوف) أن هذا الاخير قال : « لما وصل الى فاس كتاب على ابن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء وأن يحلف الناس بالايمان المغلظة ان الاحياء ليس عندهم ، ذهبت الى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الايمان ، فأفتى بأنها لا تلزم » (14) ثم تبعهما

---

(14) صفحة 73 .

فى الرفض غير قليل من فقهاء المغرب والاندلس بعد ذلك .

رابعا : ورأيى أن احراق الاحياء — وكان فى أواخر عهد المرابطين — يعتبر مظهرا من مظاهر عجز فقهاء الدولة المسؤولين، أو بداية العجز عن توجيه الرأى العام . وهو عجز قد يكون ناتجا عن عدم قدرة هؤلاء الفقهاء على تطوير المذهب باعتباره ايديولوجية حتى تنسجم مع ظروف الدولة الكبيرة التى أصبحت تحت نفوذ المرابطين . ويبدو أنهم فى هذه المرحلة كونوا بيروقراطية كهنوتية خصت نفسها وبعض الولاة الموالين لها بجميع امتيازات الاستثمار والسيطرة ، وكان ذلك سببا من أسباب انهيار هذه الدولة .

* * *

اذا تركنا الجانب الفكرى ، ونظرنا فى الجانب الادبى ، ماذا عسانا نجد ؟

هنا نصادف بعض النقد الموجه للمرابطين ، يكفى فى تلخيصه هذا النص من دوزى يقول فيه : ان سلاطين المرابطين لم يبدوا « كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر » (15) وانهم كانوا « يعملون بالاخص على تحطيم الروح الشعرية الاندلسية » (16) .

الواقع ان عناية المرابطين بالادب أوضح من أن تنكر ، فقد اجتمع ليوسف « من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار » على ما يروى صاحب المعجب(17)

(15) ج 2 ، صفحة 239 .

(16) ج 2 ، صفحة 250 — 251 .

(17) صفحة 164 .

ومن كتابه عبد الرحمن بن أسباط ومحمد بن عبد الغفور وعبد المجيد ابن عبدون . وكذلك كان على ، فقد ذكر عنه المراكشى انه لم يزل «من أول امارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » (18) ، ومن كتابه محمد ابن أبى الخصال وأبو القاسم ابن الجد المعروف بابن الاحدب وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة .

وكان لبقية أمراء الدولة وولاتها كبير اهتمام بالكتاب والشعراء ، يقربونهم فى عناية وتشجيع ، وربما كان من أكثر هؤلاء رعاية للادب ابراهيم بن يوسف وأبو بكر ابن تافلويت وعبد الله بن مزدلى .

فقد قرب ابراهيم الفتح بن خاقان الذى ألف القلائد باسمه، وذكر فى المقدمة فضله على الادب حيث قال : « ولم يزل شخص الادب وهو متوار وزنده غير وار وجده عاثر ومنهجه داثر ، الى أن أراد الله اعتلاء اسمه واحياء رسمه وانارة أفقه واعادة رونقه ، فبعث من الامير الاجل أبى اسحاق ابراهيم بن يوسف ابن تاشفين ملكا عاليا للبة المجد حليا وهمى على الامة وسما دوليا ألبس الدنيا جمالا جدد لاهلها آمالا ناهيك به من ملك عالى ناظم لاشتات المعالى » (19) .

ومن الشعراء الذين مدحوه ابن خفاجة وأبو بكر بن رحيم والشنتمرى ، وغيرهم كثيرون تجدون مدائحهم فى قلائد العقيان

---

(18) صفحة 173 .
(19) صفحة 3

ومغـرب ابـن سعيـد .

أما عبد الله بن مزدلى فكان يقصده الادباء للمدح ، أمثال أبى محمد بن عطية وأبى عامر بن أرقم وأبى جعفر ابن مسعدة الذى اتخذه كاتبا له .

وأما ابن تافلويت فكان من أهم كتابه ومادحيه أبو بكر بن باجة وكذلك ابن سارة الشنتريني ، وهو نفسه كان يقرض الشعر.

وبلغ من عناية المرابطين بالادب ــ والشعر خاصة ــ أن نساءهم كن يتعشقنه ويحفظنه وينشدنه ، ويحكى أنه كانت لهن مجالس أدب . وقد لمعت فى هذا المجال حواء بنت ابراهيم بـن تافلويت وأختها زينب وكذلك تميمة بنت يوسف بن تاشفين .

كان نتيجة لهذه الرعاية أن نبغ أدباء من أبناء المغرب . ومع أن الباحث يصادف كثيرا من العناء فى الكشف عن هؤلاء الادباء ، فانه لا يلبث أن يعثر على غير قليل من الاسماء ، نذكر منها ابن حبوس وابن زنباع وابن الزيتونى وابن القابلة السبتى وعبد الله التادلى وابن عطاء وابن غازى وكذلك القاضي عياض .

أما فى الاندلس ــ حيث الاسماء عديدة وشهيرة ــ فقـد عرف الادب على هذا العهد تطورا تمثل فى ظاهرتين :

الاولى : ازدهار فن التوشيح ، أقول الازدهار ولا أقـول النشأة ، فرق بين نشأة فن ما وبين ازدهار هذا الفن . فى العصر المرابطى ازدهر فن التوشيح على يد وشاحين كبار أشهرهـم التطيلى وابن بقى . وكانت لهما موشحات فى مدح بعض الولاة والقضاة المغاربة . بل ان بعض الوشاحين وفـدوا الى المغـرب

وساعدوا على تعريف المغاربة بهذا الفن ــ الجديد عليهم ــ نذكر منهم ابن باجة وابن اللبانة .

الثانية : ظهور الزجل كفن مستقل يفرض وجوده فى ميادين الشعر ، وكان نشأ من قبل ، ولكنه فى هذا العصر ــ مثله مثل التوشيح ــ يعرف كثيرا من الانطلاق والازدهار .

واذا كان كثير من الباحثين ــ وعلى رأسهم المستشرق الاسبانى الكبير كارسيا كومث ــ يرون ان مثل هذه الظاهرة دليل على هبوط الذوق هبوطا بالغا فى عهد المرابطين (20) ، فانا نرى عكس ذلك ، ونؤكد هنا ما سبق أن شرحناه فى بعض أبحاثنا المنشورة من أن « العامية ليست مظهرا للغة المدرسية فى صورة منحطة مسفة لانها كانت أبدا موجودة الى جانبها تقتبس منها وتغنيها وتتبادل واياها التأثير ، ومن ثم كان التعبير الشعرى بها ــ كلا كما فى الزجل أو جزءا كما فى الموشح ــ دليلا على تجذر تلك اللغة فى الالسنة والافهام والاذواق ، ودليلا فى نفس الوقت على مدى حيويتها وانفتاحها للتوسع والتجدد ، وليس من شك فى ان مثل هذه الظاهرة لا يمكن أن تتحقق الا على يد فنانين يكونون مالكين لناصية الاداتين العامية والمعربة ، قادرين على تطويعهما للتعبير فى حرية وشجاعة . وقد كان شعراء التوشيح والزجل من هؤلاء الفنانين ، اذ استطاعوا أن ينشئوا تيارا أرفد اللغة والادب فى وقت ما وأتاح لهما بعض الازدهار » (21) .

وكما واجهنا فى مجال الفكر من يعترض بقضية احراق

(20) الشعر الاندلسى ، صفحة 62 .
(21) موشحات مغربية ، ص 72 ــ 73 .

الاحياء فسيواجهنا فى ميدان الأدب من يعترض بأمرين :

أولهما : يتعلق بقضية المعتمد الشاعر ومعاملة ابن تاشفين له . وقد وصف دوزى هذه المعاملة بأنها « كانت قاسية ومقيتة » (22) .

والثانى : يتصل بما رمى به ابن تاشفين ، وخاصة من طرف الشقندى فى رسالته التى ألف فى فضل الاندلس ، من أنه كان قليل المعرفة منحط الذوق .

أما قضية المعتمد فلا نراها الا مقحمة على ميدان الادب وعلى هذا الموضوع بالذات ، لانها قضية سياسية صرف لا مجال فيها لاقحام الشعر ومدى تذوقه أو رعايته ، ومع ذلك فقد كانت معاملة ابن تاشفين ــ الصحراوى الخشن ــ للمعتمد أرحم بكثير من معاملة المعتمد الشاعر الرقيق لوزيره ابن عمار الشاعر الرقيق حيث قتله بيده وهو مكبل بالقيود يجرها ، يبكى ويستعطفه شعرا .

وأما عن معرفة يوسف ، فلا جدال فى أنها كانت محدودة فى مبادىء من اللغة والقرآن والدين ، خاصة وانه قضى سنوات طويلة فى صحبة ابن ياسين ، ملازما له فى رباطه ، ولكن ليس الى الدرجة التى تصوره بها الشقندى حين ذهب الى أنه لم يكن يعرف العربية ، ولم يكن يفهم ما ينشد أمامه من شعر ، وانه حين كان يسأل عن هذا الشعر اذا كان فهمه ، كان يجيب بأن أصحابه

---

(22) ج 3 ، ص 168 انظر مناقشتنا لقضية المعتمد فى البحث التالى مباشرة.

يطلبون الخبز (23) ، وما الى هذا من الكلام الذى لم أشأ ذكره هنا ، فقد ناقشته فى دراسات لى موسعة عن المرابطين ، وهو كلام دعت صاحبه الى اختلاقه وتلفيقه رغبة اقحام السخرية والتهكم ، وظهر به الشقندى بعيدا عن الثقة والنزاهة والامانة والموضوعية ، يصدر عن مشاعر دفينة لديه تحركها المنافسة .

ومع ذلك فالحقيقة التى تكمن خلف ما قاله هذا الاديب الاندلسى حين تحدث عن موقف ابن تاشفين من منشديه ، هى أنه لم يتخذ له شعراء رسميين ، ولم يكن له مجلس رسمى للشعر . هذه الحقيقة تفسر لماذا خلا الشعر فى هذا العصر — أو كاد — من تأثير التيار المذهبى الذى قامت عليه دولة المرابطين . وهذا على عكس الموحدين الذين كان لهم بلاط وشعراء رسميون كأبى العباس الجراوى الذى كان يطلق عليه شاعر الخلافة . فقد كان لمذهبية الموحدين أثر ملحوظ فى انتاج هؤلاء الشعراء ، ولا سيما فى المدائح حيث يختلط المدح بمعان دينية يتبلور من خلالها نوع من الشعر المتصل بالعقيدة وبالمذهب .

وليس معنى هذا أنا لا نصادف شعرا فى مدح المرابطين ، بل انا نجده ، ونجد فيه أحيانا ، وفى أبيات قليلة منه ، بعض الكلمات التى تشم منها رائحة الاسلام وتاريخه ، فى محاولة لتشبيه مواقف الممدوح بمواقف المسلمين الاوائل . ونمثل لهذه الظاهرة ببيتين لابى الحسن بن الجد فى مدح يوسف ، يقول :

انظـر الى الصبـح سيفـا فى يـدى ملك

(23) انظر النفح ج 3 ، صفحة 191 .

في اللـــه مـــن جنـــده التأييـــد والظفـــر
يرعـــى الرعـــايـــا بطـــرف ساهـــر يقـــظ
كمـــا رعاهـــا بطـــرف ساهـــر عمر (24)

وباستثناء هذه الملاحظة الجزئية ، فان القصائد التى قيلت فى الامراء المرابطين تكاد تكون فى عمومها أقرب الى شعر الحروب والمعـــارك والى شعـــر الفتـــوح منهـــا الـــى شعـــر المـــدح . ويكفينا فى هذا الصدد أن نذكر أبياتا للاعمى التطيلى ، مقتبسة من قصيدة يمدح بها ابن يوسف ، يقول :

جلبت الخيل مشرفة الهـــوادى تعز علـــى قيـــادك أو تهـــون
كآرام الصـــريمـــة أو مهاهـــا وليس سوى الرماح لها قرون
سوابح من غمـــار فى حديـــد فما تدرى أخيـــل أم سفيـــن
يلقيها الطعـــان ولا يبـــالـــى مشيـــح مـــا يبـــل له طعيـــن
يجللهـــا ثيـــاب مكـــايـــديـــه اذا انتفضت من الورق الغصون (25)

اذا تركنا هذا النوع من الشعر ، وجدنا أن الشعراء كانوا ميالين الى القول فى الغزل والطبيعة ، تأثرا منهم بالاندلسيين الذين كانوا قد برزوا فى هذين الفنين . ولتمثل هذه الحقيقة ننشد الابيات البديعية التالية ، نقتطفها من قصيدة لابن زنبـــاع فى وصف الربيـــع :

أبدت لنا الايام زهـــرة طيبها وتسربلت بنضيـــرها وقشيبها
واهتز عطف الارض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها
وتطلعت فى عنفوان شبابهـــا من بعد ما بلغت عتى مشيبها

(24) كتاب اعمال الاعلام ، صفحة 242 .
(25) ديـــوان الاعمـــى التطيلى ، ص 200 .

وقفت عليها السحب وقفة راحم | فبكت لها بعيونها وقلوبها
فعجبت للازهار كيف تضاحكت | ببكائها وتبشرت بقطوبها
وتسربلت حللا تجر ذيولها | من لدمها فيها وشق جيوبها
فأدر كؤوس الانس فى حافاتها | واجعل سديد القول من مشروبها
واركض الى اللذات فى ميدانها | واسبق لسد ثغورها ودروبها(26)

وربما كان شعر القاضى عياض أكثر دلالة على هذا الاتجاه، وهو العالم الفقيه . ولنستمع اليه فى هذه الابيات يخاطب حبيبه فى شكوى مبرحة وجناس محكم تام :

يا من تحمل عنى غير مكترث | لكنه للضنى والسقم أوصى بى
تركتنى مستهام القلب ذا حرق | أخا جوى وتباريح وأوصاب
أراقب النجم فى جنح الدجى سهرا | كأننى راصد للنجم أوصابى
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم | الا جنى حنظل فى الطعم أوصاب(27)

ولنستمع اليه كذلك فى هذين البيتين اللذين ينسبان له ، ويمثلان معادلة غزلية رائعة :

رأت قمر السماء فأذكرتنى | ليالى وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمرا ولكن | رأيت بعينها ورأت بعينى(28)

ونود أن نشير الى أنا نلاحظ فى بعض الاحيان اثر المعارك والحروب منعكسا على التعبير الشعرى حتى فى موضوعات الغزل والطبيعة ، على حد قول ابن زنباع فى هذا البيت الذائع :

---

(26) القلائد ، ص 225 .
(27) المطرب ، صفحة 87 .
(28) نفح الازهار ، صفحة 9 .

وقد تحمى الدروع من العوالى ولا تحمى من الحرق الدروع(29)

وعلى حد قول عبض فى هذين البيتين المشهورين :

انظر الى الـــزرع وخامـــاته تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبـــة خضـــراء مهـــزومـــة شقائق النعمان فيها جراح(30)

ولعل هذا الاثر ــ على ضعفه ــ يدل على مدى سريان روح القوة والبطولة التى تجلت فى هذا العصر .

* * *

من هذا كله يتبين لنا أن التيار الفقهى الذى كان سائدا فى هذا العهد والذى اتخذه المرابطـــون أساسا لقيـــام دولتهم ولتحقيق دعوتهم الاصلاحية ، لم يكن له من تأثير على الفكر الا بالقدر الذى نشطت به الدراسات الفقهية دون تجميد بقيـــة الدراسات . أما فى الادب فلم يكن له من تأثير يذكر الا ما كـــان من الغاء المظاهر الرسمية التى كانت تقام للادب والشعـــر فى أحضان اللهو والمجون على عهد الطوائف ، ومـــا كان من روح القوة التى تسيطر على شعر المدائح والفتوح وما قد يعلو بعض أبيات هذا الشعر من مسحة دينية لعلها كانت باهتة فى غالب الاحيـــان .

وعلى العكس من كل ما يقال عن جمود المرابطين ، فقـــد عرف المغرب على عهدهم بداية نهوض وتفتح بعد أن تعثر فترة من الزمن طويلة . وساعدت على ذلك جملة عوامل ، أهمها(31) :

(29) القـــلائـــد ، صفحـــة 228 .
(30) المطـــرب ، صفحـــة 87 .
(31) انظر كتاب « القصيدة » ، صفحة 91 ــ 92 .

أولا : قوة الدولة فى مجال الدين والسياسة والاقتصاد ــ كما لا أحتاج أن أوضح ــ وما نتج عن هذه القوة من استقرار بعث الطمأنينة فى نفوس المغاربة ، وثبت العقيدة فى قلوبهم ، وأتاح لهم فرص الدرس والبحث فى مختلف فروع العلوم والآداب .

ثانيا : الوحدة مع الاندلس والاستفادة ــ فكريا ــ من هذه الوحدة التى حملت للمغرب روافد فى جميع ميادين العلم والحياة ، حيث فتحت لابنائه كثيرا من الآفاق الحضارية والثقافية وأقبلت وفود العلماء والفقهاء والادباء الاندلسيين فى تدفق لم يكن له مثيل .

ثالثا : عناية المرابطين بالثقافة ، وأقصد منهم رجال الدولة . فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجاله يستقدمونهم أو يرحلون اليهم للدراسة عليهم والاستفادة . نذكر منهم زاوى ابن مناد بن عطية الله بن منصور الصنهاجى الشهير بابن تقسوط، وخلوف ابن خلف الله الصنهاجى ، وعمر بن امام بن المعتز الصنهاجى ، والامير المنصور ابن محمد بن الحاج داود ، وكذلك الامير ميمون بن ياسين وغيرهم .

رابعا : انشاء المدارس والرباطات فى مختلف المراكز بقصد بث الوعى الدينى والاصلاح الاجتماعى ، وبقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة . وأهم هذه المعاهد جامع ابن يوسف الذى أسسه على بن يوسف بن تاشفين فى مراكش . ومثله جوامع سبتة التى كانت مزدهرة بالعلم حتى قال عنها المعتمد : « اشتهى أن

يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نفر : ابن غازى الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفرضى » (32) .

وقد اشتهرت مدارس هذه المدينة بتدريس علم الاصول والكلام ، وكان يتصدر فيها تدريسهما ثلاثة من الاعلام هم أبو القاسم بن محمد المعافرى ويوسف بن الكلبى وأبو محمد عبد الله الغالب السالمى .

هذا بالاضافة الى الازدهار العلمى الذى عرفه جامع القرويين وجامع قرطبة .

خامسا : الاتصال بالمشرق . وقد ظهر هذا الاتصال فى العلاقات الوطيدة التى كانت تربط بين أمير المسلمين فى مراكش والخليفة العباسى فى بغداد ، والتى كانت لها انعكاسات تجلت فى مظاهر متعددة تكفلت بذكرها كتب التاريخ .

---

(32) معجم البلدان (سبتة) ج 5 ، ص 26 — 27 .

قضية المعتمد بن عباد

* نشر في مجلة (الثقافة) الجزائرية السنة الرابعة العددان 20 — 22 (1394 — 1974) .

هذه قضية لعلها أشهر قضايا الفكر والادب ، سواء فى المغرب أو الاندلس ، وأكثرها اثارة للجدل والنقاش . انها قضية المعتمد بن عباد وما يتصل بها من حديث عن مدى فهم المرابطين للادب . وتذوقهم وتشجيعهم له ، وخاصة منهم يوسف ابن تاشفين .

والحق أن هذه القضية نالت شهرة أوسع مما ينبغى ، وكان لها صدى أكبر وأقوى مما تستحق . ولو أننا نظرنا الى الاحداث التى أحاطت بها نظرة شاملة تضع احداثها فى وحدة مكتملة لا تفصل بعض هذه الاحداث عن بعض ، لانصفنا ابن تاشفين مما يتهم به ، ولو ضعنا قضية ابن عباد فى اطارها الحقيقى ، بل لما اعتبرناها نكبة أو مأساة ، أو ما الى هذه وتلك من الاسماء التى تنسب لها .

وليس يخفى أنه فى الوقت الذى كان ابن تاشفين ينشىء فى المغرب دولة قوية على أساس من العلم والاصلاح ، كانت بلاد الاندلس تعيش فى عهد ملوك الطوائف وتتخبط من جراء ذلك فى كثير من الانقسام والفوضى ، ساعد المسيحية على تجميع قوتها للانقضاض على المسلمين مظهرة فى ذلك حمايتهم ومحالفتهم ، بل ان الفونسو السادس لم يتردد فى الاستيلاء على طليطلة

وعلى كثير من الاراضى القشتاليــة كمــا انتــزعت الجيــوش النصرانية مدينة قورية وكانت لبنى الافطس . ومن كان يهادن من أمراء الطوائف ، كانت توخذ منه الجزية ، على حد ما يخبر الامير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، وكان منفيا كذلك فى أغمات . فهو يقول فى مذكراته المسماة : (التبيــان) :
« وتأهب الفونسو الى الحركة وقدم رسوله بين يدى حركته فلما صحت عندنــا أتانا منه المقيم المقعد ، ولم ندر أين الخير ، ان كان فى رفض البلد وتركه ليعبث فيه أو مداراته بمــا تيسر ، ووقعت من ذلك هيبة فى الناس ورجة حتى بلغ من الجزع أننــا لم نصدق أن يقبل منا المال دون الملازمة لنا .. وطمعنا أن يقنع رسوله باليسير فقال : لم آت عن ذلك كله الا أن تعطيه ما فاته منك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفا لا ينقص منهــا شىء ، والا فها هومقبل ، والذى تقدر عليه فاصنع .. ففعلت ذلك وأرسلت اليــه الثلاثين ألفا » (1) .

ولم يكن هذا كله الا بداية للاستيــلاء علــى الانــدلس واخضاعها للنفوذ النصرانى ووجد المسلمون أنفسهم بين نارين : بين المسيحيين يضايقونهم ويفرضون عليهم الجزيــة وينقضون عليهم يحاولون السيطرة على مراكزهم ، وبين المرابطين يقوى أمرهم فى المغرب . ولعلهم فكروا طويلا فى الامر ، وفضلوا أن يمدوا يدهم الى اخوانهم المغاربة ، يستعينون بهم على الاعداء ، فكانت هذه الوفود من العلماء الذين جاءوا يستنجدون بابــن

(1) ص 124 ــ 125 (ت بروفنسال ــ القاهرة 1955) .

تاشفين ، بل تذهب بعض المصادر كالمعجب (2) الى أن المعتمد ابن عباد جاء بنفسه عند ابن تاشفين يستغيثه ، والى أن هذه الزيارة تمت عام تسعة وسبعين وأربعمائة على اثر استيلاء الفونسو على طليطلة عام ثمانية وسبعين . ويروى أن الرشيد ابن المعتمد أبى على والده أن يستعين بالمرابطين . خوفا على ملكه ، فرد عليه والده كما جاء فى « الحلل » (3) :

« والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الاندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام مثل ما قامت على غيرى ، حرز الجمال والله عندى خير من حرز الخنازير » وفى رواية واردة فى وفيات الاعيان (4) أن المعتمد قال : « ان دهينا من مداخلة الاضداد لنا ، فأهون الامرين أمر الملثمين ، ولان يرعى أولادنا جمالهم أحب الينا من أن يرعوا خنازير الفرنج » .

مهما يكن من هذه العوامل ، فان أمير المرابطين لم يكن ليغفل عن فتح الاندلس وهو يؤمن بدعوة اسلامية اصلاحية ، ويجاهد فى سبيلها ، لا سيما والاندلس فى حاجة ماسة الى من ينقذها من براثن الضياع ، ولا سيما كذلك أنه فتح مدينتى سبتة وطنجة وغدا يشرف منهما على شبه الجزيرة الايبيرية .

وهكذا سارت جيوش المرابطين من سبتة بقيادة ابن تاشفين الى الاندلس عام تسعة وسبعين وأربعمائة وخاضت ضد

(2) فى بعض الروايات أنه انما قصده قبل جوازه الثانى للاندلس .
(3) ص 31 — 32 (نشر احمد علوش — الرباط 1936) .
(4) ج 2 ص 483 (ط بولاق) .

المسيحيين بقيادة الفونسو السادس معارك توجها انتصار المسلمين فى معركة الزلاقة التى استطاعت أن تبعد الخطر النصرانى عن شرق الاندلس . ولم يلبث يوسف أن عاد فجأة الى المغرب لسبب يختلف المؤرخون فى تحديده وأغلب الظن أنه وفاة الامير أبى بكر بن عمر وخوف ابن تاشفين أن يستولى أحد على الامر فى غيبته . واغتنم المسيحيون الفرصة فحاولوا تجميع قوتهم ولم شتاتهم للاغارة على المسلمين فى اماراتهم ، فعاد يوسف ثانية الى الاندلس ، ولكنه فى هذه المرة (5) نفض يده من ملوك الطوائف الذين كانوا مشغولين بنزاعاتهم ، بل ان المعتمد تاقت نفسه لبسط نفوذه على الاندلس ، وأخذ يفخر على غيره من الامراء ، وينسب لنفسه كل الفضل فيما أحرزه المسلمون من انتصار ، ويجحد فى ذلك موقف المرابطين . وهكذا على حد قول أشباخ (6) — « لم تكن تجمع كلمة الامراء الاندلسيين روابط الاتحاد القوية بل كانت تسودهم عواطف الاثرة والحسد .. فقد كان المعتمد يرى أنه غدا بعد الحوادث الاخيرة أشدهم خسارة من حيث الهيبة ، لان الامراء الذين كانوا يخضعون له من قبل استردوا استقلالهم ، وكان يتطلع الى استعادة سلطانه عليهم ، بل الى تقويته وزيادته ، وكان يعتمد فى تحقيق غايته على معاونة الجيش المرابطى ، ويحاول أن يوجهه فى سبيل مشاريعه ، ومن ثم فقد سار الى افريقيا لرؤية يوسف بن تاشفين ، وبسط له ما

(5) لعل ذلك كان فى جوازه الثالث سنة 483 ، ثم ان ابن تاشفين كان له جواز رابع سنة 496 « برسم التجاول عليها والنظر فى مصالحها » (الحلل ص 62) .

(6) تاريخ الاندلس ج 1 ص 94 — 95 (ت عنان — مصر 1940) .

يسود الامراء المسلمين من عوامل التفرق ، وكيف غــدا قائــد المرابطين فى الاندلس دون قوة ودون توقير .. ثم طلب اليه ::: أن يكل اليه تدبير شؤون الاندلس ، وشد ما كانت دهشة المعتمد حين علم بأن يوسف بدلا من أن يجيبه الى طلبه رأى ::: أن يعبر فى جيش جديد الى الاندلس » .

وبلغ انقسام ملوك الطوائف على أنفسهم وما بينهم من حسد ومنافسة على السلطة والنفــوذ . وخاصــة بين المعتمــد والمعتصم ، أن هذا الاخير كان يسعى فى تغيير قلب ابن تاشفين على المعتمد ، وافساد ما بينهما ـــ على ما يخبر المراكشى فـــى « المعجب » (7) حيـ ثيحكى أنه كان من جملة ما القى الـــى أمير المسلمين أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه وفـــرط كبره ، وأنه لا يرى أحدا كفؤا له ، وزعم أنه قال لـــه فى بعض الايام ـــ وقد قال له المعتصم : طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة يعنى أمير المسلمين ـــ : لو عوجت له اصبعى ما أقام بها ليلــة واحدة هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ، وأى شىء هـــذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد مـــن العيش وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهـــم حسبة وائتجارا فاذا شبعوا أخرجناهم عنا الى بلادهم . الى مثل هذا القول من تحقير أمرهم » .

وهكذا وعلى هذا الاسلوب كان أمراء الطوائف يتصلـــون بابن تاشفين وكلهم يتهم الآخر وكلهم يريد أن يحفر لصاحبـــه

---

(7) ص 137 ـــ 138 (ت العريان والعلمى ـــ القاهرة 1949) .

ويوقع به . وقد استطاع يوسف بذلك أن يطلع على أسرارهم وخبايا صدورهم ، وأن يتعرف الى الذين كانوا يتحالفون مع النصارى فى الخفاء ، خوفا على اماراتهم من أن تلتهمها الدعوة الجديدة . لذا فانه لم يكن غريبا أن يستهدف ابن تاشفين فى هذه المرة واجهتين : النصارى من جانب ، وملوك الطوائف من جانب آخر .

ومع ذلك لم يستبد بالامر . واستفتى قاضى غرناطة ومالقة فى هؤلاء الملوك ، فأفتياه بعدم أهليتهم لحكم بلاد المسلمين، ووافق على هذه الفتيا علماء من المشرق وفقهاء كان قد استشارهم وخاصة الامام الغزالى والطرطوشى الذى كان قد رحل من الاندلس ، فقد خاطباه ــ كما يقول ابن خلدون (8) ــ « يحضانه على العدل والتمسك بالخير ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف بحكم الله » .

ويحدثنا التاريخ أن ابن تاشفين بدأ بفتح طليطلة ثم قصد غرناطة حيث أسر أميرها عبد الله بن بلقين كما أسر أخوه تميم والى مالقة ، ونقل واياه الى أغمات . وعاد يوسف الى سبتة وأرسل جيوشا أخرى لفتح اشبيلية وقرمونة ، وقرطبة ومرسية، ودانية وشاطبة ، وبلنسية والمرية التى توفى أميرها المعتصم بن صمادح . وكان النصارى يعاونون أصحاب هذه الامارات على محاربة المرابطين وخاصة السيد الكنبيطور . ولم يحتفظ بسلطانه غير أحمد بن هود المستعين بالله الذى ظل له فى سرقسطة سلطان

---

(8) ج 6 ص 188 (ط بولاق) .

شكلى تحت نفوذ المرابطين .

ويحدثنا التاريخ كذلك أن ابن تاشفين أمر عامله فى الاندلس سير بن أبى بكر ، وهو يحارب هؤلاء الامــراء « الا يتعــرض للمعتمد بن عباد ما لم يستول على البلاد » حسب ما ينقل ابن خلكان (9) . وفى الوقت الذى لم يبق منهم غيره أمر يوسف عامله « أن يعرض له التحول الى بر العدوة بأهله وماله . فان فعل فبها ونعمت ، وان أبى فنازله » (10) ولكن المعتمد رفض ومد يـــده للنصارى فحاربه المرابطون وهزموه ، حيث قبض عليه ورحــل الى المغرب . وأغلب الظن أنه لو قتل فى هذه الحرب لمــا كــان لقضيته ذكر بغير القدر الذى تتيحه الاحداث .

وهكذا خضعت بلاد المسلمــين فى الانــدلس للمرابطــين وأصبحت العدوتان تكونان دولة واحدة ، وانتهى ــ ولو مؤقتا ــ ذلك الصراع الذى كان قويا ودائما بين الاسلام والمسيحية . وهو صراع فى الحقيقة بين اتجاهين :

أحدهما قومى أوربى يتمثل فى الامارات النصرانية التى لم تخضع لحكم المسلمين ، فهى على الدوام تعاديــه وتتحــين الفرص لمحاربته والقضاء عليه .

والثانى عربى اسلامى ولد مع فتح الاسلام للاندلس ونما مع اتساع رقعة الارض التى شملها الفتح . وقد ظل هذا الاتجاه العربى الاسلامى يعتبر وجوده فى شبه الجزيرة الايبيرية امتدادا

---

(9) ج 2 ص 487 .
(10) المصــدر السابــق .

لدولة العروبة والاسلام الكبيرة ، وان طغى عليه الميل الى الذاتية الاقليمية والكيان المستقل .

ومن هنا لم يكن غريبا أن تستغيث الاندلس بالمغرب ، ولم يكن غريبا كذلك أن يستجيب المرابطون للنداء ، ولم يكن غريبا بالتالى أن تتم الوحدة بين البلدين على نحو ما من الانظمة والاوضاع ، وعلى نمط ما من الوسائل والاساليب . بل لعل الوحدة كانت مصيرا حتميا لا بد من حدوثه ، خاصة والاندلس تسرع نحو الانهيار فى وقت يمثل المغرب قوة أثبتت القدرة على بسط نفوذها فى المنطقة ، لا سيما بعد انتصار الزلاقة الساحق .

لعل هذه أهم الظروف التاريخية التى أحاطت بقضية المعتمد ابن عباد والتى قصدنا من عرضها الى ايجاد اطار يتيح لنا أن نضعها فيه ، وأن ننظر اليها فى موضوعية من خلال ما ينعكس داخله من معالم وملامح ، بعيدا عن الملابسات والخلفيات التى ارتبطت بالقضية وأثرت فى بعض الدارسين وبالغت فى التأثير فجعلتهم ينساقون لها ، لا يرون ولا يحكمون غيرها .

وربما كان من أهم هذه الملابسات والخلفيات أن المعتمد ملك شاعر بل ملك كبير وشاعر كبير ، ليس كغيره من الملوك الشعراء، فقد كان ــ على حد قول كارسيا كومز : (11) ــ « يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الاعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا ، وثالثها أنه كان راعى شعراء الاندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الاسلامى كله » .

---

(11) الشعر الاندلسى ص 47 (ت مؤنس ــ مصر ــ الالف كتاب) .

وقد نظم المعتمد فى أغمات شعرا رائعا يفيض احساسا بالحزن والالم والحسرة ، ولكنه لا شك ، فيه كثير من المبالغة فى تصوير الواقع ، ولعل ما يبرر هذه المبالغة أن المعتمد لم يكن ليقنع أو يرضى بمعاملة المرابطين له مهما بلغت من العناية والاكرام ، لا سيما حين تقارن بما كان يعيش فيه من بذخ وترف ، ولا سيما كذلك أن الامراء المرابطين أنفسهم كانوا يعيشون حياة متقشفة بسيطة فى مختلف المظاهر . من هذا الشعر قوله متحدثا عن القيد (12) :

تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سنانا ذليقا ... وعضبا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما ... يعض بساقى عض الاسود

وقوله فى يوم عيد (13) :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الاطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والاقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

وقوله يخاطب القيد وقد دخل عليه ابنه أبو هاشم (14) :

ارحم طفيلا طائشا لبه ... لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم اخيات له مثله ... جرعتهن السم والعلقما

---

(12) ديوان المعتمد ص 94 (ت بدوى وعبد المجيد ــ ط الاميرية ، القاهرة 1951) .
(13) ديوان المعتمد ص 100 .
(14) ديوان المعتمد ص 112 .

منهن من يفهم شيئا فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا غما يفتح الا للرضاع فما

ولم يكن هذا الشعر الحزين الذى صدر عن المعتمد هو السبب الوحيد الذى خلف للقضية صداها الواسع القوى ، ولكن كان هناك سبب آخر كامن فى ما قاله الشعراء الذين كانوا يعيشون فى ظله . وكانوا ينعمون فى بلاطه بالترف والرغد والرفاه، وفقدوا بتنحيته مورد رزقهم ، فانهم بالغوا فى تصوير حاله مما يجعل القارىء فى شعرهم يتصور يوسف شخصية خشنة مخيفة مرعبة منفرة ، كلها غلظة وقسوة وأنانية وجهل . يقول — من قصيدة — محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة (15) :

تبكى السماء بدمع رائح غادى على البهاليل من أبناء عباد
ياضيف اقفر بيت المكرمات فخذ فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

ويقول فى مطلع قصيدة أخرى (16) :

لكل شىء من الاشياء ميقات وللمنى من منايا هن غايات

وفيها يقول :

انفض يديك من الدنيا وساكنها
فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الارضى قد كتمت
سريرة العالم العلوى أغمات

(15) انظر القلائد ص 23 (ط بولاق 1284) والمعجب ص 148 .
(16) انظر القلائد ص 29 والمعجب ص 147 .

وفيهـــا يقـــول :

أنكرت الا التـــواء للقيـــود به   وكيف تنكر فى الروضات حيات
وغلت هن ذؤابات فلم عكست   من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثا فخافوا منه عاديـــة   عذرتهم فلعدوى الليث عادات

ويقول عبد الجبار بن حمديس الصقلى من قصيدة (17) :

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم   وقلقل رضوى منكم وثبيـــر
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت   فهذى الجبال الراسيات تسير

ويقول الدانى كـــذلك مـــن قصيدة فى حفيد المعتمد ــ وكان يلقب بفخر الدولة ــ وقد رآه ينفخ الفحم لصائغ (18) .

يـــا صائغـــا كـــانت العليـــا تصـــاغ لـــه
حليـــا وكـــان علـــى الحلـــى منتظمـــا
للنفخ فى الصور هـــول مـــا حكـــاه سوى
انـــى رأيتـــك فيـــــه تنفـــــخ الفحمـــا
وددت اذ نظـــرت عينـــى عليـــك بـــه
لـــو أن عينـــى تشكـــو قبـــل ذاك عمـــى

وقبل أن نحاول التعرف الى واقع الحالة التى كان يعيش فيها المعتمد بالمغرب ، ولندرك مدى المبالغة التى تعلـــو هـــذا الشعر ، نذكر بما تناولنا من قبل من أحداث ونضيف أنه وغيره من ملوك الطوائف كانوا ــ زمـــن امارتهـــم منغمسيـــن فـــى الشهوات والملذات ، يستمعون الى مدائح الشعراء ، ويغدقون

(17) الذخيرة لابن بسام ص 63 ق 2 م 1 (ت . د . لطفى عبد البديع)
(18) انظـــر المعجب ص 160 .

عليهم الاموال فى اسراف ، الى حد قال الشقندى يتحدث عنهم فى فخر ــ وما هو كذلك ــ أن كلا « منهم قد خلد فيه من الامداح، ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح ، ولم تزل الشعراء، تتهادى بينهم تهادى النواسم بين الرياض ، وتفتك فى أموالهم فتكة البراض حتى ان أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم فى امداحه أن حلف ألا يمدح أحدا منهم بقصيدة الا بمائة دينار وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوته وافراط هيبته ، كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه فى قسمه » (19) .

فى هذا الوقت كان الشعب الاندلسى يعانى من الذل والفقر ، ومن كابوس الضرائب تفرض عليه ، وكان النصارى يستجمعون قوتهم للانقضاض على المسلمين والاستيلاء على مراكزهم ، ودوزى نفسه المتعصب ضد المرابطين يشهد بذلك ويقرر أن الشعب الاندلسى كان يشكو من عدم توفر الامن الداخلى فى البلاد ومن خطر العدو يهدده ، ومن تزايد الضرائب وأنه كان فى حاجة الى من يخلصه من هذه المشاكل التى كان يعانيها (20) .

أما يوسف فكان ــ كما يشهد بذلك أشباخ ــ على عكس المعتمد « قد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنها » (21) . وكان ــ كما

(19) النفح ج 4 ص 180 (ت محيى الدين عبد الحميد) .
(20) ج 3 ص 160 Histoire des musulmans d'Espagne - Lyde 1932
(21) ج 1 ص 71 .

يصفه ابن خلكان ــ « ... مقتصدا فى أموره غير متطاول ولا مبذر متنوق فى صنوف الملاذ بالاطعمة وغيرها ، وكان قد ذهب صدر عمره فى بلاده فى شظف العيش فأنكر على مغريه بذلك الاسراف وقال : الذى يلوح من أمر هذا الرجل ــ يعنى المعتمد ــ انه مضيع لما فى يديه من الملك لان هذه الاموال التى تعينه على هذه الاحوال ، لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم وأخرجه فى هذه الترهات ، وهذا من أفحش الاستهتار ، ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يغدو الا جوفين متى تستنجد همته فى حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها » (22) .

اذا أردنا بعد هذا أن نصور حقيقة وجود المعتمد فى المغرب ــ بعيدا عن المبالغات الشعرية ــ فاننا لن نجد أحسن مما ذكره زميله فى الامارة والاسر عبد الله بن بلقين فى مذكراته : (التبيان) ، حيث قال متحدثا عما سمح له ابن تاشفين بأخذه معه ، ومشيرا الى التسمية ، وهى وثيقة كانت قد سجلت فيها أمه ما عندها من الحلى والمال : « فلما خبر بما فى التسمية أنه لا غنى للانسان عنه ، سوغه انا مع ثلاثمائة دينار وثلاث خدم أمر لنا بها ، وأعارنا دوابا خمسة لنقلان الاثاث كله ، وأمرنا بالنهوض الى الجزيرة الخضراء ، وقال : تنتظروا بها السلطان حتى يرد عليكم وأعطانا من المرابطين مشيعين من يؤنسنا

(22) الوفيات ج 2 ص 485 .

ويتكفل أمورنا فشكرنا له ذلك :.. فأرسلنا الى سبتة بعد أن قيل لنا : « فيها تنتظروا الامير » ... ثم نقلنا الى مكناسة الزيتون وتلقانا الامير سير وأنسنا وأخبرنا أن مقامنا عنده الى أن يرد السلطان من الاندلس ، وأرسل الينا مائة دينار ... ثم انه وفانى من عند السلطان ثلاثمائة دينار أخرى وأنا بمكناسة ، وخاطبنى بكتاب يعدنى بكل جميل ويقول لى : « لا أنساك ما بقيت » فسرنى ذلك — أحسن الله جزاءه — فلقد كان أرفق بى بعد الله من كل أحد . وأعلمنى اذا ورد مروكش أكون معه حيث ما كان اكراما لنا وايثارا . فعلمت أنى متنقل عن مكناسة » (23) .

ثم قال بعد ذلك : « وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم ، ولم يزل يعتقدنا من أنعامه كيف ما هيأ الله على يديه، ووجدناه بعد الله أرفق بنا وأحسن مذهبا فينا من الناس أجمعين ومن كل من سبق اليه منا احسان » (24) .

وكذلك كانت لا شك معاملة ابن تاشفين للمعتمد ، بل لعلها كانت أحسن وأكرم ، للمكانة التى كانت له فى نفس يوسف .

أما أغمات فلم تكن يومئذ كما هى اليوم ، بعد أن تغيرت معالمها وأصبحت قرية مهملة صغيرة ، وانما كانت مدينة مزدهرة جميلة ، قال عنها البكرى فى المسالك والممالك ، وهو معاصر للمرابطين : « بها مسكن رئيسهم وبها ينزل التجار والغرباء ... وحولها بساتين ونخل كثير ، وهو بلد واسع تسكنه قبائل

(23) ص 160 — 161 .
(24) ص 171 .

مصمودة فى قصور وأجشار ، وهو راخى الاسعار كثير الخير ... وبها أسواق جامعة ... بضروب السلع وأصناف المتاجر ، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاه » (25) .

وفى أغمات بل فى كل المدن التى نزل بها ، كانت له حرية الاتصال بالناس وكان يزوره أصدقاؤه وغير أصدقائه من الادباء يحادثونه فى الشعر . ونعرف أن أبا الحسن عليا الحصرى الشاعر الضرير اتصل به فور نزوله بطنجة وقدم له بعض أشعاره ، فأعطاه ما كان عنده من مال وفى هذا يقول المراكشى : « ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحفى أهل الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق وقصدوه من كل فج عميق » (26) لدرجة قال :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الاسير وانه بسؤالهم لاحق غاعجب واعجب

ونحن لا يهمنا موقف الشعراء من المعتمد ، وعدم تقديرهم لظروفه العسيرة وان كنا لا نظن أن هذه الظروف كانت قد بلغت من العسر تلكم الدرجة التى يصورها ، وانما الذى يهمنا أنه كان يتمتع بقدر من الحرية ، جعله على اتصال بالناس وجعل الناس على اتصال به ، وخاصة طبقة الشعراء ، وهى الطبقة المفضلة لديه ، وهو قدر ما نظن أسيرا كان يتمتع به ، بل ما نظن أن نظام الاسر فى أى زمان ومكان يسمح بشىء منه .

* * *

(25) ص 153 (الجزء الذى نشره دوسلان — الجزائر سنة 1857) .
(26) المعجب ص 145 .

ما زلنا نتحدث عن قضية المعتمد بن عباد ، نحاول تحقيقها من خلال تتبع الوقائع والاحداث العامة والخاصة ، والنظر الى مختلف جزئياتها ووحداتها ، عسانا نصل الى تكوين صورة قريبة من الاكتمال والواقع ان لم تكن مكتملة وواقعية بالفعل ، وعسانا بالتالى نضع القضية فى اطارها اللائق ونبعد عن المرابطين ، وابن تاشفين خاصة ، ما ألصق بهم من تهم لم يكن لها من مبرر .

وكنا فى الحلقة الاولى من هذا البحث قد أثرنا جانب الحرية التى كان يتمتع المعتمد بها فى المغرب ، والتى كانت متجلية فى اتصاله بالناس واتصال الناس به . ولا سيما الشعراء .

والحق اننا لو نظرنا فى بعض الاشعار التى كانت تنشد له فى أغمات ، لعرفنا الى أى مدى كان يتمتع بحريته ، بل الى أى مدى بلغت حرية القول على عهد المرابطين فقد حكى ان ابن اللبانة زاره فى هذه المدينة وبعد أن تركه بعث له المعتمد بعشرين دينارا وبيتيـــن يقـــول فيهمـــا (27) :

اليك النــزر من كف الاسيــر فان تقبــل تكن عين الشكور
تقبــل مــا يذوب له حيــاء وان عذرتــه أحــوال الفقير

فردها اليه ابن اللبانة مصحوبة بهذه الابيات التى يأمــل فيهــا عودتــه للملك :

أسير ولا أصيــر الى اغتنــام معاذ الله من سوء المصيــر
انا أدرى بفضلك منــك انــى لبست الظل منه فــى الحرور
وأعجب منــك انك فى ظــلام وترفع للعفــاة منــار نــور

(27) انظر المعجب ص 156 — 157 .

رويدك سوف توسعني سرورا   اذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلنى رتب المعالى   غداة تحل فى تلك القصور

وهل أكثر من هذا القول دليلا على الحرية التى كانت الشعراء فى التعبير عن رأيهم بعيدا عن الضغط والخنق ؟ ثم انه قد « اجتمع عند قبره (المعتمد) جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح ويجزل لهم المنائح فرثوه بقصائد مطولات وأنشدوها عند قبره وبكوا عليه فمنهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المختص به رثاه بقصيدة طويلة أولها :

ملك الملوك أسامع فأنادى   أم قد عدتك عن السماع عوادى

ولما فرغ من انشادها قبل الثرى ومرغ جسمه وعفر خده فأبكى عليه كل من حضر » حسب ما يحكى صاحب الوفيات (28).

فلعله واضح ان مثل هذا الموقف وما قيل فيه من شعر بهذا الروح ، لا يمكن تصور حدوثه فى ظل نظام لا يحترم الرأى ولا يتيح له حرية مطلقة للممارسة . ثم اننا اذا أضفنا الى هذه الحرية بعض جوانب معاملة ابن تاشفين الكريمة للمعتمد كأمر طبيبه الخاص أبى العلاء بن زهر بعلاج اعتماد الرميكية ، استطعنا أن ندرك مدى المبالغات التى أحاطت بهذه القضية .

ومهما يكن فان ابن تاشفين الخشن الجاهل المخيف ـ على حد تصوير خصومه له ـ كان فى معاملته للمعتمد أكرم بكثير من المعتمد الشاعر الرقيق فى معاملته لابن عمار وزيره وصديقه الذى بلغ من تعلقه به انه كان ينام معه « على وساد واحد »

---

(28) الجزء الثانى ص 44 وانظر كذلك القلائد ص 30 .

كما فى المعجب (29) وانه كان يعتبره نفسه على حد قوله له وقد أخبره ابن عمار أن هاتفا فى المنام يخبره أن ابن عباد سيقتله « وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحدا يقتل نفسه وهل أنت عندى الا كنفسـى » (30) .

فقد أخطأ ابن عمار حين أراد أن يستقـل بالامـارة فى مرسية فلم يقبل منه المعتمد ذلك وقبض عليه وأتى به الـى قرطبة « فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر باخـراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال ... ذليلا خائفا فقيرا لا يملك الا ثوبه الذى عليه ... فأدخل على المعتمد .. يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ... فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أنكر شيئا مما يذكر مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت على به الجمادات فضلا عمـن ينطق ولكن عثرت فأقل وزللت فاصفح ، فقال المعتمد : هيهات انها عثرة لا تقال ... فدخل به اشبيلية عل ىالحال التى دخل عليها قرطبة وجعل فى غرفة على باب قصر المعتمد ::: وكتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره أو الى الفلك لكف عن دوره فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

سجـايـاك ان عافيـت أندى وأسجـح
وعـذرك ان عـاقبـت أجلـى وأوضـح

(29) ص 117 .
(30) المصـدر السابـق ص 118 .

وان كــان بيــن الخطتيـــن مــزيـــة
فأنت الى الادنى من الله تجنـــح » (31)

ويحكى المراكشى بعد هذا قصة قتله فيقول ان المعتمـد صعد غرفة ابن عمار وفى يده طبرزين – أى فاس – « فلما رآه علم انه قاتله فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمى المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء . فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربه حتى برد » (32) .

ولعلنا بعد هذا فى غير حاجــة الى الكشف عــن البــون الشاسع بين معاملة يوسف للمعتمد ومعاملة المعتمــد لابــن عمار ، وهو بون يؤكد لا شك ما أثبته المؤرخون من أن ابــن تاشفين كان « حسن السيرة خيرا عادلا ... وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام » ، على حد قول ابن خلكان (33) .

ودعنا من تصرف المرابطين مع ملوك الطوائف واحسانهم اليهم والى المعتمد خاصة ، ولننظر فى معاملتهم لكتابهم حين يغدرون بهم ، فهذا أبو محمد بن أبى الخصال كاتب ابن يوسف أظهر عدم اخلاصه للمرابطين حين أمره على أن يكتب رسالة توبيخ لاحد الجيوش المرابطية فى الاندلس وقــد هــزمت ، فاغتنمها فرصة ليعبر عما فى نفسه ضدهم وكتب : « أى بنى اللئيمة وأعيار الهزيمة الام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد فليت لكم بارتباط الخيول ضانا لهــا حالب قاعــد ، لقد آن أن

(31) المعجب ص 124 – 125 – 126 .
(32) المصــدر السابــق ص 129 .
(33) الوفيــات ج 2 ص 488 .

نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجه نقــابا ، وأن نعيدكــم الى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم » (34) .

وأحس على بروح الكــاتب المليئــة بالحقــد والبغــض والضغينة ضد المرابطين فقال : « لقد كنا فى شك من بغض أبى محمد للمرابطين . والآن قد صح عندنا » ومع ذلك لم يفعل شيئا سوى أنه أوقفه عن العمل ، فلجأ الى قرطبة عند المنصور ابن محمد بن الحاج اللمتونى وقت خروجه على ابن يوسف ،ولكنه لم يلبث أن عاد الى سابق عهده بعد أن صفا الجو بين الاميرين .

على أن هناك جانبا فى هذه القضية لا يخلو من أهمية ، قد يدعو الى الكثير من التساؤل والتأويل ، ذلكم أن شعر المعتمد فى المغرب عامر كله بالحزن والالم والبكاء واليأس ، لم يستعطف ابن تاشفين ولم يعتذر له وانما استسلم للقدر والواقع فى كثير من العز والاباء . ألأنه لم يرض أن يفعل ذلك اعتزازا ؟ أم لانه كان يعترف مع نفسه بأخطائه وبصواب سياسة ابن تاشفين ؟ أم لانه كان قد تعمقه الملل واليأس ؟ أم لغير هذه من الاسباب ؟

قد يقول قائل ان المعتمــد ملك قبــل أن يكون شاعرا وأنه ألف أن يمــدحــه الآخــرون ويستعطفــوه لا أن يمــدح هــو غيــره ويستعطفــه . ونحــن نــرى على عكس هــذا بأن المعتمد شاعــر قبــل أن يكــون ملكــا أو شــاعــر ملك علــى أقــل تقــديــر ، وبأن لــه سوابــق فى الاعتــذار وفــى ظــروف

(34) المعجب ص 176 .

أخف وأقل خطورة من زوال ملكه . فقد تعرض مرة الى جفوة والده المعتضد وكان قد بعثه مع أخيه جابر الى فتح مالقة « بعد تقلص الظلال الحمودية عنها فاستوليا عليها سنة 458 ثم لم يلبث المغاربة بها أن استصرخوا أميرهم باديس فأسرع الى محاربة ابنى عباد فهزمهما واضطرهما للفرار الى رندة » (35) مما أثار غضب والده عليه وحفزه الى استعطافه والاعتذار له والتسرى عنه فى رائية يقول فى أولها :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وان يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مرد لما ياتى به القدر
وان تكن خيبة فى الدهر واحدة
فكم غزوت وفى أشياعك الظفر

وفيها يقول :

رضاك راحة نفسى لا فجعت به
فهو العتاد الذى للدهر يدخر
هو المدام التى أسلوبها فاذا
عدمتها عبثت فى قلبى الفكر (36)

(35) الديوان ص 36 هـ رقم 1 .
(36) انظر القصيدة بالديوان من ص 36 الى 40 .

ولعله من الانصاف للمرابطين وابن تاشفين خاصة ، بعيدا عن الشعر وتأثيره ، أن نسجل أن تنحيتهم للملوك الطوائف واستيلاءهم على الحكم لم يكن منه للاندلس الا الخير ، فقد استقرت أحوال البلاد واستراح الشعب مما كان يرهق كاهله من ضرائب كانت تفرض عليه فى غير حد ولا قانون ، وأنقذت الاندلس من الضياع وثبت مركز العروبة والاسلام فيها أربعة قرون أخرى بعد أن كان يلفظ أنفاسه واضطر العدو وهو يخوض بايمان معركة صليبية ضد المسلمين الى أن يرهبهم ويحسب لقوتهم ودولتهم ألف حساب . وكان بعد هذا لسيادة المرابطين على الاندلس ـ كما يقول أشباخ ـ « أثر حسن فى تكييف روح الشعب الاندلسى فقد حلت فى ظلها مكان الفروسية الهائمة والملاهى الناعمة والدعاية المصطنعة والفتور النسوى روح حربية قوية واعتدال متقشف وذكاء فطرى ورجولة متينة » (37) .

ويظهر ذلك واضحا فى هذا القول الذى كان يردده يوسف فى مجالسه بعد أن دانت له الاندلس « انما كان غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به أيامه . ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة الى المسلمين ولاملانها عليهم ـ يعنى الروم ـ خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء

(37) ج 2 ص 251 .

العيش ، وانما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبى دعوته » (38) .

ولسنا نريد أن ننهى هذا البحث عن قضية المعتمد دون أن نتعرض لقضية تثار حول قلة معرفة المرابطين وانحطاط ذوقهم وخشونة احساسهم ، وخاصة منهم ابن تاشفين . وهى قضية كثيرا ما تذكر مرتبطة بموقف يوسف من ابن عباد ، وكأن موقفه منه يعزى الى عدم ادراكه للادب وتأثره بالشعر ولا سيما ما كان ينظمه المعتمد أو ينظم له فى أغمات .

يقول أشباخ : « لم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر وتقدم المعارف » (39) وعنده أنهم كانوا « يعملون بالاخص على تحطيم الروح الشعرية الاندلسية التى كانت تجد متعتها فى قريض الفروسية والقصص المغرق » (40) أما دوزى فيرى أن رجال العلم والادب حتى بعد أن أصبحوا فى ظل المرابطين يشغلون المناصب فانهم لم يكونوا مرتاحين ولم يكونوا يعيشون فى نفس الجو الذى كانوا يعيشون فيه من قبل وانما أصبحوا يحسون ضيقا شديدا بالقرب من فقهاء متطرفين وقواد خشنين » (41) وعلى الرغم من أن دوزى يعترف فى أسلوب غير مباشر برعاية المرابطين للعلماء والادباء ، فانه لا يخفى رأيه فيهم ويرى أنهم كانوا أخشن وأغلظ من أن يكتسبوا رقة الاندلسيين.

---

(38) المعجب ص 162 — 163 .
(39) ج 2 ص 239 .
(40) المصدر السابق ص 250 — 251 .
(41) ج 3 ص 155 .

والقضية فى أصلها ترجع الى التهمة التى وجه الشقندى الى ابن تاشفين فى الرسالة التى كتب عن فضل الانـــدلس حيث قال : « ... لولا توسط ابن عباد لشعراء الاندلس فى مدحه ما أجروا له ذكرا ولا رفعوا لملكه قدرا . وبعد ما ذكروه بوساطـــة المعتمد ابن عباد ، فان المعتمد قال له وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ولما انصرف عن المعتمد الى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لبعدكم أيامنا فغــدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقـــارىء : أيطلب منـــا جوارى سودا وبيضا . قال : لا يامولانا ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لان ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا لان ليالى الحزن ليال سود فقال : والله جيد ، اكتب له فى جوابه : أن دموعنا تجرى عليه ورؤوسنـــا توجعنـــا مـــن بعده » (42) وزاد الشقندى معلقا : « فليت العباس بن الاحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق » (43) ثم أنشد هـــذا البيـــت :

ولا تنكرن مهما رأيت مقــدما علـــى حمر بغلا فثم تناسب

واضح من هذا الكلام أن الشقندى ــ وهـــو فى معـــرض المنـــافســـة ــ قصـــد الـــى تحطيـــم المـــرابطيـــن فى أسلوب سافـــل لجـــأ فيـــه الـــى السبـــاب والتعييـــر وبلغـــت بـــه

(42) ــ (43) النفـــح ج 4 ص 181 .

الخســة الى حد وصف ابن تاشفين بالبغل والمرابطين ـ والمغاربة عموما ـ بالحمر . وليس من شك فى أن الذى يصدر عن أسلوب من هذا النوع يكون بعيدا عن النزاهة والثقة والامانة والموضوعية مما يجعلنا لا نستبعد أن يكون قد اختلق الاخبار الواردة فى قوله بدافع من السخرية والاستهزاء . ولو فرضنا جدلا أنها صحيحة فاننا لا نستطيع أن نعقل أن يكون يوسف وهــو يحكــم علــى الابيات ـ بعد أن أفهمها ـ بأنها جيدة ويرد عليها بما ورد فــى جوابه ، مهما يكن هذا الرد غير رقيق ، لا يفهم معنى الليالى حتى يربط بينها وبين البياض والسواد ، والربط واضح سهــل فى البيت . ثم ان كلمة البعد الواردة فى الابيات وهــى محــور المعنى ، واردة كذلك فى جواب يوسف ، فكيف يعقل عدم فهمه لها . ولست أدرى كيف يتصور أن كلمة الجوارى خطرت على بال يوسف ، وما أخال مختلق الرواية الا محاولا أن يجعله ضعيف السمع حتى يخلط بين الجوانح والجوارى .

ثم انا لا نعقل أن يفهم يوسف شرح البيتين ولا يفهم البيتين نفسهما ولو فى معناهما العام . أما ما يذهب اليه الشقندى من أن ابن تاشفين لم يكن يفهم مما ينشده الشعراء الا أنهم يطلبــون الخبز ، فما نراه الا عين الصــواب فى الفهــم وفى النظــر الى المادحين ، وهل كان أولئك الشعراء يطمعون فى غير العطاء ؟ ويؤكد هذا الرأى ما يروى من أن يوسف « كان يحثو التراب بيده وهم يلقون قصائدهم وكأنه يعرض لهم بقول الرسول : أحثوا فى وجه

المداحين التــراب » (44) .

والذى نريد أن نقول هو أن ابن تاشفين لم يكن كما يصوره الشقندى ومن لف لفه من المغرضين المزيفين ، وانما كان علــى شيء غير قليل من المعرفة باللغة والقرآن والدين ، خاصة وانه قضى سنوات طويلة فى صحبة ابن ياسين وفى رباطه ، بل أنــا نميل الى اعتباره ــ ليس فى مستوى فهم الادب فقط ــ ولكن فى مستوى تذوقه والحكم عليه . ولا أدل على ذلك مما يروى من أنه بعد جوازه الى الاندلس وتوصله بخطاب الادفونش الذى أغلظ له فيه القول وهدده أمر كاتبه أبا بكر ابن القصيرة فكتب ردا قرىء عليه فوجده طويلا ، وهو على طوله لا يفى بالغرض ، فأخذ خطاب الادفونش وكتب على ظهره : « الجواب ما ترى لا مــا تسمع » ويقال انه أردف بيت المتنبى :

ولا كتــب الا المشــرفيـــة والقنـــا
ولا رســل الا الخميس العــرمرم (45)

ولعمرى انه رد لا يمكن أن يوصف الا أنه غاية فى الروعــة والابــداع .

أما عناية المرابطين بالادب فأوضح من أن تنكــر ، فقــد اجتمع ليوسف « من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الاعصار » على ما يروى صاحب المعجب(46).

---

(44) النبوغ ج 1 ص 81 (ط دار الكتاب اللبنانى) والحديث فى صحيح مسلم وسنن أبى داوود والترمذى وابن ماجة وابن حنبل .

(45) انظــر الحلــل ص 30 .

(46) ص 164 .

ومـــن كتـــابـــه :

عبد الرحمن بن اسباط ومحمد بن عبد الغفور وعبد المجيد ابن عبدون . وكذلك كان علي ، فقد ذكر المراكشي أنه لم يزل « من أول امارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الاندلس ، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » (47) .
ومـــن كتـــابـــه :

أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال والوزير أبو القاسم ابن الجد المعروف بابن الاحدب وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطـــرنـــة .

وكان لبقية أمراء الدولة وولاتهـــا عنايـــة كبيرة بالكتـــاب والشعراء يقربونهم في عناية وتشجيع . وربما كان أكثر هؤلاء الامراء رعاية للادب : ابراهيم بن يوسف وأبو بكر بن تافلويت وعبد الله بن مزدلي . فقد قرب ابراهيم الفتح بن خاقان الى حد ألف القلائد باسمه ، وذكر في مقدمته فضله على الادب واحيائه .

ومن الشعراء الذين مدحوه أبو اسحاق بن خفاجة والوزير أبو بكر بن رحيم وأبو الفضل بن الاعلم الشنتمـــري وغيرهم كثيرون نجد مدائحهم في قلائد العقيان ومغرب ابن سعيد .

أما عبد الله بن مزدلي فكان يقصـــده الادبـــاء يمدحونـــه فيعطيهم في سخاء أمثال القاضي أبي محمد بن عطيـــة صاحب التفسير والوزير أبي عامر بن أرقم والوزير أبي جعفر بن مسعدة الذي اتخذه كاتبا له .

---

(47) المصـــدر السابـــق ص 173 .

وأما أبو بكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلويت ـ وكان واليا على سرقسطة ـ ، فكان من أهم كتابه ومادحيه الفيلسوف أبو بكر بن باجة ، وله فيه مدائح كثيرة ، وكذلك الشاعر ابن سارة الشنتريني . ويحكى ابن خلدون أن ابن باجة « حضر مجلس مخدومه ابن تافلويت صاحب سرقسطة فألقى على بعض قيناته موشحته :

جرر الذيل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لامير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تافلويت صاح : واطرباه . وشق ثيابه وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت . وحلف بالايمان المغلظة لا يمشى ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه » (48) .

ولم تكن عناية ابن تافلويت بالادب قاصرة على تشجيع الادباء فقط ، ولكنه كان يقول الشعر كذلك . من ذلك ما قاله فى سيف هزه على بن يوسف (49) :

هززت حساما فشبهته غديرا من الماء لكن جمد
فلما بدا لى أفرنده لهيبا من النار لكن خمد
فلولا الجمود ولولا الخمود لسال لدى الهز أو لا تقد

وبلغ من عناية المرابطين بالادب ان نساءهم كن يتعشقنه

(48) مقدمة ابن خلدون ص 519 ـ 520 .
(49) امراؤنا الشعراء لعبد الله جنون ص 17 (المطبعة المهدية ـ تطوان) .

وينشدنه ويحفظنه ، وربما كانت لهن مجالس يحضرها الادباء ويتهافتون فيها على مدحهن . فحواء بنت ابراهيم بن تافلويت كانت كثيرة الحفظ والانشاد للشعر ، مدحها أبو جعفر القيسى التطيلى بقصيدة طويلة منها قوله (50) :

مليكة لا يوازى قدرها ملك
كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

وأختها زينب كانت مثلها ، وفيها يقول ابن خفاجة :

جمل الثناء بها القريض وانما   جمل الحديث رواية عن مسلم

وهو القائل فى مريم بنت ابراهيم بن يوسف ، يستشفع بها الى الامير أبى طاهر ، قصيدة مطلعها (51) :

يممت من علياك خير ميمم   وحللت من مغناك دار مخيم

كذلك تذكر تميمة بنت يوسف بن تاشفين ، وكانت قد أنشدت بداهة أحد كتابها — ولعله كان يتملقها ويحاول التقرب اليها — قول ابن الاحنف :

هى الشمس مسكنها فى السماء   فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود   ولن تستطيع اليك النزولا(52)

وطبيعى ، وقد لقى الادب مثل هذه الرعاية ، أن تنفق سوقه وينبغ أدباء من أبناء المغرب . ومع أن الباحث يصادف كثيرا من العناء فى الكشف عن هؤلاء الادباء فانه لا يلبث أن يعثر

---

(50) انظر ديوان الاعمى التطيلى ص 17 (ت . د . احسان عباس)
(51) انظر ديوان ابن خفاجة ص 114 (ط القاهرة) .
(52) انظر ديوان العباس بن الاحنف ص 221 (ت . عاتكة الخزرجى) .

على غير قليل من الاسماء والنصوص تتصل كلها أو تكاد بالشعر.

ومن ألمع هذه الاسماء ابن حبوس وابن زنباع ويحيى بن الزيتونى وابن القابلة السبتى وعبد الله التادلى وابن هشام وأبو بكر بن عطاء وابن غازى وكذلك القاضى عياض .

أما النثر ــ ونعنى النثر الفنى ــ فالظاهر أنه لم يتح له أن ينطلق ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن الامراء كانوا يعينون كتابهم من الاندلسيين مما جعل مجال الكتابة الادبية ضيقا أمام المغاربة لا سيما وأنهم كانوا لا يزالون فى أول النهوض .

المولد النبوي

في الادب المغربي

---

* نشر في مجلة (المناهل) العدد التاسع السنة الرابعة رجب 1397 يوليــو 1977 .

... الموضوع الذى أتشرف بتناوله معكم فى هذا الجمع الموقر (1) هو : « المولد النبوى فى الادب المغربى » . وسأعرض فيه لظاهرة أدبية تتسم ملامحها بالغنى والطرافة وتكشف أبعادها عن رباط عضوى وثيق يلحم بين الابداع الفنى والضمير الدينى فى انصهار بين الذاتية الفردية لادبائنا والذات الجماعية لجماهير شعبنا خلال التاريخ .

* * *

فى البداية تواجهنا قضية لا مناص من اثارتها والبت فيها ، وهى قضية ذات شقين : أحدهما متعلق ببداية المدائح النبوية فى الادب العربى عامة والادب المغربى خاصة ، والثانى متصل بتاريخ الاحتفال بالمولد النبوى .

أما بالنسبة للشق الاول فان الدارسين ظهروا مختلفين ، على قلتهم وقلة اهتمامهم بهذا الموضوع . بعضهم ذهب الى أن فن المدائح النبوية نشأ فى ركاب الدعوة الاسلامية ، والرسول عليه السلام ينشر الدين ويجاهد فى نشره . وعند هؤلاء أن القصائد التى أنشأها حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة فى مواجهة الكفار والمشركين ، وفى الدفاع عن الاسلام وصاحب الرسالة ، تعد فى صميم هذا الفن .

وذهب باحثون آخرون الى أن مديح الرسول صلوات الله عليه فن مستحدث فى القرن السابع الهجرى على يد شعراء مصريين فى طليعتهم البوصيرى وابن دقيق العيد .

---

(1) القيت هذه المحاضرة ببلدية مراكش مساء الجمعة 13 ربيع الاول 1397 موافق 4 مارس 1977 .

فى اعتقادنا أن ما قاله شعراء الرسول يمكن أن يعد ارهاصا لفن جديد فى الادب العربى طارىء مع الاسلام ، هـو مديـح الرسول . بل نستطيع أن نعتبر منه البيتين اللذين يقال ان عبـد المطلب أنشدهما فى لحظة ولادة محمد عليه السلام ، وهما (2) :

وأنت لمـا ولـدت أشرقـت   الارض وضاءت بنورك الافـق
فنحـن فى ذلك الضيـاء وفـى   النـور وسبل الرشاد نخترق

وقد نعتبر من الارهاصات كذلك لهذا الفن القصيدة التى قالها الاعشى ميمون بن قيس ، والتى أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمـدا   وبت كما بات السليم مسهـدا

وفيهـا يقـول :

وآليت لا آوى لهـا من كلالة   ولا من وجى حتى تلاقى محمدا
نبيا يـرى ما لا ترون وذكره   أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

الى آخر الابيات (3) التى يشم منها النفس الاسلامى ، وان كان الاعشى لم يسلم ، على الرغم من أنه كان قد عقد العزم على ذلك ثم تأخر فى قصة مشهورة لا يسمح المجال بعرضها .

وسيزيد مديح الرسول تبلورا على يد شعراء الشيعـة الذين تغنوا بآل البيت ، سواء فى العهد الامـوى أو العباسى ، أمثال الكميت والسيد الحميرى ودعبل الخزاعى ، وكذلك علـى

---

(2) ذكرهما القادرى فى حاشيته على شرح الازهرى لبردة البـوصيرى (مطبـوع علـى الحجـر) .

(3) انظر « شعراء النصرانية قبل الاسلام » للاب شيخو الذى عد الشاعر متأثرا بالنصرانية (ص 358 ـ الطبعة الثانية) وانظر رأينا فيه حيث اعتبرناه من طائفة شعراء الرسول فى كتابنـا « مـن أدب الدعـوة الاسلامية » (ص 36 ط . دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1974) .

يد الشعراء الذين مدحوا العباسيين وأشادوا بانتسابهم للبيت النبوى ، كمروان بن أبى حفصة وأبى دلامة زند بــن الجــون ومطيع ابن اياس وسلم الخاسر .

وفى اعتقادنا كذلك أن فن المديح وجد صيغته المكتملة حين احتك بالتصوف بعد أن ازدهر هــذا الاخير وانتشرت مذاهبــه وطــرقــه .

حقا اننا فى القرن السابع نلتقى فى المشرق ـ ومصر خاصة ـ مع تيار أدبى متأثر بالفكر الصوفى الذى حمله فى هذه الفتــرة وقبلها بقليل متصوفة مغاربة وأندلسيون ، كمحيى الديــن بــن عربى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأحمد البدوى.

وحقا كذلك اننا فى هذا العصر نلتقى مع البوصيرى ومع بردته أو برءته التى تعد ـ وبعدها همزيته ـ أشهر ما قيــل فى هذا الباب ، دون أن ننسى أن البوصيرى ، وان ولد فى مصر ، مغربى ، أصله من صنهاجة ، واسمه محمد بن سعيد الصنهاجى ، ودون أن ننسى كذلك أنه تلمذ على أبى العباس المرسى .

ولكن فن المديح النبوى كان قد اكتمل وصار غرضا قائم الذات قبل ذلك بنحو قرنين وقد اشتهرت فيه قصائد كالقصيدة المعروفة بالشقراطيسية ، وأولها :

الحمد لله منــا باعث الرسل   هدى بأحمد منا أحمد السبل

وهى للشيخ أبى محمد عبد الله بن يحيــى الشقراطيسى التوزرى المتوفى سنة 466 هـ .

ومثلها القصيدة المسماة « معراج المناقب ومنهاج الحسب

الثاقب » ، وهى لابى عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة 540هـ، وكان كاتبا بمراكش لعلى بن يوسف بن تاشفين . وفى مطلعها يقول :

اليك فهمى والفؤاد بيثرب وان عاقنى عن مطلع الوحى مغربى

هذا بالنسبة للشق الاول المتعلق بنشأة المدائح النبوية ، أما بالنسبة للشق الثانى الخاص بتاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ، وهو المناسبة التى أصبحت بها المدائح مولديات أو ميلاديات ، فقد شاع أن الفاطميين فى مصر وتونس كانت لهم عناية خاصة بمولد الرسول عليه السلام وبمولد آل البيت على وفاطمة والحسن والحسين ، حتى ظن أنهم كانوا أسبق من غيرهم للاحتفال بالمولد النبوى ، فى حين أن حقيقة التاريخ غير ذلك .

من المعروف أن الخلفاء الراشدين لم يحتفلوا بهذا المولد حتى لا يبتدعوا شيئا لم يرد فى الكتاب والسنة ، وان زعم أصحاب بعض الموالد أن الرسول أوصى بأن يحتفل بذكرى مولده . كما أن الامويين لم يحتفلوا به ، ولعلهم قصدوا الى ذلك لموقف آل البيت المعارض لدولة بنى أمية ، ولكن من المؤكد أن العباسيين احتفلوا به طوال مختلف عهودهم ، وأن العلويين والشيعة عامة قد احتفلوا به حتى قبل قيام الدولة العباسية .

وعن فترة متأخرة بعض الشىء يتحدث ابن خلكان فى وفياته (4) فيذكر أن ابن دحية السبتى — وهو من كبار علماء المغرب فى عصر الموحدين ، رحل الى المشرق فأنشأ له الكامل

(4) ج 1 ص 481 (ط . بولاق) .

الايوبى المدرسة الكاملية للحديث فى القاهرة سنة 622 هـ وولى أمرها من بعده لاخيه أبى عثمان ثم لابنه شرف الدين ـ أقول يذكر ابن خلكان أن ابن دحية حين قدم الى اربل سنة أربع وستمائة وهو متوجه الى خراسان رأى صاحبها الملك مظفر الدين بن زين الدين مولعا بعمل المولد النبوى عظيم الاحتفال به ، فألف له كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » وقرأه عليه بنفسه .

أما فى المغرب فيمكننا أن نعتمد على كتاب « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » ، وكنا قد وقفنا على مخطوطته فى مكتبة ينى جامع بالسليمانية فى اسطنبول (5) ثم على نسخة بالمكتبة الملكية . بدأ تأليفه أبو العباس العزفى السبتى المتوفى سنة 633 هـ ثم أكمله ابنه أبو القاسم . فى مقدمة هذا الكتاب اشارة الى أن هؤلاء العزفيين هم أول من دعا الى الاحتفال بالمولد النبوى فى المغرب وأول من أحدثه . وفيها كذلك أن هذا الاحتفال بدعة ولكنها بدعة مستحسنة ، لا سيما وأن النصارى يحتفلون بمولد المسيح.

ويبدو أن الموحدين فى أواخر عهدهم قد احتفلوا بالمولد ، اذ يحكى ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة ما قبل الاخير (6) فى سلسلة الموحدين « كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لانه لما ألف كتابه (الدر المنظم فى مولد النبى المعظم) بعث به اليه وأشار بذلك الرأى عليه » (7) .

---

(5) رقمها 851 .
(6) بويع سنة 646 وقتل سنة 656 .
(7) ج 3 ص 452 (ط . معهد مولاى الحسن) .

وفى مصادر التاريخ أن المرينيين كانت لهم عناية فائقة بالمولد ، بل انا نجد الحسن الوزان المعروف بليون الافريقى يذهب فى كتابه « وصف افريقيا » (8) الى أن الشعراء الشعبيين فى العهد المرينى كانوا يتبارون لاظهار براعتهم الشعرية فى مناسبة ذكرى المولد النبوى حيث يتجمعون صباح يوم العيد فى الميدان الرئيسى ويعتلون المنصة واحدا تلو الآخر لالقاء اشعارهم وقد تجمهر عليهم الناس . ثم ينصب أميرا للشعراء من أحرز منهم قصب السبق . ويذكر كذلك أن السلطان المرينى كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعى له رجال العلم والادب ، وأن الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فينعم على الفائز الاول بمائة دينار وفرس ووصيف وحلته التى يكون لابسا فى هذا اليوم ويمنح سائر الشعراء خمسين دينارا لكل واحد .

ولم يلبث أن أصبحت لهذا الاحتفال تقاليد عند السعديين ، ولا سيما فى عهد المنصور ، تحدث عنها الفشتالى باسهاب فى « مناهل الصفا » (9) . وقد تطورت هذه التقاليد فى ظل ملوك الدولة العلوية ، على حد ما فصل المؤرخ ابن زيدان فى « العز والصولة » (10) ، وعلى حد ما زلنا نعيش حتى الآن .

* * *

اذا أردنا بعد هذا أن ننظر فيما أبدع المغاربة بوحى من

---

(8) Description de l'Afrique p.p 214-215 (Adrien Maisonneuve Paris 1956).

(9) مختصر الجزء الثانى ابتداء من ص 221 (ت جنون — المطبعة المهدية 1964) .

(10) ج 1 ص 172 فما بعد (المطبعة الملكية) .

هذه المناسبة الكريمة ، وأن نتتبعه لنرصد أهم معالمه وأبـــرز ملامحه ، فاننا سنجد المجال أوسع من أن يستوعبه البحث فضلا عن محاضرة محدودة . ذلكم أن تمسك المغاربة بالاسلام وتشبثهم به وتعلقهم بالرسول عليه السلام وتفانيهم فى حبه وحب آل بيته، كل ذلك شحذ عاطفة العلماء والادباء وأمدها بشحنات وطاقات لم تلبث أن فجرت ابداعا غزيرا ومتنوعا لا حدود لابعاده وآفاقه، حيث نجدهم تتبعوا مراحل السيرة النبوية الزاخرة ، بدءا من الحديث عن نسب الرسول ومولده الى الحديث عن وفاته وآل بيته ، ملحين داخل هذا الاطار على شمائله ومعجزاته ومواقفه وغزواته . بل انا نجد المغاربة ـ كتابا وشعراء ـ عنوا عناية خاصة بموضوعات كالمعراج والهجرة والنعال النبويـــة والشوق الى زيارة البقاع المقدسة . وهى كلها تشكل جوانب منطلقة من فيض الحب الذى يكنه هذا الشعب للرسول صلوات الله عليـــه ومغذية له ومتجاوبة معه ، سواء ما جاء فى ذلك من النثر أو الشعر.

بالنسبة للنثر ، لا بد أن نشير الى أهم مـــا كتب العلمـــاء المغاربة فى السيرة النبوية أو بعض جوانبها العلمية والادبيـــة منذ القرن السادس الهجرى حتى العصور المتأخرة . وأقسمه الى ثلاثـــة فنـــون :

أولا : السيـــــرة :

وأذكـــر فيهـــا :

1 ـ شفاء الصدور للحافظ أبى الربيع سليمان بن سبـــع

العجميسى دفين سبتة (11) .

2 ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض المتوفى سنـــة 544 هـ .

3 ــ نهاية السول فى خصائص الرسول (12) لابن دحيـــة السالف الذكـــر .

4 ــ الآيات البينات فى خصائص أعضاء رسول الله (13) . لـــه كـــذلك .

5 ــ العقد المنضد بجواهر مفاخر محمد للمهـــدى الفاسى المتوفى سنـــة 1109 هـ .

6 ــ كفاية المحتاج من خير صاحب التاج واللواء والمعراج لـــه أيضا .

7 ــ سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبى الاول والآخـــر لنفس المـــؤلف .

8 ــ فخر الثرى بسيد الورى لمحمد بن عبد الرحمن الدلائى.

9 ــ زهر الحدائق وخلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق وما يستتبع ذلك من النكت والدقائق له كذلك (14) .

10 ــ الزهر الندى فى الخلق المحمدى (15) للمؤلف نفسه .

11 ــ الذخيرة فى السيرة النبوية لمحمد المعطى الشرقاوى

(11) يوجد الجزء الثانى منه مخطوطا بالمكتبة الملكية رقم 5733 .
(12) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 612 حديث .
(13) مخطوط فى الجزائـــر رقم 1679 .
(14) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 306 ك .
(15) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 157 د .

المتوفى سنة 1180 هـ .

ثانيا : الموالد :

وقد اشتهر المغاربة بتأليفها وقراءتها فى مناسبة المولد النبوى ، ووقفت منها على أزيد من أربعين مولدا ، منها :

1 — الدر المنظم فى مولد النبى المعظم للعزفى السبتى السالف الذكر .

2 — مولد المعطى الشرقاوى .

3 — القمر المنشق وحقيقة الحقائق بمولد الشفيع المشفع وخير الخلائق لجعفر بن ادريس الكتانى المتوفى سنة 1323 هـ .

4 — هداية المحبين الى ذكر مولد سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه فى كل حين (16) لمحمد بن التهامى جنون المتوفى سنة 1331 هـ .

5 —اسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الانبياء وسيد الخلائق (17) لمحمد بن جعفر الكتانى المتوفى سنة 1345 هـ .

6 — فتح الله فى مولد خير خلق الله (18) لفتح الله بنانى المتوفى سنة 1353 هـ .

7 — مولد أحمد بن محمد العلمى المتوفى سنة 1358 (19).

8 — مولد أحمد بن العياشى سكيرج المتوفى سنة 1363 هـ .

---

(16) مطبوع على الحجر .
(17) مطبوع على الحجر .
(18) مطبوع فى مصر (المطبعة المحمدية 1323 هـ) .
(19) مطبوع .

9 – النور اللائح بمولد الرسول الخاتم الفاتح (20) لعبد الرحمن بن زيدان المتوفى سنة 1365 هـ .

10 – الرحمة العامة فى مولد خير الامة (21) لمحمد بن الموقت المراكشى المتوفى سنة 1369 هـ .

ثالثا : الشروح والحواشى :

ونقصد بها الشروح والحواشى التى وضعت على أشهر قصائد المديح النبوى ، وهى كثيرة نذكر منها (22) :

1 – شرح الشقراطيسية (23) لمحمد الحضيكى المتوفى سنة 1189 هـ .

2 – شرح البردة (24) لسعيد بن سليمان السملالى الكرامى المتوفى سنة 882 هـ .

3 – شرحها لمحمد بن عبد السلام بنانى المتوفى سنة 1163هـ

4 – شرحها لاحمد بن عبد الوهاب الوزير الغسانى المتوفى سنة 1146 هـ واسمه : « الجواهر السنية فى شرح الكواكب الدرية » .

5 – شرح البردة لاحمد بن محمد الفاسى المتوفى

(20) مطبوع .
(21) مطبوع .
(22) نشير الى أنه توجد شروح بالبربرية على هذه القصائد كشرح البردة لعبد الله بن يحيى الحامدى ، وهو ضمن مجموع مخطوط فى خزانة الرباط العامة رقمه 1098 د .
(23) ذكر المرحوم المختار السوسي فى « سوس العالمة » انه كان يدرس به (ص 193 مطبعة فضالة 1960) .
(24) مخطوط بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقمه 1372 د .

سنـــة 1021 هـ .

6 ــ نسيم الوردة فى شرح البردة لمحمد المكى البيطاورى المتوفى سنـــة 1355 هـ .

7 ــ شرح الهمزية لمحمد بن زكرى المتوفى سنة 1144 هـ .

8 ــ شرحها (25) لمحمد الحضيكى السالف الذكر .

9 ــ شرحها لاحمد بن الوزير المشار اليه آنفا .

10 ــ شرحها لاحمد بن محمد الفاسى المتقدم الذكر .

11 ــ شرحها لمحمد جنون المتوفى سنة 1302 هـ .

12 ــ لمحات المزية من نفحات الهمزية للبيطاورى المذكور مـــن قبـــل .

13 ــ شرح بانت سعاد لابن الحسن بنانى .

14 ــ شرحها للحضيكى السالف الذكر .

15 ــ حاشية محمد بن قاسم القادرى على شرح الازهرى للبـــردة ، وقد سبق ذكرها .

ونضيف هنا الاشارة الى شرح عبد العزيز الفشتالى وعبد الواحد الفلالى من العصر السعدى لمقصورة عبد الرحمن المكودى النحوى المشهور المتوفى سنة 807 هـ ، وهى التى يقول فى أولها :

أرقنـــى بارق نجـــد اذ سرى   يومض ما بين فـــرادى وثنى

كذلك نشير الى أن حمدون بن الحاج المتوفى سنة 1232 هـ كان قد وضع نظما على حرف الميم يقع فى نحو أربعة آلاف بيت

(25) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم ك 1478 و 1658 د .

وانه شرح هذا النظم بنفسه ولم يتمه فأكمله ابنه محمــد (26)، وأولـــه قـــولـــه :

هبت قمارى بين البان والعلم   تملى شمائل أقمار بذى سلم

ماذا يمكننا أن نقول عن هذا الانتاج النثرى الغزير ؟

أكتفـــى بلفت النظر الى أمرين اثنين :

أولهمـــا : أن هذه الشروح غنية من حيث المعارف الدينية والمعلومات التاريخية والفوائد الادبية والنحوية والبلاغية . وهى بذلك تكتسى صبغة تعليمية ، فى الوقت الــذى تنم عـــن ثقافـــة أصحابها وهى ثقافة موسوعية فى غالب الاحيان . وتجدر الاشارة الى أنه كانت للعلماء المدرسين عناية خاصة بتناول قصائد المديح المشهورة بالشرح والتحليل مع الطلبة فى حلقات الدرس بمناسبة المولد . وربما كانت هذه المناسبة هى الفرصة الوحيدة التى تتاح لدراسة الادب وفنونه فى نظام الدراسة التقليدية .

الثـــانـــى : ان الموالد النبوية جاءت فى أسلوبها أقرب ما تكون الى الكتابة الشعرية ، من حيث ترتيب فقراتها وتنسيق جملهـــا والالحاح فيها على السجع ، ومن حيث الاعتماد على الصـــور والاخيلة فى كثير من المواقف ، والتوسل فى بعض الاحيان بالشعر . ونمثل لذلك أو لبعضه بفقرة من مولد الشيخ فتح الله بنانى يتحدث فيها عن بعض العلامات التى ظهرت عند ولادته عليـــه السلام ، قال : « ... ظهرت عند ولادته صلى الله عليه وسلـــم

---

(26) يقع فى خمسة أجزاء طبع الاول منها على الحجـــر وبقيت الاجـــزاء الاخـــرى مخطوطـــة مبعثـــرة .

خوارق وآيات ، ودلائل وعلامات ، تمهيدا لنبوته ، واعلاما بعلى رتبته . منها ارتجاج ايوان كسرى ، وتحركه واهتزازه المرة بعد الاخرى ، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته ، اعزازا لنبيه واذلالا لعداته ، والايوان بناء عظيم فى غاية الاتقان ، يعدونه للملوك والحكام ، كان يظن انه لا تهده الا نفخة الصور عند القيام ... » (27) ولكن هذه الموالد جاءت فى ثناياها محشوة بغير قليل من الخرافات والمنكرات ، شأنها فى ذلك شأن العديد من السير . ولقد نبه العراقى فى الفيته الى ذلك حين قال :

وليعلم الطالب أن السير تجمع ما صح وما قد أنكرا .

وهذه لا شك ظاهرة مؤسفة يزيد فى وقعها السىء على النفوس المومنة أن هذه الموالد تلقى على الجماهير فيكون لها أعظم الاثر على عقيدتهم وثقافتهم وعقليتهم وذوقهم كذلك .

وانى من هذا المنبر أقترح على المسؤولين عن الشؤون الاسلامية أن ينظروا فى معالجة هذه الظاهرة بتكوين لجنة من العلماء المتخصصين ، يسند اليهم أمر مراجعة الموالد المتداولة وتنقيحها وتصفيتها من كل الشوائب ، وربما وضعوا مولدا موحدا يكون صالحا لكى ينشر ويعمم ، وقد يغنى عن بقية الموالد .

* * *

اذا انتقلنا الى الشعر وهو أغزر من أن يستوعب ، فاننا نستطيع أن نميز هذه الانواع :

أولا : نظم كتب مشهورة فى السيرة :

وعلى سبيل المثال أذكر :

---

(27) ص 136 .

1 — أرجوزة أبى على حسن الرهونى المراكشى المتوفى سنة 661 هـ ، وهى طويلة تنيف على ستة آلاف بيت (28) . وقد نظم فيها كتاب « الاحكام لسياق ما لسيدنا محمد عليه السلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والاعلام » وكان قد ألفه ابن القطان للمرتضى الموحدى (29) .

2 — نظم لسيرة ابن هشام وضعه فتح بن موسى بن حماد القصرى المتوفى سنة 663 هـ وهو على حرف الميم وعنوانه : « السول فى نظم سيرة الرسول » (30) .

3 — مورد الصفا فى محاذاة الشفا لاحمد سكيرج ، وهو نظم لشفا القاضى عياض ، يقع فى أزيد من سبعة آلاف بيت (31) .

ثانيا : المعارضات والتخميسات وما اليها :

وهى كثيرة ، منها معارضة حمدون بن الحاج لوتريات ابن رشيد البغدادى بوتريات أولها (32) :

صلاة وتسليم على المصطفى الذى
بذكر له تندى القلوب وتهدأ

والبغدادى من القرن السابع ، وكان قد أقام بالمغرب ،

(28) مخطوط فى القرويين رقم 291 .
(29) مخطوط فى القرويين رقم 292 .
(30) يبدو انه فى خمسة أجزاء لا يوجد منها الا الخامس والاخير مخطوطا فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 1668 .
(31) يوجد مخطوطا عند ولد المؤلف الاستاذ عبد الكريم سكيرج .
(32) مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 1003 .

ووترياته عبارة عن تسع وعشرينقصيدة على عدد حروف المعجم، فى كل قصيدة واحد وعشرون بيتا ، مع بدء الابيات بحرف الروى . وقد تأثر بوترياته معاصره مالك بن المرحل السبتى (المتوفى سنة 699 هـ) فى « الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والاخرى » . وهى على عدد حروف المعجم ، فى كل حرف عشرون بيتا يلتزم افتتاحها بحرف الروى ، وأولها (33) :

الى أحمد أهديت غر ثنائى
فيا طيب اهدائى وحسن ثنائى

وعلى هذا النسق سار سكيرج فى قصيدته « ضوء الظلام فى مدح خير الانام » (34) حيث وضع على كل حرف عشرة أبيات دون أن يلتزم افتتاحها بحرف الروى ، وهى التى يقول فى مطلعها :

جمالك يا خير الورى حير النهى
ونورك فى الاكوان ضاءت به الدجى

وقد وضع الفاطمى الصقلى المتوفى سنة 1311 هـ تخميسا على وتريا تالبغدادى ، أوله (35) :

أألهو بتشبيب وشيبى تبسما
وأعدل عن مدح الحبيب الذى سما
أقول اذا ريا علاه تنسما
أصلى صلاة تملأ الارض والسما
على من له أعلى العلا متبوأ

(33) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم ج 89 .
(34) مطبوعة على الحجر .
(35) مطبوع على الحجر .

كذلك خمس العالم والشاعر المغربى الصحراوى أبو بكر محمد بن المهيب « ديوان الوسائل المتقبلة » لابى زيد عبد الرحمن الفازازى الاندلسى الذى كان معاصرا للبغدادى . ويشتمل هذا الديوان على عشرين قصيدة مرتبة على حروف المعجم ومفتتحة أبياتها بحرف الروى ، وأولها (36) :

أحق عباد الله بالمجد والعلا نبى له أعلى الجنان مبوأ

كما نشير الى تخميس سكيرج على البردة وعنوانه : « الوردة » (37) .

وفى المعارضات نذكر قصيدة الطاهر الايفرانى (المتوفى سنة 1374 هـ) التى يعارض بها « بانت سعاد » مخللا ببعض أشطار قصيدة كعب ، وأولها (38) :

دع عنك لومى فما التعذال مقبول
بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

كما نذكر بردة الحلوى التى يعارض بها قصيدة البوصيرى ، ومطلعها (39) :

أحبب بها من ربى عطرية النسم تفوح بالطهر والالهام والقيم

ثالثا : دواوين خاصة بالمديح النبوى :

نذكر منها :

1 ـ ديوان « نوادر النظام فى شرف سيد الانام » لمحمد

---

(36) الكل مطبوع على الحجر .
(37) مطبوعة على الحجر .
(38) انظر المعسول للمختار السوسى ج 7 ص 191 .
(39) انظر مجلة دعوة الحق العدد 7 السنة 12 ربيع الاول 1389 يونيو 1969 .

ابن القاسم بن داود السلوى من أهل القرن التاسع . ويضم مائة نادرة ونادرة ، ويعنى بالنادرة القصيدة ، ومجموع أبيـاته يزيد على ثلاثة آلاف بيت (40) .

2 ــ ديوان فى المديح النبوى لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى المتوفى سنة 1096 هـ (41) .

3 ــ ديوان « السراج الوهاج فى مـدح صاحب التـاج والمعراج » (42) لعبد الكريم بن زاكور الذى كان واليا علـى تطوان فى عهد سيدى محمد بن عبد الله .

4 ــ ديوان فى المديح النبوى لعلى بن سليمان الدمناتـى المراكشى المتوفى سنة 1306 هـ (43) .

رابعـا : القصـائـد المفـردة :

هنا أود أن ألفت النظر الى أن الشعراء المغاربـة كانـوا سباقين الى فن المديح ، اذ نجد أن بداياتهم فيه ترجع الى العصر الموحدى ، ومنها قصيدة ميمون بن خبازة الخطابى المتوفى سنة 637 هـ ، وأولها (44) :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا   لنفنى فى مدح الحبيب المعانيا

وفى هذا العصر سنجد أبـا حفص عمـر المرتضى يعنـى

---

(40) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 360 ك .
(41) مخطـوط بالمكتبـة الملكيـة رقـم 3071 .
(42) يقع فى عدة اجزاء يوجد بعضها فى الخزانة العامة (ك 1830) والمكتبـة الملكيـة (2356) .
(43) مطبوع مع شرح عليه فى القاهرة سنـة 1298 هـ .
(44) انظرها فى أزهار الرياض ج 2 ص 384 (ط . القاهرة) وجـذوة الاقتباس لابـن القـاضى ص 209 (ط . حجرية) .

بانشاء هذا النوع من الشعر ، وقد سبق أن رأينا اهتمامه باقامة المولد ، فيقول مثل هذه القصيدة التى نكتفى بمطلعها (45) :

وافى ربيع قـــد تعطر نفحـــه   أذكى من المسك العتيق نسيما

وأظن أن من العبث محاولة ذكر الشعراء المغاربة الذيـــن أبدعوا مولديات ، فانهم جميعا قالوا فيها قليلا أو كثـــيرا مـــن القصائد ، وسأكتفـــى بالاشارة الى أسمـــاء بعض شعرائنـــا الصحراويين الذين كان لهم باع طويل فى هذا الفن أمثال محمد بن سيدى العلوى ، ومحمد بن سعيد الدمانى ، وسيدى عبد الله بن أحمد ، ومولود بن الجواد المعروف بـــ (أجويد) وقد اشتهر عنه أنه كان مداحا لرسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، ومـــن قصائده تلكم التى تعرف بـــ (المرجانية) وهى التى يقـــول فى أولهـــا (46) :

أزكى صلاة وتسليم على قمر   بدربه قد أنـــار الله أكوانـــه

وفيها يقول مادحا الرسول الكريم :

محمد خير مبعوث أقام على   ما يدعيه من امر الله برهانه
وخير من قد نفت عنه أمانته   وصدقه الكذب والكتمان والخانه
وخير طاع لمن لم يعص طاعته   وخير خاش لمن يخشاه خشيانه
وخير من محض المولى عبادته   وخير من دان دين الله ديانه
وخير من رحم المولى العباد به   وخير من عرف المولى عرفانه
وخير داع سقى من لم يجبه الى   هداه علقم اصغـــار وذفانـــه

---

(45) البيـــان المغـــرب ج 3 ص 452 .
(46) انظرها فى « الوسيط فى تراجم أدباء شنجيط » لاحمد بن الامـــين الشنجيطى ص 194 (ط . مصر 1329 — 1911) .

وخير من أمن الاسلام بيضته　　أمنا به صولة العادى وسلطانه

كذلك أود أن ألفت النظر الى أن بعض الشعراء تفننوا فى قصائدهم إلى حد يوحى بشىء من التكلف على حد ما فعل أحمد ابن العياشى سكيرج فى قصيدته المسماة « السحر الحلال فى مدح سيد الرجال » (47) ، فقد جعلها على أعاريض بحور الشعر وأضربه ، ملتزما فى كل ضرب ثلاثة أبيات . من هذه القصيدة نقتطف الابيات الثلاثة الاولى ، وهى على بحر الطويل فى عروضه المقبوضة وضربه السالم (48) ، يقول فيها :

بمدح جناب المصطفى يدفع الشر　　وترقى به العليا ويمحى به الوزر

فهل هو الا للقلوب دواؤها　　تزاح به الادوا وينجبر الكسر

فلازم اذا شئت السعادة ذكره　　وصل عليه فالصلاة لها سر

خامسا : الموشحات :

والموشحات فن ارتبط منذ نشأته فى الاندلس بالموضوعات الغنائية ، ولكنه لم يلبث أن خضع لمختلف أغراض القول بما فى ذلك المدائح النبوية ، وقد برز غير قليل من الشعراء المغاربة فى إبداع مولديات توشيحية ، نذكر منهم : محمد بن زاكور ، وابن ادريس العمراوى ، وحمدون بن الحاج ، وابن الطيب العلمى ، وعبد الكريم بن زاكور ، وادريس بن على السنانى . وأكتفى فى التمثيل لهذا النوع بموشحة لهذا الاخير يقول فى قفلها الاول (49):

---

(47) مطبوعة على الحجر .

(48) فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

(49) انظر ديوان « الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح » ص 213 (مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 1378 ك) وكتابنا « موشحات مغربية » ص 200 (ط . دار النشر المغربية ـــ الدار البيضاء) .

أومض البرق الحجازى سحرا بين سلـــع والكثيب الاحمــر
حرك الشوق بقلبـــى فجـــرى أحمر الدمـــع بخـــد أصفـــر

وفى بعض أدوارها يقول مادحا النبى الكريم :

أحمد المحمود أسمى منتقـــى معدن الانوار والفضل العميم
من علا الرسل جميعا وارتقى وله التقديم فى الصلح القديم
نـــوره أول شـــىء خلقـــا قبل خلق اللوح والعرش العظيم
وبـــه كـــل نبـــى بشـــرا انه الهـــادى الرسول المضرى
ليلـــة الاثنـــين فيهـــا ظهـــرا من ربيع ذى المزايا الانـــور

وأود بالمناسبة أن ألفت الانتباه الى أن هذا الشاعر (50) الذى وضع بلغة معربة ديوان شعر هو « الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح » بالاضافة الى بعض الانتاج الآخر ، كان من كبار أشياخ الملحون ، وقصائده فيه كثيرة ومتنوعة ، ولعلى بهذا أن أقول كلمة عن هذا الشعر .

سادسا : الملحـــون :

شغل المديح النبوى فى هذا الشعر حيزا كبيرا . ذلكم أن الشاعر الشعبى جعل من هذا المديح فنا قائم الكيـــان ناضـــج الصورة مكتمل الخصائص ، تناول فيه سيرة الرسول عليه السلام، بما فيها من صفات وشمائل ومعجزات عرض قصصها فى قصائد لخلوق (أى المولد) والمعراج والوفاة ، وكذلك فى قصائد التوسل والحنين إلى البقاع المقدســـة .

---

(50) توفى سنة 1319 هـ انظر كتابنـــا « القصيـــدة » ص 656 (ط . الربـــاط 1971) .

ويتميز فى هذا الفن عند أشياخ الملحون نوعان من القصائد :

الاول : قصائد للانشاد على الطريقة المعروفة ، وهى محدودة الطول .

الثانى : مطولات ، وهى لا تنشد ، وانما تسرد فى الزوايا وحتى فى البيوت بمناسبة المولد ، وتوجد أحباس مخصصة لسردها. وهى قصائد طويلة تحكى سيرة الرسول بتفصيل ، وأصحابها من كبار الاشياخ أمثال عبد العزيز المغراوى ومحمد النجار ومحمد ابن على .

على أن أسماء مادحى النبى من الاشياخ أكثر من أن تحصى ، لا سيما وأن موضوع المديح شغل هؤلاء الشعراء منذ اتخذ الملحون كيانه فى أوائل القرن التاسع الهجرى حتى اليوم . ومن الذين اشتهروا فيه عبد الله بن احساين ، وابن الوليد الدرعى ، وقدور العلمى ، وعبد القادر بوخريص ، والشاوى ، وعلى شقور ، وادريس العلمى ، والغالى الدمناتى ، وأحمد الغرابلى ، والعيساوى الفلوس . ومن أبرز قصائد هؤلاء « عين الرحمة » لادريس العلمى ، وحربتها (أى لازمتها) :

يا لهادى عين الرحمة الحال ضاق غثنا يا محمد طيب لخلوق

ومن أروعها كذلك قصيدة « مولد النور » للغالى الدمناتى ، وحربتها :

ابديت باسم المولى نعم الغنى الستار
باسمو نستفتح يا صاح فى اشعارى

من هذه القصيدة نقتطف مقطعا قصيرا يستعرض فيه

الدمناتي بعض المعجزات التي ظهرت مباشرة اثر ولادته عليه السلام ، كاهتزاز ايوان كسرى وانهدام شرفاته الاربع عشرة وخمود نار فارس التي كانت موقدة مدة ألف عام :

حين اتزاد الرسول طه بحر العلم
ظهرت من غير شك للناس اعلايم
منها كسرى اهتز ايوانو واغتم
من بعد املاكتو ابقى حاير هايم
واشرارفو من ابنيه عادوا ليه اردم
ربعا عشر كيف قالوا اكمن عالم
بها كسرى ابقى اضميرو متفاكم
أنار فارس خمدت يوما اخلاق لحليم
بعد كانت موقودا ألف عام بتمام

وأود أن أسجل أن قصائد الملحون النبوية تتبعت على هذا النسق مختلف مراحل سيرة الرسول عليه السلام في محاولة لاستقصاء جوانب حياته ، مما جعلها تؤدي دورا تثقيفيا على مستوى الجماهير العريضة ، وتقوم بوظيفة التوعية والتوجيه والتعبئة في المجتمع .

* * *

لو حاولنا أن نطرح بعض مميزات هذا الشعر الذي قاله المغاربة بوحي من المولد النبوي لبرزت لنا ثلاث خصائص :

الاولى : ان هذا الشعر يختلف قوة وضعفا ، وجودة ورداءة حين يصدر عن أدباء مبدعين ، أو حين يصدر عن فقهاء

ناظمين ، ولكنه أبدا نابض بالحياة وبالصدق وبغزارة العاطفـــة الدينية وحرارتها . وهو بذلك قادر على أن يثير نفس الاحاسيس عند متلقيه . والسبب فى ذلك راجع إلى مدى حب الرسول ومدى التعلق به ، وإلى انصهار النفوس فى بوتقة الاسلام باعتبـــاره عقيدة تشربها وجدان الفرد والشعب ، وباعتباره فكـــرا بلـــور الشخصية الوطنية والقومية ، ثم باعتباره سلوكا كيف القيـــم الخلقية فى هـــذا البلـــد .

الثـــانيـــة : ان الشعراء كانوا يربطون بين مديح الرسول وبين الواقع ، اذ يستلهمون من حياته صلى الله عليه وسلم مـــا يبعث فى نفوسهم القوة والثقة لمواجهة القضايا وتوجيه الاحداث والتغلب على المشاكل والازمات . وغالبا ما يلجأون فى ذلك الـــى التوسل ، على حد ما نقرأ للطاهر الايفرانى فى مولدية أنشأهـــا سنة 1335 هـ ، والحماية ما زالت تحاول بسط نفوذها فى الجنوب، فقد قال من جملة أبيات يخاطب فيها النبى الكريم (51) :

وحـــط بنصـــرك جيـــش المـــومنيـــن ودا
فـــع عـــن حمى الديـــن حزب أهل الحـــاد
وجـــد بحرمتك العظمـــى وجـــاهـــد عنـــ
ـــد اللـــه يـــا سيـــدى بفضـــل انجـــاد
ودمـــر الكـــافـــريـــن المعتـــديـــن بـــاذ
ن اللـــه تـــدميـــر اخـــوانهـــم عـــاد

الثـــالثـــة : ان الشعراء غالبا ما يختمون قصائدهم بمدح

(51) انظرها فى « المعسول » ج 7 ص 185 .

ملك البلاد لتهنئته بمولد النبى ، فى الحاح على أنه حفيده وعلى سنته ، وانه مستمر فى آداء رسالته ، وانه حامى بلاد الاسلام وقاهــر أعــداء الديــن .

ولعل الشعراء بهذه الظاهرة كانوا يحاولون ربط الماضــى بالحاضر ، واستحضار التاريخ وحياة الرسول وأمجاد الاسلام للنظر من خلالها الى الواقع والى سيرة الحاكم ، فى رصد لاعماله ومنجزاته والاشادة ببطولته ومواقفه ، وفى توجيه نظره للقضايا والمشاكل ومتطلبات المستقبل ، وفى تذكير بالامانــة وتحميــل للمســؤوليــة .

فى هذه الظاهرة أشير الى مولديات الفشتالى كهاته (52) التى يقول فى أولهــا :

هــم سلبــونــى الصبــر والصبر من شأنى
وهــم حرمــوا مــن لــذة الغمض أجفانــى

فانه بعد أن يشفى عاطفته فى الثناء على الرسول يتخلص الى مدح المنصور بهذا البيت :

اذا صــد عــن زوارك البــأس والعنــا
فجــود ابنــك المنصــور أحمــد أغنــانى

وعلى هذا المنوال سار معاصرو الفشتالى كعبد الواحد بن الشريف الحسنى ، وعلى الشياظمى ، ومحمد الفشتالى ، ومحمد الهوزالى ، والحسن المسفيوى وغيرهم من شعراء المنصور .

---

(52) انظرها فى الاستقصا ج 5 ص 158 (ط . الدار البيضاء) .

كذلك نمثل لهذه الظاهرة بموشح (53) لابن زاكور يمزج فيه بين مديح الرسول ومدح المولى اسماعيل ، ننقل منه هذا الـــدور :

حـــق الهنا والسرور	مـــدى الدهور	بمولـــد المختـــار
المصطفى بدر البدور	شافى الصدور	بالنـــور والاسرار
وبابنـــه بحر البحور	در النحــــور	معفـــر الاشـــرار
من قدحكىيومالكفاح	بين الرمـــاح	ليثالشرىفى الغيل
عين الرشاد والصلاح	قطب الفـــلاح	مـــولاى اسماعيل

وكابن زاكور فعل ابن ادريس حين مـــزج بين الاشادة بالمولد النبوى ومدح المولى سليمان والمولى عبد الرحمن . وكذلك فعل أكنسوس الذى أشاد فى مولدياته بهذا السلطان . وهنـــا نلفت الانتباه الى ديوان « اليمن الوافر الوفى فى امتداح الجناب اليوسفى » (54) ، فقد جمع فيه المرحوم عبد الرحمن بن زيدان قصائد المولد التى قيلت فى عهـــد المولى يوسف ، وشعراؤهـــا كثيرون ، فى طليعتهم محمد بوجندار ، ومحمد غريط ، وأحمد النميشى ، وعبد الله القباج ، والعبـــاس الشرفى ، ومحمـــد السليمانى ، وأحمد سكيرج ، وأحمد بن المواز ، ومحمد الجزولى ، وابـــن زيـــدان نفســـه .

وقد تبلورت هذه الظاهرة فى المولديات التى أبدعها الشعراء فى عهـــد المغفـــور له محمـــد الخامس وجلالة الحسن الثـــانـــى

(53) انظره فى ديوانه « الروض الاريض فى بديـــع التوشيـــح ومنتقـــى القريض » ص 112 (مخطوط خزانة الرباط العامة رقم 357 ك) .
(54) مطبوع بمطبعة المكينة المخزنية ــ فاس 1342 .

وأخص منهم بالذكـــر محمـــد الحلـــوى ، والمدنى الحمراوى ، وعبد الرحمن الدكالى ، وعلال الفاسى ، وعبد الكريم التواتى ، وادريس الجاى ، ومحمد العلوى . ويكفينا للتمثيل أن نطرح نمـــوذجيـــن :

الاول : للشاعر الاستاذ عبد الرحمن الدكالى فى مولدية(55) قالهـــا فى أعقاب نكسة خامس يونيو 1967 ، ومطلعها :

قف ناج خير الرسل والاسياد   واهتف بنور الدهر والآبـــاد

وبعد أن مدح الرسول صلوات الله عليه نعرض للقضيـــة الفلسطينيـــة والنكســـة حيث قـــال :

أعداؤنا لن يستغلـــوا خلفنـــا   فاخاؤنـــا أرسى من الاوتـــاد
عهد التضامن والوفاء نصونه   حتـــى نورثـــه الى الاحفـــاد
قولوا لصهيـــون اللعينـــة اننا   سنكـــون بعد غد على ميعـــاد

ثم انتقل الى مدح جلالة الملك فى الحاح على قضية الوحدة ودعوته اليهـــا :

الله أكبر يـــا سليـــل محمـــد   يـــا بن الرسول وخيرة القواد
الله أكبر كم دعوت لوحـــدة   وأخـــوة وتعـــاضـــــد ووداد
حاولت جمع صفوفهم لمقاصد   أسمى من الالقاب والافـــراد
حب لذات اللـــه منك تحبهـــم   والحب خير مقـــاصد الاسياد

الثـــانـــى : للشاعر المرحوم علال الفاسى فى مولديته (56)

---

(55) انظرها فى مجلة (دعوة الحق) العدد 8 السنة 10 يونيو 1967 .
(56) انظرها فى ديوان « الحسنيات » جمع الاستاذ عبد الحق المرينى نشر وزارة الدولة المكلفة بالاعلام (1975) .

التـــى أولهـــا :

بهجة القلب وروض الانــس   ومنـــار الهـــدى للمقتبـــس

فانه بعد أن فرغ فيها من مدح الرسول الكريـــم توجـــه بالخطاب الى جلالة الحسن فى أبيات لم ينس أن يطرح فيهـــا قضية الصحراء ، نقتطف منها قوله رحمه الله :

يا مليك الشعب يا بن المصطفى   جـــدد الـــديـــن بفـــرنـــدس
أنـــت آمـــال بـــلادى كلهـــا   فخـــذ الامـــر بحـــزم كيس
قد ورثت المجـــد عن خير أب   فضلـــه عـــم جميع الانـــس
منقـــذ الشعب وحامى أرضه   من أذى الغـــاصب والمختلس
وطنـــى مـــزقـــه أعـــداؤه   كيف لا ننقـــذه مـــن محبس
ان الاستقـــلال لا يكـــلأه   غير تحرير الاراضـــى الحبس
أيهـــا العـــاهـــل انـــا أمـــة   نفتـــدى العرش ببذل الانفس
خض بنا ما تتبغى مـــن معرك   تلق منـــا أسدا مـــن خيـــس

بوادر التجديد
عند شعراء المغرب العربي

---

* نشر فى مجلة (المناهل) العدد السابع السنة الثالثة ذو القعدة 1396
— نوفمبــر 1976 .

لعل أحدا لا يحتاج الى كبير عناء لكى يدرك ان الباحثين الذين كتبوا دراسات نقدية أو تاريخية للشعر العربى وقفوا عند معالم معينة تناقلوها باعتبارها تمثل ملامح هذا الشعر التجديدية . فقد أجمع هؤلاء — أو كادوا — على أن الشعر العربى بروحه واطاره وجميع تقاليده لم يعرف تطورا ملحوظا منذ العصر الجاهلى الى عصر بنى العباس ، على الرغم من التأثيرات التى مست مضامينه فى عهد الدعوة الاسلامية وما تلاه من عهود شهدت صراعات سياسية متعددة .

وفى العصر العباسى ، ومع التطور الثقافى والحضارى الذى عرفه العرب ، نبغ شعراء ، فى طليعتهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ، جددوا فى المضمون فتوسلوا فى التعبير بصور مستوحاة من ثقافة العصر وحضارته ، وحاولوا أن يطوروا الشكل قليلا فنظموا فى المسمطات والمخمسات ، كما نظموا فى أوزان تعتبر جديدة وبرزت محاولة بعض هؤلاء فى رفض الوقوف على الاطلال واستبداله بذكر الخمر .

ثم لم يلبث الشعر أن عرف منعطفا أرفد حركته نقدا وابداعا حين ظهر البحترى وأبو تمام مختلفين حول عموده ، وقامت حولهما خصومة عنيفة أخذ فيها على أبى تمام مخالفته

لهذا العمود ، فقد كان يولد الافكار ويأتى بنوافر الاضداد وبالاقيسة المنطقية يحولها الى أقيسة فنية ، ويسرف فى تطبيق البديع ويشعب معانيه ويعمقها تأثرا بثقافته الفلسفية الواسعة، ويخرج بذلك صورا غير مألوفة .

وفى الاندلس ، يوم كان المجتمع الاسلامى يكيف نفسه مع معطيات الارض الجديدة ، ثار الشعراء على تقاليد القصيدة العربية واخترعوا الموشحات والازجال .

ويشير الدارسون بعد ذلك الى شعراء كالمتنبى والمعرى ، ثم يقولون ان فترة من الانحطاط طويلة مرت بالامة العربية منذ أواخر العصر العباسى لم تخرج منها الا فى عهد النهضة الحديثة .

وفى هذا العهد برز شعراء البعث ــ بدءا من البارودى فشوقى وحافظ ــ حاولوا احياء الشعر القديم ، واتجهوا به ــ وخاصة شوقى وحافظ ــ للتعبير عن الرأى العام ، وهو الاتجاه الذى دفع شعراء الديوان والمهجر أن يدعوا الى أن يكون الشعر تعبيرا عن النفس . وذهب المهجريون الشماليون الى أبعد من ذلك ، حيث وجدوا أن مثل هذا التعبير لا يمكن أن يتم الا بطرح كل القيود بما فى ذلك قيد اللغة . وفى ذلك خالفهم الجنوبيون الذين كانوا متمسكين بالقديم ، وحتى حين أرادوا أن يجددوا نظروا فى الموشحات .

وتعرض الشعر بعد ذلك لحركة جديدة ترى ان الاطار التقليدى للقصيدة العربية غدا أضيق من أن يستوعب صور

الواقع الحقيقى لحياة العصر وما يتركه هذا الواقع من أثر كبير فى نفس الشاعر . وقد تبلورت هذه الحركة عند بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتى وصلاح عبد الصبور ، على أساس ان للشاعر كامل الحق فى تجديد شكل القصيدة . وبعد أن كان البيت هو الوحدة التى تبنى عليها القصيدة العربية أصبحت التفعيلة هى الاساس ، دون التقيد بتفاعيل معينة ، ودون الخضوع فى تنويعها لغير ما يمليه المضمون وتطورت كذلك رؤية الشاعر للحياة والواقع ، نتيجة وعيه بهما وتطوراتهما ، مما جعلهما ينعكسان على نفسه باعتبارهما مظهرا من مظاهر التغير الحضارى ، يتأثر بهما ويتخذ منهما الموقف الواعى الناضج .

وما زالت القصيدة العربية تعرف محاولات لاحداث تغييرات وايجاد شكل لها يستوعب التجربة العصرية ويلم بها كالدعوة الى الشعر التجريبى ودعوات الرفض المختلفة التى تجد صدى فى نفوس الشباب .

ولعله واضح من هذا الاستعراض السريع ان الدارسين لم يتعرضوا كثيرا أو قليلا ، بل لم يلتفتوا ــ ولو باشارات ــ لمساهمات شعراء المغرب العربى فى التطوير والتجديد خلال المسيرة الطويلة التى قطعها الشعر على امتداد العصور والاقاليم.

* * *

وقبل أن أتحدث عن بوادر التجديد فى شعرنا المغربى ، أود أن أبدى ملاحظة تتعلق بما سلفت الاشارة اليه من أن الامة العربية عرفت انحطاطا فى فكرها وأدبها منذ أواخر عصر العباسيين

الى عهد النهضة الحديثة .

ففى اعتقادى ان مثل هذا الحكم على قطعه ومبالغته وقابليته للنقاش ، لا يمكن أن ينسحب الا على بلدان المشرق ، أما المغرب الكبير فقد كان يعيش خلال معظم هذه الفترة ، وان فى شىء من التفاوت ، عصور تفتح وازدهار ، سواء على صعيد السياسة أو الثقافة ، حيث انتقل اليه مركز الثقل وغدا مؤهلا لاعطاء دولة العروبة والاسلام دما جديدا لم يفتر تدفقه الا حين بدأ يواجه المناوشات الاجنبية التى كانت تداهمه بعنف ، ثم لم يلبث أن توقف نهائيا فى فترة تعرضه للاستعمار .

ولعلنا لا نستطيع أن نسم بالانحطاط عصورا نبغ فيها أعلام كعياض وابن تومرت وابن خلدون وابن الخطيب وابن الازرق والفشتالى والمقرى وابن زاكور ، ومن اليهم من أعلام الفكر والادب فى أقطارنا المغربية .

ولقد بات من واجبنا أن نزيل الضباب الكثيف الذى خيم فى ساحة مغربنا الكبير ، وحال دون تلقى المشارقة لادبنا والاعتراف بوجوده الحقيقى ، أى فى الاطار المزدهر الذى أشرت اليه ، ثم بدوره ومساهمته فى عملية التجديد .

وأعنى التجديد فى مفهومه العادى البسيط المقابل للتقليد ، أى تجاوز السابقين بالابتعاد عن النسج على منوالهم ، والاتيان بما لا يطابق ولا يماثل ما أتوا به . وهو فى الشعر يمس الشكل أو المضمون ، وقد يمسهما جميعا ، انطلاقا من تصور معين لمفهوم الشعر وطبيعته ووظيفته ، وحسب طاقة الفعالية التى

تجعل منه عامل تغيير للماضى وانماء الحاضر ، وربما استيعاب أبعاد مستقبلية قادرة على الاضافة والتأثير وتحويل الانظار والآفاق .

فى اطار هذا المفهوم سوف أسوق بوادر متخيرة من مسيرة الشعر فى أقطارنا المغربية ، وممثلة فى نفس الوقت لمختلف أنماطه التعبيرية . وأقترحها كالآتى :

1– فن التوشيح عند شعراء المغرب العربى .

2 – الشعر الشعبى فى تونس والمغرب .

3 – احياء القديم عند الشعراء الصحراويين فى المغرب وموريطانيا .

4 – تجديد الشعر التونسى الحديث .

* * *

وأبدأ بالموشحات ، ولا أريد أن أشعب عنها الحديث ، فما كتبت عنها فى « موشحات مغربية » يغنى عن ذلك ، ولكنى أريد أن أنطلق من ظاهرة حقيقية ، وهى أن المشارقة لم يضيفوا شيئا الى هذا الفن ، بل على العكس من ذلك جمدوه بوقوفهم عند التقنينات التى حصرها ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » ، وكان كل همهم أن يظهروا قدرتهم على التقليد ، فجاءت موشحاتهم متكلفة بشهادة جميع الدارسين والنقاد ، وباعتراف ابن سناء الملك نفسه .

وقد كاد هذا الفن يموت بجموده عند هؤلاء ، لولا أن أحياه وشاحو المغرب الكبير ، ويذكر من بينهم :

ـ ابن غرلة الذى كان معاصرا لعبد المومن الموحدى ، وهو وشاح وزجال ممتاز اشتهر بالتزنيم أى تعمد الاعراب فى الزجل وتعمد اللحن فى الموشح .

ـ عبد العزيز الفشتالى كاتب المنصور السعدى وشاعره . وبالاضافة الى توشيحاته ألف كتاب « مدد الجيش » كالذيل على « جيش التوشيح » لابن الخطيب الذى أهمل ذكر المغاربة . وقد أورد فيه حسبما فى « النفح » أزيد من ثلاثمائة موشح .

ـ محمد بن زاكور (ت 1120 هـ) صاحب ديوان « الروض الاريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض » .

ـ محمد بن عفيف التلمسانى المعروف بالشاب الظـريف (ت 1389 م ـ ق 8 هـ) ، أورد المقرى بعض موشحاته فى «النفح»

ـ محمد بن أبى جمعة التلاليسى طبيب وشاعر أبى حمو (ق 8 هـ) ، أورد له بعض موشحاته أبو زكريا يحيى بن خلدون فى « بغية الرواد » وكذلك المقرى فى (الازهار) .

ـ أبو عبد الله حمودة بن عبد العزيز (ت 1202 هـ) ، وهو شاعر مفلق كما فى « عنوان الاريب » للشيخ النيفر .

ـ أبو عبد الله محمد سيالة الصفاقسى (ت 1247 هـ) ، وهو كذلك مذكور مع بعض موشحاته فى « عنوان الاريب » .

تكفينى هنا هذه الاسماء فى التمثيل ، فلست بصدد الحصر والاستقصاء ، ولكن الذى أريد أن ألفت النظر اليه هو أن المغاربة فى احيائهم لهذا الفن تعاملوا معه بشىء غير قليل من الحرية ، فهم من حيث الهيكل لم يتقيدوا بما قننه ابن سناء الملك للموشحة

العادية ، وهو ستة أقفال وخمسة أبيات ، فجاءت موشحاتهم تتراوح بين قصر يصل الى ثلاثة أقفال وبيتين كما عند الحراق ، وطول يبلغ أربعة وأربعين قفلا وثلاثة وأربعين بيتا كما عند أبى العباس سيدى أحمد بن عمار صاحب « نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب » ، وهى رحلة قام بها للحجاز سنة 1136 هـ .

كذلك نجد بعض الوشاحين المغاربة وحدوا قافية الابيات ، وتفننوا فى تقفية الاغصان والاسماط توحيدا واختلافا . كما أنهم حاولوا التلاعب بالمطلع والخرجة وأجزائهما ، ولا سيما فى المعارضات كما عند الغسانى وابن زاكور ، بل ان بعض الموشحات جاءت فيها الخرجة أطول من بقية الاقفال كما عند هذا الاخير ، وبعضها جاءت بدون خرجة كما عند حمدون . أما عند آخرين ، كالسنانى ، فاننا نجد الموشحة تتخذ شكلا خاصا لا تراعى فيه مقاييس التوشيح المعروفة .

هذه وغيرها من الخصائص تثبت ان المغاربة تعاملوا بشىء من الحرية مع فن التوشيح ، فى محاولة لتجاوز مقاييسه المعروفة . ولا شك ان هذه بادرة للتجديد انطلقت من التوشيح ولكنها وقفت عند هذا الحد ولم تتعده الى ما ينتج نوعا جديدا من الشعر .

بعد هذا انتقل الى البادرة الثانية ، وهى متصلة بالشعر الشعبى وخاصة منه النوع المعروف بالملحون أو القصيدة الزجلية، وهو نوع يمتاز فى المغرب العربى بغنى مضامينه وتنوع أشكاله واطراد تجدده فضلا عن طبيعتهى[1] تجعله فى الاطار الشعبى

أقرب الى الشعر المعرب والى نفوس الشعراء المدرسيين ، بل ان غير قليل منهم كانوا يبدعون فيه .

وقبل الحديث عن تجديد شعراء الملحون أشير الى قضية وهى أنى لا أفرق فى الادب والتراث عامة بين جانبه الشعبى والجانب المدرسى ، بل لا أرى امكان دراسة تراثنا دراسة صحيحة الا من خلال هذين الجانبين .

فى تونس نجد أن هذا الشعر يتمثل فى أربعة أنواع نكتشف عن مدى تطوره وتجدده ، وهى :

1 ــ القسيم

2 ــ الموقف

3 ــ المسدس

4 ــ الملزومة .

وهى أنواع يختلف بعضها عن بعض من حيث تشكيل الادوار أو الوحدات البيتية وعدد الاشطار أو الاغصان داخل البيت ، واتحاد القافية أو اختلافها داخل هذه الوحدات . وقد تحدث عن كل نوع وما له من أوزان متعددة صديقى الاستاذ محمد المرزوقى فى كتابه عن « الادب الشعبى » .

أما بالنسبة للملحون المغربى ــ وقد تكفل بتناول مختلف جوانبه كتاب « القصيدة » ــ فنميز كذلك أربعة أنواع تطور اليها ، وكان من قبل يسير على نظام القصيدة العربية التقليدية ، وهى :

1 ـ المبيت وتتكون فيه الوحدة من البيت ، ولكن البيت قد يكون من شطرين ومن ثلاثة ومن أربعة ومن خمسة (المثنى ـ الثلاثى ـ الرباعى أو المربوع ـ الخماسى أو خامس لشطار) ، فضلا عن أن الاشطار قد لا تتساوى فى عدد التفاعيل داخل البيت الواحد .

2 ـ مكسور الجناح وتتكون القصيدة فيه من وحدات ، وكل وحدة تتركب من :

* شطر منفرد يتيم يجىء كالطائر الذى كسر أحد جناحيه، ومن هنا جاءت التسمية .
* مجموعة من الاشطار الحرة (لطيلعات أو لكراسا) .
* بيت موزون مقفى يمهد للازمة .
* اللازمة وتكون على نفس الوزن والقافية .

3 ـ المشتب وتتكون القصيدة فيه من وحدات ، والوحدة تتكون من بيت يفصل فيه بين أول أشطاره وبقيتها بمجموعة من الاشطار الحرة القصيرة ، فكأن داخل البيت محشو بهذه الاشطار ، ومن هنا جاءت التسمية اذ الشتب هو الحشو .

4 ـ السوسى : وتتكون فيه الوحدة البيتية من :

* بيت من شطرين
* مجموعة من الاشطار الحرة المرسلة .
* بيتين أو ثلاثة بوزن وقافية .
* لازمة على نفس الوزن والقافية .

ولم يقف تطور الشعر الشعبى عند هذا الحد من التنويع

فى تشكيل ايقاعه ووزنه ، بل تعداه الى أبعد من ذلك حيث نجد شاعرا يدعو فى منتصف القرن العاشر الهجرى الى الثورة على قيود الوزن والقافية والاطار كذلك . هذا الشاعر هو ادريس المرينى ، وهو من مدينة مراكش . ولا أخفى أنى أعجبت به وهو يدافع عن فكرته بعفوية وتلقائية وبقوة وصدق ، ولعله كان موفقا ومقنعا أكثر من الذين جاءوا بعده بأربعة قرون يدعون الى الشعر الحر ويدافعون عنه . وعلى الرغم من أنى لم أكن أريد أن أثقل هذا العرض المحدود بالشواهد ، فانى أرى ضرورة تقديم هذين المقطعين مع ما يقتضيان من شرح . يقول الشاعر :

1 – أنا ابغيت ننظم والحرف أبدا ايغور :

أريد أن أنظم ولكن القافية تخوننى

اعلاه ما يكون الشعر ابلا حرف ؟ :

لم لا يكون الشعر بدون قافية ؟

غير حس او قول الكلمات :

يكفى أن تحس وتقول الكلمات

ولودن تسمع ما قلت : والاذن تسمع ما قلت

ولقلوب اتغنى بغناك : والقلوب تتغنى بغنائك

تابعا تلديد المعنى : متجاوبة مع لذة المعنى

او لاعنات ابشى قافيات : دون أن تعنى بالقافية

2 – لاش نحبس فكرى فالحرف ؟ :

لماذا احبس فكرى فى القافية ؟

ونحبس عقلى فالتبييت ؟ : واحبس عقلى فى الوزن ؟

ولفكار اتماثل لطيور : والافكار كالطيور

ما ارضات اقفــز من لبيات : لا تــرضى بقفص الابيــات
جايب اسلوكو من لحــروف : وهو قفص تمثل القوافى أسـلاكه
والركايز مــن لقيــاصــات : والبحــور ركائــزه وأعمدتــه

ثم تأتى البادرة الثالثة من شعراء الصحراء متمثلة فى حركة احياء للشعر القديم ، سابقة على حركة البعث فى مصر . وقد برز فيها شعراء كثيرون عرفهم الجنوب المغربى والقطر الموريطانـــى خلال القرن الماضى وبداية هذا القرن ، أمثال لجيدرى بن حبيب الله ومحمد بن الطالب وعبد الله محمد الاديب والبشير بن عبد الله الشمشاوى وعبد القادر بن عبد الله سالم وابراهيــم البــوارى والبشير الغلاوى وأحمد اليعقوبى وغيرهم كثير .

وقد تميزت مدرسة البعث الصحراوية هذه بأن شعراءها وجدوا فى الشعر الجاهلى والاموى ما يوافق طبيعتهم فانطلقوا يبدعون شعرا نحس فيه مجالا نفسيا يتلاءم والمجال المتســع عندهم فى الزمــان والمكــان .

وهنا لا بد أن أشير الى أن مدرسة الاحياء المصرية حين حاولت بعث الشعر القديم كانت عاجزة عن تذوقه ونقده ، ومن ثم قنعت بقراءة بعض نماذجه والانفعال بها والتأثر بما فيها مــن أنغام وأوزان ، أى أنها استوحت الجو الموسيقى للشعر القديم دون أن نعيش جوه المعنوى ، وهذا ما مكن لغنائية الشعر عند هذه المدرسة وجعلها لا تتخذ القديم نموذجا ولكن مصدر ايحاء . ولو أنها فعلت ، أى لو أنها اتخذته مثالا على حد ما فعل شعراؤنا الصحراويون ــ وان بالتقليد ــ لكان عطاؤها أكثر ، ولكن يبدو ان

طبيعة الشعر القديم ، ولا سيما من حيث اللغة ، كانت تطرح صعوبات على شعراء البعث المصريين ، ولهذا رأيناهم يهملون الشعر الجاهلى والاموى ويتجهون للعباسى وللسهل منه . وهى ظاهرة لا نلاحظها عند شعرائنا الصحراويين الذين كانت ثقافتهم اللغوية والادبية لا تطرح عليهم مثل تلك الصعوبات .

وأصل فى النهاية الى البادرة الرابعة المتعلقة بالتجديد عند الشعراء الذين عرفتهم تونس فى أوائل هذا القرن بنزعتهم الرومانسية ، يدعون الى الثورة على الأدب القديم والتركيز على الوجدان وضرورة التعبير عن النفس وشعور الفرد ، ومن وراء تلك النفس وهذا الشعور ضمير الشعب التواق للحياة الحرة الكريمة ، أمثال عبد الرزاق كرباكة شاعر النفس والوجدان ، ومحمد بو شربية وكانت تطغى عليه روح الكآبة والتشاؤم ، ومصطفى خريف الذى اعتبره الشابى شاعر تونس الاول .

وقبل هؤلاء جميعا عرفت تونس شعراء ثاروا على التقليد وحاولوا التجديد فى المضمون مع المحافظة على الاسلوب ، أمثال صالح السويسى وحسين الجزيرى ومحمد الشاذلى خزانة دار وسعيد أبو بكر ، ومن اليهم من الشعراء الملتزمين الذين كانوا من السباقين بوطنياتهم الى ايقاظ الشعب وبث الحماس فيه . وأظننى فى غنى عن الوقوف عند الشابى الذى لم يكن مجرد شاعر مبدع كما يتبين من شعره ، بل يكشف كتابه عن « الخيال الشعرى عند العرب » انه كان بالاضافة الى ابداعه مفكرا ثائرا ومنظرا للمستقبل .

وليس هذا فحسب ، بل ان الدارس للشعر التونسى الحديث لا يلبث أن يلاحظ ظهور بوادر الشعر الميال الى التحرر من القيود العروضية فى سنوات الثلاثين ، على يد شعراء كالشابى ومحمد العريبى والبشروش ومصطفى خريف ومحمد صمادح والعروسى المطوى وآخرين .

ولا يخفى ان القصائد الاولى التى عرفها المشرق فى الشعر الحر ظهرت فى العراق سنة 1947 ، فعندنا قصيدة « الكوليرا » لنازك الملائكة المنشورة فى مجلة (العروبة) بيروت ، وكذلك قصيدة السياب « هل كان حبا » الواردة فى ديوانه (أزهار ذابلة). ولعل فى هذا ما يشجع على طرح سبق شعراء تونس الى ابداع الشعر الحر .

* * *

اذن يتبين لنا من البوادر التى مثلت لها ان شعراءنا كانوا ميالين أبدا الى التطوير والتجديد . ولكن لماذا لم تثمر هذه البوادر وغيرها من المحاولات ؟ ولم لم تكن لها تأثيرات ؟ ولم لم تكن لها أصداء وأبعاد ؟ أى لماذا بقيت مجرد بوادر ؟ وحتى فى هذا الاطار على الاقل لماذا لم يعترف بها عند المؤرخين والدارسين والنقاد ؟

مثل هذه التساؤلات تطرح لا شك قضية جذرية ليس فقط بالنسبة للموضوع الذى نحن بصدده ، بل بالنسبة لكل مسيرة الفكر العربى وموقع المغرب الكبير فى هذه المسيرة .

والجواب كامن خلف عوامل كثيرة ، بعضها نابع منا والبعض

الآخر من غيرنا ، وسأكتفى بذكر أهمها :

1 ـ ضياع جانب كبير من تراثنا الشعرى والنقدى والفكرى عامة ، وأخشى أن نظل دائما مختبئين خلف هذا السبب .

2 ـ عدم وجود شعراء ممتازين يبدعون فى الجديد بجودة ، أو قلتهم فى أحسن الاحوال . فالبادرة لكى تصبح اتجاها ومذهبا لا بد أن تتبلور على يد شاعر ممتاز يبرزها قوية ، ولا بد لهـا كذلك أن تلقى اقبالا من الشعراء حتى تصبح واقعا وحقيقة .

3 ـ وجود هوة فاصلة كبيرة تحول دون التحام وتكامل التراثين المدرسى والشعبى ، حتى عند الذين يبدعون فى النوعين معا ، أمثال المدغرى والسنانى .

4 ـ عدم التقاء الشعراء لتدارس مشاكل وصعوبات التعبير، أى التعبير عن الاحساس الفنى ، وهى صعوبات يعانى منها كل المبدعين . ولعله لا يخفى أن أساس المذاهب الادبية الاوربية هو السؤال : كيف يكون التعبير ؟ فالكلاسية تتكىء فى التعبير عما فى الاحساس على موضوع قديم أو شىء خارجى له طاقات يمكن أن تستخدم ، والواقعية تعتمد تصوير ما حدث كما حدث بالفعل حتى يتأثر به الغير على حد ما تأثر به المعبر ، أى نقل المؤثر ، والرمزية تترك الاديب نفسه والمؤثر فيه وتبحث عن أى شىء آخر للتعبير عن الاحساس ، وقد يكون هذا الشىء لونا أو اشارة أو أى رمـــز آخـــر .

حقا انه كان عندنا فى التاريخ ـ وما زال ـ شعراء يتتلمذون على غيرهم كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة أوس ، وحقا كذلك

انه كان عندنا فى التاريخ ــ وما زال ــ شعــراء يجتمعــون فى مجالس ذوى الرياسة والنفوذ للمدح ، وحقا بعد هذا انه كان عندنا شعراء يجتمعون فى ناد أو شبهه للمطارحة والمساجلــة على غرار نادى أبى جندار ، ولكن لم تكن عندنا ــ حتى علــى الصعيد العربى ــ جمعيات وأندية أدبية يلتقى فيها الشعــراء والنقاد بانتظام ليتدارسوا مشاكل الشعر وقضاياه، وليتولد عندهم احساس جماعى بمذهب فنى معين . ولعلنا لا نجد ذلك الا فى المرحلة الحديثة عند جماعة الديوان فى مصر حيث كان العقــاد وشكرى والمازنى ينقدون شعر شوقى وحافظ ويفكرون فى وسائل التعبير ، وكذلك جماعة الشعراء الذين التفــوا فى تونس حــول الشابى وحول مجلة (العالم الادبى) فى مستهل سنوات الثلاثين.

5 ــ عدم وجود نقد يبرز مميزات هذا الشعر ويكشف عن نماذجه الجيدة ويفلسف اتجاهه .

وأود أن أقف قليلا عند قضية [illegible] ولا سيما عند حركته التى ازدهرت فى المغرب العربى ابتداء من القرن الخامس الهجرى فعبد الكريم النهشلى صاحب « الممتع فى علم الشعر وعمله » أثار قضية فى غاية الاهمية كان من الممكن أن توجه نقده نحــو ابراز ملامح الابداع الادبى فى المغرب العربى ، وهى اختلاف البيئات وتأثيره فى الشعر ، الا أنه مال الى المنهج الفنى فاختار التجويد والتحسين وسار مع خط النقاد المشارقة ، ناظرا الــى النماذج المتداولة عندهم . وربما كان محمد بن شرف أكثر النقاد اهتماما بشعراء الغرب الاسلامى فى رسالته « مسائل الانتقاد »

حيث نجده تناول ابن عبد ربه وابن دراج وابن هانىء وعلى التونسى ، وان غلب عليه النظر الى الاندلسيين . ومثل هذا نجده عند ابن دحية السبتى (ت 633 هـ) فى كتابه « المطرب فى أشعار أهل المغرب » ، فانه اهتم بالاندلسيين ولم يعر الا قليلا من الاهتمام للمغاربة ، وكان له من أولئك موقف دفاع اتضح بصفة خاصة أثناء حديثه عن يحيى الغزال الذى قال عنه بعد أو أورد بعض شعره : « وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس بن الاحنف ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وانما أوجب أن يكون ذكره منسيا ان كان أندلسيا » (ص 145) .

أما الحسن بن رشيق (ت 463 هـ) صاحب « العمدة » و « قراضة الذهب » فقد ألف « أنموذج الزمان فى شعراء القيروان » ، وهو مفقود لا نعرفه الا من خلال ما نقل عنه الآخرون ، وخاصة ياقوت فى « معجم البلدان » والعمرى فى « مسالك الابصار » ، وان بدا من عنوانه ومن خلال افتراضات الذين درسوا ابن رشيق انه كتاب فى التراجم والطبقات وليس فى النقد ، تناول فيه لا شك مجموعة من شعراء هذا الاقليم ، ولا سيما أولئك الذين اتصلوا بالمعز بن باديس الذى اشتهر بتشجيعه لرجال الادب والعلم .

بل اننا حين ننظر فى ناقد متأخر بعض الشىء كحازم القرطاجى (ت 684 هـ) عاش بين الاندلس وتونس والمغرب ، نجده مشدودا الى شعراء المشرق ، ولا يلتفت الى شعراء الغرب

الاسلامى الا فى بعض الشواهد ، على حد ما أورد فى كتـابه « منهاج البلغاء وسراج الادباء » لابن دراج وابن خفاجة ، على الرغم من أن هذا العصر عرف ازدهارا كبيرا للادب والشعـر خاصة ، سواء فى تونس أو المغرب . وليس هذا فحسب ، بل يبدو لى — وأنا أنظر الى قضية النقد وعلاقته مع التجديد الشعرى حتى بالنسبة للمرحلة المعاصرة — اننا نخطىء حين نريد شعرا متطورا جديدا دون أن نبحث له عن معايير نقدية متطورة جديدة وهذا يعنى ضرورة مواكبة تطور النقد لتطور الشعر ، انطلاقا من الجديد المكتسب فى المفاهيم والخبرات العلمية وتجارب الحيـاة ومعطياتها عامة وما يترتب على ذلك من تطور الذوق والنفس والـذهـن .

6 — موقف المشارقة دارسين ونقادا من انتاج المغاربة ، وهو موقف يمليه سببان رئيسيان :

أولهما : الجهل ، فهم لا يعرفون أو لا يريدون أن يعرفوا ما عند غيرهم ، وأظن أننا نتحمل فى ذلك قسطا من المسؤولية .

الثانى : روح التنقيص التى ينظرون بها دائما الى أعمـال المغاربة . ويتضح هذا جليا فى محاولتهم تقليل أهمية الموشحات وقيمتها باعتبارها حركة تطوير للشعر ، كما يتضح فى محاولتهم ربط تجديد شعرائنا بتجديد غيرهم ، على حد ما حدث بالنسبة للشابى . فقد أرجع النقاد تجديده الى المدرسة المهجرية ، وحاولوا رد كل صغيرة وكبيرة فى شعره اليها . وغير هؤلاء — وعلى رأسهم أبو شادى — يرجعون تجديده الى مدرسة أبولو ، لما

وجدوا فى شعره من نزعة ذاتية تهفو الى الحرية المطلقة وتنفر من روح التمذهب وتدعو الى المضمون الحر وجعل الفرد مركز الكون كل شىء نسبى بالقياس اليه ، ولما وجدوا فيه كذلك من لجوء الى التعبير الرمزى .

وقــد سبـــق لى أن درست الشابى ونظرت فى ذلك كله ، وعندى أنه لا شك كان يقرأ كثيرا لهؤلاء وأولئك ، ولكنه كـــان شاعرا عبقريا فذا يتأثر بنفسه ويسير مع خواطرها وأحاسيسها حتى يستنفذها ، لا يهتدى فى ذلك بغير فطرته السليمة وشاعريته المتقدة والحاجة الملحة الى استنزاف قلبه ووجدانه . ومهمــا بدت مضامين شعره متشابهة مع مضامين المهجريين مــن حيث طغيان النزعة الانسانية عليها ، فانى لا أشك فى أن الشابى كانت له دوافعه المباشرة الى مثل هذه النزعة . وقد تجات فى نظرتــه التقديسية للمرأة ، وهى نظرة تولدت عنده على اثر حبه لرفيقة طفولته التى ماتت بعد أن تركت صورتها فى قلبه وذهنه وخياله يتحدث عنها شعرا ونثرا . كما تجلت فى طابع الحزن والالــم والتشاؤم والحيرة ، وهو ناتج عن أزمته العاطفية وعن داء القلب الذى كان مصابا به ، ثم عن ظروف الوطن الذى كان يعانى من الاستعمار . أما هروبه للطبيعة والغاب وجو الضباب والثلــج فهو نتيجة لما سبق ، بالاضافة الى أنــه كــان واصفا لطبيعــة بلاده الجميلــة .

لقد كان شعر الشابى صورة لنفسه فى اطار أمته ومجموع الانسانية ، وكان أسلوبه فى التعبير محددا بطاقة شعرية خلاقة

تمتاز بكثير من الرشاقة والاناقة والاشراق والجمال . وهو بهذا صاحب مدرسة متميزة فى الشعر العربى أساسها أدب انسانى جديد يصل الى أعماق الحياة ويشعر بآلامها ، ويدعو الى الكفاح ومحاربة الطغيان ، ويهفو الى المعانى المشرقة المتوهجة ، نحس فى نغمته روحانية صوفية وشفافية قدسية وعاطفة نورانية وحرية مترفعة .

وقد أثر بذلك فى معاصريه ، وفى طليعتهم من التونسيين الطاهر الحداد الذى تغلب عليه اهتمامات اجتماعية ، أما فى المغرب فتأثر به عدد غير يسير ، منهم ابن ثابت وابن جلون والحلوى .

7 — موقفنا وعقدتنا تجاه المشارقة . فنحن قد أخذنا عنهم وتلمذنا عليهم ولا نزال ، ولكننا زدنا على ذلك فقلدناهم فى آرائهم ، حتى ما يتصل منها بأدبنا وفكرنا . والامثلة على ذلك كثيرة ، ربما كان أقربها مثال الشابى .

ثم اننا مأخوذون بتهافت المشارقة وتنافسهم على الزعامة، فمصر تسعى لها بحركة البعث والديوان ، والعراق بحركة الاحياء التى برز فيها شعراء كالزهاوى ثم بحركة الشعر الحر ، والشام تتبنى شعراء المهجر .

وهذا يجعلنا نكتفى بالتفرج والتصفيق والتبنى لهذا الاتجاه أو ذاك ، دون أن ندخل أنفسنا فى الحلبة . على أن هذا الموقف تجاه المشرق لا يقتصر فقط على الشعراء ، ولكنا نجده عند النقاد وحتى عند الرأى العام ، أى الجمهور المستعد ذهنيا ونفسيا

للتقبل والانفعال والتأثر . وتحق لنا هنا القولة المشهورة :

مغنية الحى لا تطرب أو زامر الحى لا يطرب .

* * *

هذه كلها قضايا جزئية تحتاج الى البحث والدراسة ، ولكن القصد عندى من طرح موضوع الشعر فى هذا الاطار المغربى التجديدى هو لفت النظر الى أمرين اثنين :

أولهما : ضرورة اعادة النظر فى الاحكام القاطعة المطلقة التى أصدرها المؤرخون والدارسون والنقاد فى السابق ، ولما تكتمل لهم المادة اللازمة لذلك .

الثانى : ضرورة الاعتماد فى هذه المراجعة على التراث الذى أنتجه الناطقون بالعربية فى مختلف الاقاليم ، سواء ما كان من هذا التراث متسما بالمدرسية أو الشعبية .

أقول هذا ولا أخفى أنى أومن بالاقليمية مرحلة لجمع شتات أدبنا فى مختلف أجزاء الوطن العربى ، وسبيلا لدراسة هذا الادب بهدف تكميل الرؤيا الوحدوية له واكسابه خصبا وغنى وتنوعا ، انطلاقا من خصائص فى المزاج وفى الخلفية الثقافية والتجربة المحلية لكل اقليم ، فضلا عن العوامل البيئية المؤثرة على اعتبار تأثير البيئة متمثلا فى المزاج والروح والطابع واللون ، الى جانب تأثير الذات فى اضفاء خصائص معينة على الشعر والادب والفكر عامة .

على ان الذى لا شك فيه أننا اذا تركنا المعطيات المادية والتاريخية للبيئة ، وهى معطيات قد تكون متفقة أو مختلفة

مع معطيات بيئة أخرى ، فان المفاهيم والقيم غالبا ما تكـــون متشابهة لامتياحها من نبع واحد . فشاعر المغرب وتـــونس لا يمكن أن يكون الا شاعرا عربيا ، وهو قد يدرك بذلك درجـــة الخلود على صعيد الانسانية اذا عرف كيف يتقمص شخصيـــة الانسان العربى ويتمثل وجدانه لطرح قضيته فى اطار قومـــى انسانى . وأشهد أن أى واحد من شعراء العربية المعاصريـــن ـ وربما حتى خلال التاريخ ـ لم يهتد الى النهوض بهذا الدور. فشعراؤنا سواء فى المشرق أو المغرب ـ ربمـــا بحكم ظـــروف كثيرة ـ يعيشون انعزالية تكبل تجاربهم وتربطهم الى واقـــع ضيق محدود . وحين يحاولون فى غير هـــذا المجـــال يحلقـــون بايحاءات وهمية فى سماء التجريد منفصلة عن كل الجذور . وقد كان من الممكن للشعراء العرب ، تحفزا من احدى القضايا العربية الكبيرة ـ ولتكن القضية الفلسطينية مثلا ـ أن يعمقوا التجربة ويكسبوها روحا قوميا وانسانيا ويبدعوا بذلك شعـــرا يتـــاح لـــه الخلـــود .

أعود بعد هذا الى بوادر التجديد عند شعرائنا ـ ولـــم أقصد من طرحها الا التمثيل لا الحصر ـ لاسجل أنها تدل على ان مسيرة الشعر فى أقطار المغرب كانت ـ كما لا تزال ـ ترفد وتغنى حركة الشعر العربى بمحاولات الشعراء وتجاربهم فـــى تطوير القصيدة واثرائها ، انطلاقا من مخزون لا يزيد مع الايام الا تضخما وتراكما ، وتأطرا بالحاضر ، وتكيفا مـــع تحولاتـــه السريعة أو البطيئة ، وتطلعا لآفاق المستقبل واستشرافا له . وهم بذلك كانوا يسعون ـ بوعى لا شك ـ الى تحقيق التوفيـــق

بين التراث والمعاصرة وحل معادلتهما ، والى الملاءمة بين الذات والزمن واحداث انسجام ما بين الوجود الداخلي والوجود الخارجي ، وهو المشكل المزمن الذى تدور فى فلكه قضية الشعر العربى المعاصر .

وحين أنظر الى القضية فى اطارها العام ، يبدو لى ان الموروث الشعرى الكبير المحمل بالتقاليد هو الذى حال دون احداث تغيير جذرى ومفاجىء على القصيدة ، سواء خلال التاريخ أو فى عصر النهضة ، وحتى المرحلة المعاصرة التى تفتحنا فيها على العالم الخارجى .

وليس معنى هذا اننا يجب أن نرفض التراث ، ولكن على العكس نحن مطالبون بالنظر فيه لنرصد ما يخم من بوادر التطور والتجدد وما يحمل من ملامح النمو والحياة ، ولنرصد كذلك ما تعرضت له هذه البوادر من تعثرات وأخطاء ، شأن كل جديد .

ثم ان التراث اذا كان فقد وظيفته ، أى فقد القدرة على التعبير عن حضارة عصرنا ، فانه لم يفقد قيمته الفنية من حيث هو ابداع انسانى جميل .

ويضاف الى هذا الموروث شىء آخر ، وهو طبيعة الذوق الذى لكتسبته الجماهير والذى لم يتكون بطريقة مفاجئة .

وفى هذه الحقيقة يكمن تفسير قلة المحاولات التجديدية وبطء مفعولها . على أن هذه المحاولات ــ مع قلتها وبطئها ــ تنم عن الاحساس بضرورة التطوير ، وهو احساس مختزن

فى باطن الاجيال ، تظهر بعض بوادره فتثمر أو لا تثمر ، ثم لا تلبث أن تختفى لتعيد الظهور مرة أخرى أو مرات .

كذلك فاننا لا بد أن نلاحظ أن تطوير القصيدة من حيث مضامينها ، أى فى الخط الفكرى ، مرتبط بالتغيير الثقافى الشامل، وهو مشكل ما زال مطروحا على الثقافة العربية . وهذا ما جعل شعراءنا خلال التاريخ يلقون بمحاولاتهم التطويرية على الشكل أكثر مما يلقونها على المضمون ، لامكان تحقيقها انطلاقا من ذات الشاعر ، ولارتباط الايقاع الموسيقى بنفسه وما يتدفق فيها تلقائيا – وبدون تدخل العقل – من عواطف وأحاسيس .

ومع ذلك لا ينبغى أن نبالغ ، فالشعر العربى محتفظ الى حد كبير بصورته التى عرفها منذ كان ، وباطاره الذى شكله فيه القدماء ، علما بأن شكل القصيدة لم يكن جامدا الى الحد الذى جمدت فيه موضوعاتها ونوعيتها أى من حيث هى غنائية .

ان شعراءنا يعانون لا شك من قلق واضطراب ناتجين عن احساس عميق بالحاجة الى التعبير عن التحولات الكبيرة التى يعيشها المجتمع ، وناتجين كذلك عن احساس عميق بعدم اسعاف الاداة التى يتوسلون بها فى هذا التعبير ، أو عدم مطاوعتها لهم فى كل المرات . ولعلهم بهذا يدركون العثرات والهنات التى قد تصدر عنهم متجلية فى مواقف متسمة بالمبالغة فى السخط والرفض.

على أن ما نطمح اليه هو أكبر من مجرد تغيير فى الايقاع واللغة والشكل عامة ، انه توسيع نطاق الوعى بالتجربة الوطنية والقومية والانسانية وفسح مجال آفاق الحساسية لما يتعدى

مدارك الخيال العادى للفــرد .

ان شعرنا الآن يعيش فترة مخــاض ، ولكــن الشعــراء مطالبون بأن يعوا القضايا المختلفة التى تولدت عــن النهضــة الشاملة فى بلادنا ، وأن يتجاوبوا معها ، ويمارسوا التعبير عنها ليعكسوها . وبدون ذلك سيكون شعرنا برغبته التطويرية صناعة عقلية أو عملا تجريديا لا صلة له بوجدان الشاعر ومجتمعه ، فضلا عن أن يفتح هذا الوجدان أو يعمقه ويكثفه .

الشعر المغربي

في مرحلة النهضة

(*) نشرت فى مجلة (المناهل) العدد الخامس السنة الثالثة ربيع الاول 1396 مارس 1976 · وهى فى الاصل محاضرة شارك الكاتب بها فى الموسم الثقافى الذى نظمته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة فى بداية هذا العام ·

موضوع هذه المحاضرة هو « الشعر المغربى فى مرحلة النهضة » ، واعترف منذ البدء أنه موضوع مهم وصعب ، فهو يكتسى أهميته من حيث ارتباطه بفترة مصيرية فى تاريخ المغرب المعاصر . أما الصعوبة فناتجة عن قلة المادة الشعرية التى بين أيدينا بسبب ظروف النشر ، وحتى حين توجد فهى مشتتة . ثم هى ناتجة عن غموض كثير من الظروف التى عرفتها هذه المرحلة والتى يكمن فيها تفسير الكثير من ظواهر الشعر وملامحه ، ولكنها ما زالت تاريخيا واجتماعيا لم تحلل لكى تعرف حقيقتها . والصعوبة بعد هذا ناتجة عن حساسية المعاصرة التى هى أبدا موجودة فى التاريخ وفى كل المجتمعات ، وان اتسمت عندنا لاسباب كثيرة ليس هذا مجال ذكرها بشىء غير قليل من الحدة والافراط .

وسوف أحاول أن أطرح فى هذه المحاضرة تخطيطا للشعر واتجاهاته فى مرحلة النهضة ، وأن أشير الى أبرز الملامح ، وأثير أهم القضايا التى يمكن طرحها فى الدراسة .

* * *

وبدون أن أدخل فى تفاصيل التاريخ أبادر الى القول بأن مرحلة النهضة الحقيقية بدأت منذ حوالى خمسين سنة تزيد أو تنقص قليلا . هذه المرحلة ظهرت فى أعقاب دخول الحماية وجاءت

كـرد فعـل لهـا :

1 ـ بدأ رد الفعل متمثلا فى القيادات الشعبية التى وجهت المقاومة المسلحة فى كثير من المناطق ... فى الشمال والجنوب والأطلس الكبير والمتوسط ، وأبرزها ثورة الريف .

2 ـ بمجرد أن توقفت المقاومة الشعبية المسلحة ـ أو كادت ـ ظهرت القيادة الفكرية فى الميدان ، وتجلت هذه القيادة فى الحركة السلفية التى لم تلبث أن تطورت فى خط يلحم بين العملين الثقافى والسياسى ، وكان حادث الظهير البربرى سنة 1930 بداية لهذا الالتحام وبالتالى بداية الحركة الوطنية .

ثم وجدت بعد ذلك أسباب كان لها تأثيرها المباشر فى خلق النهضة ، من أهمها :

1 ـ انتشار التعليم على الصعيد الحكومى والحر .

2 ـ ازدهـار الصحـافـة .

3 ـ الاتصال بالمشرق العربى بواسطة الصحف والمجلات والكتب ، والبعثات كذلك .

4 ـ الاتصال بأوربا ـ وفرنسا خاصة ـ عن طريق المدارس والبعثات ومختلف وسائل التثقيف .

5 ـ وجود وعى وطنى ورأى عام مغربى وقيادة شعبية تلتف حولها الجماهير .

مـاذا كـان حـال الشعـر ؟

لا بد أن نعرف أن الشعر فى الفترة التى سبقت الحماية

مباشرة كان قد ضعف ، اذ لا نصادف بعد ابن زاكور وابن الطيب العلمى وابن ادريس شعراء فى المستوى الممتاز .

ويبدو أن الزعامة الشعرية كانت قد انتقلت لطائفة جديدة من الشعراء ، مزجوا بين القول فى المعرب والملحون ، أمثـال التهامى المدغرى والحاج ادريس بن على المعروف بـ « لحنش ». وربما كان من مظاهر ذلك موقف الادباء من حرب تطوان ، وهو موقف لم نقرأ فيه الا لشعراء غير مجيدين ، لعل أهمهم المفضل أفيلال . ومن ثم فان الارضية الشعرية ، وأعنى تلك التى كان يقف عليها شعراء النهضة الاوائل (الاتجاه التقليدى كما سنرى بعد قليل) كانت أرضية هشة وضعيفة . ولهذا حاولوا الرجوع الى التراث العربى القديم عامة ، والعباسى والاندلسى خاصة .

* * *

وحين نتأمل أطوار الشعر فى هذه المرحلة نجدها متداخلة :

1 ــ استمرار للتيار القديم : اتجاه تقليدى ــ كلاسى . من أعلامه محمد غريط ، أحمد بن المامون البلغيثى ، محمد السليمانى ، المكى البيطاورى ، محمد بوجندار ، العباس الشرفى، محمد بن موسى ، أحمد سكيرج ، عبد الرحمن بن زيدان ، أحمد النميشى ، محمد الجزولى ، أبو بكر بنانى ، أحمد الزبدى ، عبد الله القباج ، محمد اليمنى الناصرى والطاهر الايفرانى .

2 ــ ظهور شعراء مجددين : اتجاه تقليدى جديد ــ كلاسية جديدة . وتميزت فيه فئتان :

أ ــ الذين اعتمدوا على التراث وعلى حركة البعث فـى

الشرق ، ومن بينهم محمد المختار السوسى ، محمد القرى ، علال الفاسى ، المكى الناصرى ، محمد بن ابراهيم ، عبد المالك البلغيثى، عبد الرحمن حجى ، الحسن الداودى ، محمد العثمانى والحسن البونعمانى .

ب ـ جيل تأثر بمدرسة الديوان فى اتجاه العقاد الواقعى الرومانسى وكذلك بمدرسة أبولو والمهجر . ومن شعرائه الحلوى، عبد القادر حسن ، عبد الكريم بن ثابت ، وعبد المجيد بنجلون .

3 ـ بعد الاستقلال : شعراء جدد (شباب) .

* * *

أما الاتجاه الاول ، وهو التقليدى ، فكان ينطلق من مفهوم معين للشعر ، وهو مفهوم يربط الشعر بثقافة العالم أو الفقيه ، باعتباره عنصرا مكملا لهذه الثقافة ، ووسيلة لاظهار القدرة التعبيرية ، وباعتبار دوره لا يتعدى الترويح عن النفس وتبادل العواطف مع الآخرين . ولعله يتضح لنا من قول أحمد البلغيثى فى هذه الابيات :

ما نظمت القريض أبغى به الفخـ	ـر ولا سائلا فضول نوال
شغلتنى عنه العلوم ولم أر	ض أسمى بشاعر سوال
انما قلت ما نظمت من الشعـ	ـر ولوعا ورغبة فى الكمال
ان أتانى للخوض فيه رجال	كنت تاجا على رؤوس الرجال
أو تشوقت للحبيب ترانى	مظهرا حبه بسحر حلال
ليس نظم القريض بالحبر عيبا	بل كمالا مكملا للمعالى
انما العيب أن ترى شاعرا خلـ	ـوا من الفضل والعلوم العوالى

وكان تبعا لهذا المفهوم أن جاءت الموضوعات متنوعة فى هذا الاتجاه ، وكانت تشمل :

1 ــ موضوعات ذاتية تعتمد الغزل ووصف الطبيعة .

2 ــ أخوانيات ومطارحات ومساجلات .

3 ــ شعر المناسبات من مدح ورثاء وهجاء .

4 ــ يضاف اليها المديح النبوى الذى كان موضوعا خصبا عند شعراء هذه الفترة .

وهذه كلها موضوعات لا أريد أن أمثل لها فى هذا المجال المحدود ، خاصة وأنها غير جديدة على الاتجاه ، ولكن الجديد ان بعض هؤلاء ممن تجاوبوا مع حركة النهوض كانوا يقولون فى موضوعات غير مألوفة كمحمد غريط الذى نظم نشيدا مدرسيا يقول فى لازمته :

يا بنى العصر أجيبوا	داعى النصح المنير
واستجدوا ذكر قطر	كان ذا صيت شهير

ومن هذا ما نجده عند أحمد سكيرج فى أكثر من قصيدة يحث على العلم كقوله :

ردوا من ينابيع العلوم مواردا	بها ينجلى الجهل الكثير المعاطب
فكل بلاء أصله الجهل فى الورى	وما الجهل الا مرتع للمعايب
عليكم باحراز العلوم وبثها	فتحت لواء العلم أعلى المناصب

ومثل ذلك نشيد محمد الجزولى المعروف بـ « نشيد الشباب » وكان قد نظمه فى وقت مبكر على اثر الحوادث التى عرفتها الرباط وسلا حين فرضت السلطة ضريبة « الكياب » ،

يقــول فى أولــه :

زمان المجد هل لك أن تعودا   وتنشر فوق مغربنــا بنــودا

و فىحرب الريف تذكر قصيدة السليمانى التى أولها :

دع الفنيات تمرح فى القصور   ويمم مسعفــا وادى النكــور

كما يذكر فى هذه الحرب نشيد أبى بكر بنانى الذى دعا فيه الى مساندة الثورة الريفية ، وفى أوله يقول :

يا بنى المغرب ما هذا الرقاد   ما لكم صرتم كأمثال الجمــاد

فدعوا النوم وقوموا للجهــاد   واسألوا الله انتصار المسلمين

* * *

وأما الاتجاه التقليدى الجديد ، فانطلق من مفهوم آخــر للشعر ، يجعله معبرا عن الذات والاحساس ، ومعبرا كذلك عن الشعور العام . وهو مفهوم يؤكده المختــار السوسى فى هــذه الابيــات حيث يقــول :

ما الشعر موزون بقافية لــه   معنى بأسماع الجليس سديــد

لكنما الشعر الذى ان جال فى   الاسماع يذهب بالفتى ويعود

ويــرن أثنــاء الضمير برنــة   نغماتها يحيــى بهــا الموءود

فيثير مكنــون الضمير كأنــه   وحى من اكناف السماء جديد

ويبث روحا فى الشعوب فتنثنى   عــاد الى عليائهــا وثمــود

هذا هو الشعر الذى أختــاره   ويــروق لــى وأوده وأريــد

كمــا يؤكده محمــد القرى فى قوله :

الشعــر وحــى صــادق   وعــن الحقائــق ناطــق

مــا قــالــه الا حكيــــ   ــم المعــى حـــاذق

والشعر كم تبدو به	للمصلحين حقائق
والشعر كم تحيا به	بين للشعوب خلائق
والشعر وحي سائل	متناسب متناسق
ما جاء جبريل به	بل جاء وهو السابق
والشعر يوحيه الخيا	ل الى العقول الرائق
مهما صفت نفس الحكي	م صفا الشعور السائق
ان الدواعي للكلا	م تجيء وهي شقائق

وقد سارت الموضوعات عند شعراء هذا الاتجاه فى خطين :

1 ـ الفئة الاولى : ظل الشعر عندها مرتبطا بالاغراض التقليدية ، وخاصة الموضوعات الذاتية والاخوانيات . وعند هذه الفئة ظهر تطور فى الشعر يتجه به نحو التعبير الوطني . وشعراؤها متأثرون فى الغالب بالتراث القديم ، كما انهم متأثرون بمدرسة البعث . ومع ذلك فان بعض شعراء هذه الفئة كانوا لا يحيدون عن الموضوعات الخاصة ، أمثال عبد الرحمن حجي والحسن الداودى . بل انا نجد من شعرائها من وقف شعره للتكسب كمحمد بن ابراهيم .

2 ـ الفئة الثانية : وهي التى لمحنا عندها التأثر بالاتجاهات الشعرية الجديدة (الديوان ، أبولو ، المهجر ، مع النظر فى التراث القديم عند البعض) فقد تعاملت مع مختلف الاغراض السالفة، وان غلبت عليها موضوعات الذات والتغني بالطبيعة والجمال .

وعند هؤلاء الشعراء جميعا تطور الشعر ليواكب التطور السياسى الذى عرفته الفترة . وكشف هذا التطور عن

ثلاث مراحل :

1 ــ حماية الوحدة المغربية والذود عنها على اثر حادث الظهير البربرى .

2 ــ المطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات ، وخاصة فيما يتصل بالمجالات الحيوية فى الامة وأهمها التعليم .

3 ــ الكفاح من أجل الحرية .

ماذا نجد من شعر فى الدعوة للوحدة الوطنية ؟ النصوص غير كثيرة ، وهذه بعض نماذجها :

1 ــ نشيد لعلال الفاسى أوله :

صوت ينادى المغربى　　من مازغ ليعرب
يحدو شباب المغرب　　للذود عن حوض الوطن

2 ــ نشيد آخر له يقول فى مطلعه :

كلنا من عربى　　خالص أو بربرى
قد تعلقنا بعرش علوى　　واعتصمنا بلوائه

3 ــ نشيد للمكى الناصرى يقول فيه :

فؤادى الى وطنى قد صبا　　تعشقته منذ طور الصبا
ودينى فى حبه رغبا　　فيا وطنى عنك لن أرغبا
ويا وطنى لا تخف أن أميل　　وأخلف وعدك انى أمين
كفيل بنيل مناك ضمين

4 ــ قصيدة لمحمد بن عبد الله العثمانى السوسى بعنوان « أين اللواء » أنشأها حين أزال رجال الاستعمار العلم

المغربى من الادارات المخزنية بسوس تمهيدا لفصل هذا الاقليم عـن الوطـن .

وفيهـا يقـول :

فسلام عليـه يـوم تـولـى	يوم غابت الرايـة الخضـراء
يـوم ضمت ممالكا وشعـوبا	وحـدة تحت ظلهـا واخـاء
وشذا طائـر الوئـام عليها	وجرى النصر حولها والدمـاء
ساءنا أن نرى ــ وان جم سوء	علم المسلمين فيـه أسـاءوا
أيهـا المسلمون هذا الذى لم	تـك الا لمثلـه الهيجـاء
لم لا تصبح البـلاد وفيهـا	ألويـات مـن الدما حمراء ؟

وفى اطـار الدعوة للوحدة الوطنية تظهـر الدعوة للتمسك باللغة العربية فى اشادة بها وتمجيد ، علـى حـد مـا تكشف هـذه الامثلـة :

1 ــ قصيدة للمختار السوسى مطلعها :

بأى خطـاب أم بأى عظـات أوجه وجه الشعب شطر لغاتى

2 ــ قصيدة « زفرة على اللغة » لمحمد القرى ، أولها :

رويدك قـد طبعت علـى أناة وظلم مـا تلاقـى مـن أداة

بالنسبة للشعر الذى يمثل الدعوة للتعليم وتوجيه الناشئة نكتفى بالاشارة الى هذه النصوص :

1 ــ قصيدة لمحمد المهدى الحجوى ، مطلعها :

الى متى نترك التعليم مهجورا ونحسب العلم فى الافرنج محصورا

ويستمر فى تساؤله فيقول مهيبا بمواطنيه :

إلى متى نستلذ النوم واحزنى ... وغيرنا يطلب الدستور والشورى
متى نفيق وعين الدهر شاخصة ... تقضى على كل من قد بات مغرورا
هبوا الى المجد يا أبناء من رغعوا ... للمجد صرحا بعلم كان منشورا
هبوا إلى المجد يا أبناء من حكموا ... أقصى البلاد بسيف كان منصورا

هبوا الى السعى ردوا مجد من سلفوا
وفى المفاخر كان السعى مشكورا
خذوا من العلم ما جلت مقاصده
أحيوا من العز ما قد صار مهجورا
واستهلوا الصعب لا يثنى عزائمكم
خطب فبالعزم يبقى المرء مذكورا

2 ـ قصيدة للمكى الناصرى بمناسبة اختتام الشيخ ابن الحسنى جامع البخارى ، أولها :

كم أنادى مستنهضا لبلادى ... وأرى الكل سابحا فى رقاد

وفيها يقول :

فالى من أوجه اللوم منكم ... وعلى من يكون أقوى اعتمادى
طالما جال فى دخيلة وهمى ... أن قومى قد أقلعوا عن فساد
فاذا هم ولم يزالوا وما ما ... لوا بوجه الى طريق الرشاد
آه لو كان فى التأوه نفع ... لبلاد شقاؤها فى ازدياد
لبلاد أبناؤها ألفوا النو ... م فناموا عن استماع المنادى
لبلاد أبناؤها فى شقاق ... وانشقاق يسوقهم للنفاد
ما لهم فى الحياة مغزى سوى ... أكل فشرب فمنكح فولاد

همهم فى مغازلات الغوانـــى وانتكـــاء على وثيـــر الوساد
هكذا هكذا بنى وطنى كنتم ولا زال سكركم فى اشتـــداد
ان أدوى دوائكـــم داء جهل بقضايـــا معاشكـــم والمعاد

كذلك تذكر فى الدعوة للتعليم قصيدة عبد الكريم سكيرج ، ومطلعهـــا :

ما بال قومى لم ينهض بهم عمل والناس كلهم بالعلم قد عملوا

وفى الدعوة لتعليم الفتاة نختار قصيدة لنفس الشاعر ، أولهـــا :

ما للفتاة تغيـــرت أحـــوالهـــا وتضاعفت مع ضعفها أهوالها

أما الكفاح الوطنى فالحقيقة انه تجلى فى أكثر من غـــرض شعرى ، أبسطها ما كان ينشىء الشعراء من قصائد فى التنويه بالبطولات والاشادة بالانتصارات ، على حد مـــا نقـــرأ لمحمد اليمنى الناصرى من قصيدة مولدية يقول فيها متحدثا عن بعض المواقع التى انتصر فيها ابن عبد الكريم على القوتين الفرنسية والاسبانيـــة :

انظر لما تلقى فرنسا منـــه اذ قصدت بشامخ مجده استخفافا
جاءت بمعظم جيشها وعتادها فاستنزفتـــه رجاله استنزافا
وأدال دولتها بفـــرط دهائـــه وتمـــزقت أحزابهـــا أطـــرافا
حتى أثار بمجلسيهـــا ثـــورة شعواء ترجو الهدنة استعطافا
واذا ليوطى قد تردى ساقطـــا متحمـــلا ممـــا جناه أكافـــا
وحليفه دى ريفيرا قـــد فـــر لا يلوى على شىء بـــه يتلافى
وتنافـــرت آراء دولتـــه بمـــا أضحت رؤوس مجنديه قطافا

سل عنهم باب المـروج وتازة وسلاس والبيبان والاجرافـا
وسل البرانس والتسول وجاية والسبت والكيفان والاكنافـا
تلك المواقع روعت أبطالهـم وجلت لنا عن روعهم أسجافا

وليس مـن شك فى أن شعـر المنـافى والسجـون كـان من أهم أغراض شعر الكفاح الوطنى ، وقد برز فيه شعراء فى طليعتهم المختار السوسى وعلال الفـاسى ، وخاصـة الشاعـر السوسى الذى ضمن كثيرا من هذه القصائد فى كتبه ولا سيمـا « الالغيات » . ولكن شعر المختار كان الى شعر الغربة أقرب منه الى شعر النضال ، وربما تفوق عليه فى هذا الباب شعر علال .

يقـول المختـار السوسى :

لا فطر يبهج لا ولا ميـلاد بان الصحاب فبانت الاعيـاد
عودت أعيادا يجئن ضواحكا فبأى وجه جئت يـا ميـلاد
قد كنت فى الحمراء لى عرسا وفى الـغ تعـود وأنت لى احداد
أرمى بطرفى ثم أرجعه وقـد بلت بمـاء مدامعى الابـراد
كل يضاحك من يود واننـى فى غربة تكوى بهـا الاكبـاد
والصدر من نكد أقاسى لفحه كادت تذيب ضلوعه الانكـاد

ويقـول عـلال الفـاسى :

حمامـة الـروض قـد هيجت أشجـانى
لمـا شـدوت بلحـن منـك أبكـانـى
هـل أنـت مثلـى فى وجـد وفى شجـن
نأيـت قبلـى عـن أهـل وجـيـران

نبت بك الدار حتى لا أنيس ولا
خل يواتيك فى سر واعلان
هل تسعفين بألحان مرجعة
من صوتك العذب ما قيست بميزان
أم تبخلين على هذا الغريب بها
من بعد ما هجت فيه كل وجدان
نعم لانك فى الدنيا محررة
تمشين من فنن عال لافنان
أما أنا فطريد الدار مبعدها
بالرغم منى أن أرمى بهجران
ثق يا بلادى أنى ما أزال على
ما كان عندى من عزم وايمان
أنا الوفى لشعبى والمدافع عن
قومى بكل يد عندى وعرفان
لا يحسب القوم أن النفى يرجعنى
عن مبدأ حل فى روحى وجسمانى

كذلك نمثل لهذا النوع من الشعر بقصيدة لشاعر آخر كثيرا ما كان يتعرض للسجن ، وهو عبد القادر حسن ، يقول فيها وقد غلب عليه التفاؤل بالنصر القريب :

خلوا سبيل الهوى ياخذ بأيدينا … فقد سئمنا من النطس المداوينا
ياليت شعرى وكف الدهر قد بطشت … أى المصائب لم تنزل بوادينا
سجن ونفى ولا رسل ولا كتب … كأنما قد وئدنا فى فيافينا
نأسى عليكم ولا نأسى بحادثة … مهما انتشى سكرة منها أعادينا

فقد رأيت صروف الدهر وهي تهى   فبيتنى فوقها الاحرار تحصينا
وان ألويــــة الحريـــة ارتفعت   فى جو أودية كانت كواديـــنا
خفاقة تبعث البشرى بمن خطبوا   يمينها وفنوا فيهـــا مغاليـــا
فلم يعد بيننا والنصر غير خطى   قليلـــة سوف نخطوها ميامينا
وسوف ننتزع استقلالنا فترى   منا شعوب الورى نبلا كماضينا
فقد نفاجئكم ان طارقين مسا   أو مبكرين ونادى النصر حادينا

ويعتبر شعر العرش من أهم الاغراض التى دار حونهـا هذا الموضوع ، فهو شعر وطنى بكل البعد الذى يعطيه الوصف ، وفى الاطار الذى كان مطروحا لمفهوم الوطنية ، وهذا مهم فى التحليل . ولكن لا شك ان هناك قضية تطرح نفسها على الدارس فى هذا الشعر ، لعلها تشكل الخيط الفاصل بين أن يكون شعر مناسبات يدخل فى اطار المدح التقليدى أو شعرا وطنيا كمـا نقول . هذه القضية هى عنصر الصدق ، ولكن هذا العنصر مطروح دائما على الباحث فى الادب العربى وفى جميع أغــراض هــذا الادب ، وليس من السهل عليه أن يبث فيه لارتباطه بأشياء لا بد أن تتوفر له ـ أى للباحث ـ حتى يستطيع ادراك مدى الصدق عند هذا الاديب أو ذاك ، بعضها يرتبط بالظروف العامة ، وبعضها يرتبط بظروف الاديب الخاصة ،بالاضافة الى تصور الناقد للصدق من حيث هو تعبير عن حالة تضغط على نفسية المبدع وتحثه على التعبير ، ومن حيث هو كذلك يطابق فى كثير من الوفاء والاخلاص بين هذا التعبير وبين التجربة الانفعالية التى يعانيها ، فيكون لتنفيسه عنها اراحة له واثارة للمتلقين ، فيتحقــق بذلك عنصر الانفعال وبعده عنصر الفعالية أو هما فى نفس الآن . والقضية

كبيرة ويكاد أمرها يختلف من منتج لآخر . ومع ذلك لست أدرى لماذا نطرحها باستمرار ؟ فنحن دائما نتعامل مع الاديب انطلاقا من الشك فيه . ولا أريد أن أدخل فى تفاصيل هذه القضية ، ولكن يبدو انها بدأت منذ قال القدماء بأن أعذب الشعر أكذبه .

ومن شعر عيد العرش قول عبد المالك البلغيثى فى قصيدة :

العيد جاء يقبل الاعتابا ... لينال من عليائك الالقابا
العيد عاد بليلة القدر التى ... نالت من الفضل العظيم نصابا
وافى يجرر فاخرا أذياله ... اذ نال ما بين الورى اعجابا
والشعب رتل آى عرشك بينه ... ودعا لنصرك ربه فأجابا
ان الزمان ليغبط الايام من ... أيام ملكك يرتجى لو آبا
من يستطيع بيان ما أهديته ... للشعب من أمل يفوق حسابا
نبغت بفضلك أمة العلم الذى ... جددت معهده وكان خرابا
فأزحت عنها ما يعرقل سيرها ... نحو الرقى فهاجمت أبوابا
ونسجت من كل الفنون مطارفا ... فكسوتها التثقيف والآدابا
فسل المدارس كم بها من طالب ... قد نال منذ حلولها الآرابا
وسل المكاتب كم يؤم رحابها ... أهل النجابة يملاون وطابا

ومنه كذلك قول محمد بن المهدى العلوى من قصيدة :

أيها العيد ألهم الشعب روحا ... واسكب النور من سنائه فينا
ولتكن مشعلا يشع فنمشى ... فى سناه الى الهدى سالكينا
ان مغزى يذكيه عيدك فى الشـ ... ـعب جدير بأن يسلى الحزينا
ان مغزاه عروة واعتصام ... وعهود ووحدة لن تبينا
ثم رمز الى شعور خلود ... خلفته الجنود كنزا ثمينا

ونضيف فى التمثيل لهذا الشعر الذى كان يصدر عن مختلف طبقات الادباء قصيدة لعبد الله ابراهيم نقتطف منها هذه الابيات:

قم حى ملكا جـــدد الآمـــالا   يبغـــى لامتـــه عـــلا وكمـــالا
يبنـــى لامتـــه حيـــاة حـــرة   ويجد كى تسمو بها وتنـــالا
يخطو بها للمجد خطو محنك   ويقودهـــا لتحطم الاغـــلالا
يتقحم الجلـــى بثغـــر باســـم   ويرى الحياة عقيدة ونضـــالا
يسعى لغايته النبيلة مقـــدما   ليخط للشعب النبيـــل مثـــالا
الغاية القصوى لديـــه قريبة   آلـــى ليلحقهـــا قريبـــا آلـــى
هى غاية للشعب يسعى نحوها   لا بد أن يحظى بهـــا وينـــالا
المغرب الاقصى حمـــاس كله   يبغى العلا ويريد الاستقـــلالا

وشعراء العرشيات كثيرون ، منهم محمد العثمانى ، عبد الرحمن الدكالى ، علال الفاسى ، عبد الله جنون ، محمد الحلوى، محمد بن على العلوى ، عبد القادر المقدم ، الحسن البونعمانى ، المدنى الحمراوى ، على الصقلى ، ادريس الجائى ، عبد الكريم التواتى ، ابن الكبير العلوى ، محمد العلمى المهدى الودغيرى .. وغيرهم كثير ومن مختلف الاتجاهات والاجيال ، لا سيما وان موضوع هذه القصائد مستمر فيه القول .

وقد أحرز بعض هؤلاء على جوائز فى المباراة التى كانت تنظم ــ ولا تزال ــ بالمناسبة . بل ان بعض الشعر الذى كان يلقى فى الجماهير ، سواء بهذه المناسبة أو غيرها من المناسبات الوطنية كان يترك صدى يتمثل فى أبيات تظل محفوظة فى الالسنة ومتداولة ، كهذا البيت الذى قاله عبد الرحمن الدكالى وهو مـــن

أبرز شعــراء العــرش .

ان لم نعش تحت السماء أعزة　　فدم العروبة فى العروق مزور

وما كان يقال فى عيد العرش كان شبيه به يقال فى مناسبات أخرى ، وحتى بعد الاستقلال ، وخاصة فى ذكرى المولد النبوى . ومن الشعراء الذين برزوا فيها علال الفاسى الذى نقتطف من احدى قصائده هذه الابيات متحدثا عن جلالة الملك :

لقد ذب عن حق البلاد وأهلها　　نضال مضح بالرغائب بـــاذل

وناصر دين الله فى كل وجهة　　وشاهده للنصر خيــر الوسائل

أعاد لنا استقلالنا بعد ما عدت　　عليه العوادى واغتدى طعم آكل

ووحدنا حتـــى غدونـــا وراءه　　صفوفا كما البنيان عند التفاعل

فخضنا غمار الذب فى كل وجهة　　وجئنا بنصر باهر الشكل شامل

والملاحظ انه حتى الشعراء الذين طغى على شعرهم طابع التكسب والارتزاق كانوا يتحركون من حين لآخر ، وفى طليعتهم محمد بن ابراهيم ، فقد كانت نفسه تهتز ليعبر عن رأى متحرر ، كقوله حين سجن عباس العقاد فى حكومة صدقى :

من كان ينوى فيك مصر بأنـــه　　ظلما بأرضك يسجـــن العقاد

واذا سطا صدقى على العقاد قد　　تسطو على أضدادها الاضداد

عباس لم يسجن فما سجن امرؤ　　له فى القلوب ممـــالك وبـــلاد

وكقوله فى هذه الابيات من قصيدة يهجو باشا فاس الذى كان يسجن الوطنيين ويضربهم :

يسوس بفاس من بنيه كرامهم　　يقلبهم بطنا ويجلدهم ظهــرا

أسجن وضرب مؤلم واهانـــة　　وزجر وتعذيب وما اقترفوا وزرا

فقل لكثيف الروح هاتيك ضربة ملايين قد أضحت بمغربنا عشرا

وربما أول هذا الموقف بتفسيرات قد تكون صحيحة ، ولكنا لا نريد الدخول فى تفاصيلها .

الى جانب هذه الموضوعات ، كان شعراء الاتجاه التقليدى الجديد يتغنون بالطبيعة والجمال ، على حد ما نقرأ لمحمد الحلوى وعبد المجيد بنجلون وعبد الكريم بن ثابت وعبد المالك البلغيثى وعلال بن الهاشمى الفيلالى .

ويكفينا فى هذا الباب أن نختار نموذجا من عبد الكريم بن ثابت صاحب « ديوان الحرية » وهو شاعر مغرق فى الرومانسية، حتى الحرية فهى تأخذ عنده أبعادا رومانسية ، وكل قصائده ذاتية باستثناء أربع ، هى :

1 ـ « ثورة » التى انتهى فيها الى أن الحق لا بد منتصر وأن الباطـل زاهـق .

2 ـ « قيد » التى غلب فيها الجانب الذاتى عليه مركزا على ضحك القيد منه وعليه ومتسائلا عن وجوده .

3 ـ 4 ـ قصيدتان فى الرثاء بآخر الديوان :

والنموذج الذى نختار من شعر ابـن ثابت ذى الطابـع الرومانسى المهجرى ، نأخذه من قصيدة « ليل وصباح » التـى يقول فى أول مقاطعها ، وكلها تنتهى بنفس البيت :

سهرت وكـان شعـاع القمر ينام ويحلم فـوق الغصـون
وبت أشاهـد ظـل الشجـر كأنى أشاهـد بعض الظنون
ونـام الانام وحـل السهـر لمن أتلفتـه سبيـل الفنـون

ومن بات يشكو الاسى والضجر ومن قاده الحب نحو الفتون
ومن ظل يطلب خيـر البشر ومـن ألبسوه رداء الجنـون
وناديت يا نفس هـل تعلمين لمـاذا وكيف أقضى السنيـن

ونختار من شعر الذات والحب عنـد عبد المجيد بنجلون قصيدة « عناياتى » ، وهذا أول مقاطعها :

وداعا سجـن أحـزانـى وداعـا ليـل أشجـانـى
وداعا وحدتـى الخرسا ءان الانـس نادانـى
ويـا صحبى من الاشبـا ح كنتـم مثـل خلانـى
اذا مـا الليـل بالاتـرا ح والاوهـام وافـانـى
وداعـا ... رغم تاريـخ عـريـق فـى الخيـالات

والشاعر بنجلون ــ كما يتضح من ديوانه « براعم » ــ مغرق فى الذاتية ، تطغى عليه موضوعات الحب والجمال والطبيعة، وهو ــ كما صرح بنفسه ــ لا يومن بالالتزام .

* * *

اذا تركنا هذه الطبقة من الشعراء الى طبقة الشعراء الجدد، وقد بدأت تظهر بوادرها فى سنـوات الخمسـين وفى أعقـاب الاستقلال ، مـاذا نجـد ؟

نبادر فى أول الامر فنسجل انه فى السنوات التى تمثـل المرحلة الاولى بعد الاستقلال أى قبل 1960 لوحظ توقف ــ فى الشعور ــ للمد النضالى الذى سبق فترة الاستقلال ، حيث كان الناس فى نشوة . وربما تناول الشعراء بعض المواقف النضالية السابقة فى اجترار كان يقصد به الى التلذذ بالذكريات ، ولكنهم

لم يغنوا هذه المواقف . وقد سبق لى أن تناولت هـذه المرحلـة فاعتبرتها مرحلة استهلاك عاطفى على صعيد الذات الفرديـة والجماعية ، وعند المنشىء والمتلقـى على حد سواء . ومن هنـا ظهرت انطلاقة الشعر الجديد متأثرة بكل التنـاقضات التـى كشفت عنها المرحلة . وقد عـرف المغـرب تطـورات سياسيـة واقتصادية واجتماعية وثقافية ، كشف من خلالها وأثناء حركيتها عن مضاعفات وتناقضات، كانت فى بعض الاحيان تصل الى العمق لتمس الجذور . وهذا كله كان عاملا أساسيا فى توجيه النظـر وتحويل الرؤيا على مستوى الفكر والادب ، وفى اطار علاقـة جدلية بين الفن والحياة .

ونمثل بشاعرين تجاوبا بصدق مع هذه المرحلة :

أما أحدهما فمصطفى العداوى ، وديوانه يكاد كله أن يكون فى شعر النضال من أجل الحرية والكرامة ، فى محاولة لتوسيـع آفاق الرؤيا ، ليعانق قضايا الانسان العربى والافريقى . ونحس بالشاعر صادق التجربة مكتملها وصادق المعايشة والمعاناة ، وان فى غير عمق . وهو ينسج على خيوط رومانسية مفعمة بالامـل والبسمة والتفاؤل . ثم ان صياغته سليمة وممتـازة فى بعض الاحيان . ونختار من شعره هذا المقطع من قصيـدة « أغنيـة النسر العربى » حيث يقـول :

يا أيها النسر الجموح
أنا لن أغادر معقلى حتى تهب بشارتك
وتمـد لى ريش الجنـاح النـاعم

أنا لــن أغادر معقلــى حتــى تعــود
ويعــود لى شــرف الحيــاة
بموطنى أرض الجــزائــر
وبأرض « يافــا » الطيبــة
وبكــل شبــر مغتصب

كما نختار من قصيدته « شعوب تطلب الحرية » هذا المقطع:

نحبك لحنا يذوب انفعالا على شفة الحاصد
نحبك فجرا وفير الضياء لاعيننا فى السنا الوافد
نحبك فجــرا وفيــر الضيــاء
نحبك أغنيــة للخلود تهيم على شفة العائد
لارض الجدود كريم الخطى يعانق وهج السنا الشارد
نحبك هلا فتحت ذراعيك للقارة الظامية
ولونت آفاقنا بالعبير وزخرفت جبهتنا القانية

وأما الشاعر الثانى فهو الحبيب الفرقانى صاحب « نجــوم فى يدى » ويكشف شعره عن الدعوة الى الالتزام والالتحام مع المجتمع ، فى اطار رومانسى ، منه يستقــى صــوره الشعريــة ويستوحيها ، وان حاول داخل هذا الاطار أن يتعــدى ذاتيتــه الفردية الى الذاتية الجماعية . وقيمة الديوان فى مضمونه . اذ نلاحظ عنده اخلالا واضحا بجانب الشكل .

ونختار من شعره فى تناول المشاكل الاجتماعية قصيدته عن « ماسح الاحذية » ، وفيها يقول هذا المقطع التصويرى :

ودجــا كسيــر القلــب   مجــروح الفتوة والابــاء

وحنـــا علـــى الاقـــدام   يمسحهـــا ضلـــوع الكبرياء
ويـــديـــن تـــرتعشـــان   للتلميع فى ظهـــر الحـــذاء
وأطـــل وجـــه الطفـــل   ينطـــق بالكآبـــة والشقاء
نفـــح الزبـــون رفيقـــه   قطعـــا وولـــى فى اعتـــلاء
مصفـــولـــة أقـــدامـــه   فى زهـــو خطـــو وانتشاء

ويصبح ماسح الاحذية ويمسى وقد ربط مصيره بصندوقته التى دفن فيها أمله والى الابد :

ودفنت فـــى أحضـــانهـــا   أمـــل الحيـــاة بلا رجـــوع
حملتهـــا بـــؤس السنيـــن   وعشتهـــا بئـــس الصنيـــع
أحنـــو علـــى الاقـــدام   أمسحها وتمسحنى الصدوع
صدرى يكـــاد مـــن الابـــا   يهـــوى وتنفجـــر الضلوع

ولا شك أن نظرة الفرقانى الى ماسح الاحذية باعتباره ظاهرة اجتماعية مزرية تختلف عن نظرة الحلوى الذى لا يملك أمام قدر هـــذا الطفـــل ومصيره الحتمـــى الا أن يرفـــع مـــن معنويـــاتـــه فيقـــول :

أيهـــا الراكع المكب على الاقـــ   ـــدام فى وقدة مـــن الرمضاء
أنت تحت الاقدام أسمى ونو كا   نوا جميعا من ساكنى الجوزاء

وبدأت مرحلة جديدة بعد 1960 ، هذه المرحلة لا بد أن ننظر اليها من خلال ما حدث من تطور فى مفهوم الشعـــر والرؤيـــا السياسية والفكرية ، وفى التجربة ومدى التفاعل معهـــا ، وفى المضامين والوسائل الفنية للاداء ، وما نتج عن ذلك كله من عناصر الجـــودة والجمـــال فى التعبير .

وكما سبق لى أن قلت فى غير هذا المجال فانه لا ينبغى أن ننسى اننا نعيش فترة يعانى فيها شبابنا من الاضطراب الفكرى والنفسى ما يجعلهم فى شعرهم يبدون وكأنهم يبحثون عن ذواتهم الضائعة ، فى خضم مجتمع لا يواجهون واقعه بغير الانطوائية والرفض ، وهى ظاهرة — على الرغم من التبريرات التى قد تطرح حولها — تدل على عدم القدرة على امتلاك الوجـود . لذا هـم يعتمدون على مواهبهم الذاتية ، ويحاولـون الاستفـادة مـن الاساليب الوافدة كاستغلال الرمز والاسطورة والفلسفة والطرق التعبيرية الجديدة . ولكن رؤاهم مشتتة وغير موحدة لانها وليدة التفاعل الشخصى مع الاحداث والتيارات الشعرية المتباينـة ، وليست وليدة تفاعل جماعى من شأنه أن يولد خطا فكريا ووجدانيا موحدا . والقيمة الفنية عندهم كامنة فى اتجاد الشعر الانسانـى الجديد (المدلول الانسانى فى اطار الرومانسية) . لكن اذا حكمنا هذا المقياس واكتفينا به فان ذلك يكون علـى حساب مقاييس أخرى نتنازل عنها تتصل بالشكل .

من هنا فان الشعر عند غير قليل من شبابنا ليس غير نظم مجانى لا طعم له ، وليست له سمة خاصة به تميزه ، وان حاول ابراز بعض الملامح السياسية والاجتماعية لبلادنا ، وهى ملامح مشتتةتعوزها الرؤيا الواضحة والمحددة، ربما لانمعظمهمينتصهم التكوين الفكرى الذى من شأنه أن يحدد الرؤيا أو يساعدهم على خلقها وعلى القدرة على التصوير ، وقبل ذلك القدرة على التجاوب مع القضايا الوطنية والقومية والانسانية فى فهم وتعمق ، اذ لا بد من أرضية أو خلفية ثقافية متينة تؤهل — بالاضافة الى مـا

سبق ـــ لطرح بعض القضايا المتصلة بالشكل والمضمون ، وهو شىء لم يتحقق بعد .

وعلينا أن نعترف بأن انتاج أغلب شعرائنا الشباب ما زال فى ارهاصاته الاولى للابداع ، وانهم ما زالوا فى مرحلة النشأة والعنفوان وعز الطموح . ولا شك أن كثيرا منهم يمثلون طاقات وقدرات فنية هائلة لولا ما يعوزها عند البعض من صدق المعاناة واتقـــان التعبيـــر .

والمتتبع لحركة الشعر المعاصر عند هذا الاتجاه ، لا يلبث أن يلاحظ وجود العديد من الشعراء . فهناك شعراء لهم دواوين نذكر منهم : ابراهيم السولامى ، عبد الكريم الطبال ، حســـن الطريبق ، محمد بن دفعة ، محمد الهوارى ، عنيبة الحمـــرى ، محمد بنيس ، مفدى أحمد ، ادريس الملياني ، صبرى أحمد ، محمـــد الميمـــونـــى ، أحمـــد بنميمـــون ، رشيـــد المومنـــى ، مصطفى الزباخ ، حسن الامرانى ، هناوى الشياظمى ، أبو بكر المرينى ، الحجام علال ، أحمد البقالى .. وغيرهم .

وهناك شعراء لم ينشروا دواوينهم بعد ، يذكر من بينهم : محمد الخمار ، المعداوى ، محمد السرغينى ، حسن الغرفى ، عبد العلى الودغيرى ، محمد بن طلحة ، المهدى الدليرو ، مالكة العاصمى محمد انبوعنانى ، عبد الله راجع ، بنسالم الدمناتى ، عبد السلام الزيتونى ، عبد اللطيف خالص ، محمد العلوى ... وآخرون كثيرون

* * *

لو حاولنا بعد هذا الاستعراض لمختلف الاتجاهات الشعرية

التى تشكل مرحلة النهضة أن ننظر فى قضية الشكل لالفينا هذه الانماط :

أولا : القصيدة ، وهى تخضع عند شعرائنا للاشكال التالية:

1 ــ القصيدة التقليدية العمودية ، وهى النوع الغالب

2 ــ الموشحات ، ونجدها عند بوجندار والبلغيثى وابن ثابت والحلوى وبنجلون والحمرى .

3 ــ شكل يصطنع الخروج على هيكل القصيدة التقليدية ، فى محاولة لتنويع القافية من مقطع لآخر ، وكذلك فى توزيع الابيات . على حد ما فعل ابن ثابت وبنجلون .

4 ــ الاناشيد ، وهى نوع منظم من الشكل الاخير يعتمد اللازمة بين المقاطع ، وقد نظم عليها أبو بكر بنانى وعلال الفاسى والناصرى .

5 ــ الشعر الحر ، ونلاحظه عند الشباب أكثر من غيره ، وهو يعتمد التفعيلة ويتحرر من القيود الاخرى . وتجدر الاشارة الى أن بعض شعراء الاتجاه التقليدى الجديد حاولوا أن ينظموا فى هذا الشعر ، ولكن جاءت محاولتهم متكلفة . والحديث عن الشعر الحر يجر الى اثارة ما يسمى بالشعر المنثور أو القصيدة النثرية على حد ما نجد عند محمد الصباغ ، ولكن لست أدرى اذا كان جائزا لنا أن نعتبر هذا النوع من الشعر .

ثانيا : وفى القالب الشعرى ، الى جانب القصيدة المحدودة البناء ، هناك :

1 ــ القالب القصصى وهو قليل ، كقصة علال عن كعب بن مالك وتخلفه مع بعض الصحابة عن غزوة تبوك ومقاطعة المسلمين لهم حتى نزلت توبتهم فى القرآن الكريم .

2 ــ القالب المسرحى ، ومن نماذجه :

أ ــ بقيت وحدى لابى بكر اللمتونى ، وتحكى ثورة الملك والشعب .

ب ــ مصرع الخلخالى لاحمد البقالى ، وهى تحكى قصة حاكم مستبد بأصيلا انتهى أمره بقتل السكان له .

ج ــ الشهيد لمحمد الطنجاوى ، وتتناول مصرع الفدائى الاول علال بنعبد الله .

د ــ وادى المخازن لحسن الطريبق .

ويؤخذ على معظم المسرحيات الشعرية جوانب نقص فنية لعل مردها الى هذه الاسباب :

أ ــ عدم تمرس هؤلاء الشعراء بالفنية المسرحية ، وربما كان البقالى والطريبق أجودهم فى معالجتها .

ب ــ طبيعة الاداة التى يستعمل معظمهم وهى الشعر العمودى ، لا سيما وأن بعضهم ــ وخاصة اللمتونى والطريبق ــ يحرصون على عدم الوقوع فيما يشينه أو يمس صياغته .

ج ــ طبيعة الاحداث وكونها وقائع جاهزة تحد من قدرة الشاعر على الخلق ولا سيما فى مجال الصراع .

ونود أن نقول بأن التكوين الادبى وما ينتج عنه من حس

فنى يؤثران على تشكيل الوتر الوجدانى الحساس والاداة الصادقة للتعبير عن تصور خاص للشعر ولواقع ظرفى معين وكذلك التعبير عن تمثل المستقبل والآفاق . وربما كان هذا هـو السبب فى أن شعراء مرحلة النهضة الاوائل لم يحاولوا تطوير شعرهم وتجديده على حد ما فعل شعراء المشرق المعاصرون . فقد كانوا بحكم تكوينهم ومحدودية أفقهم يجدون الاطار الشعرى التقليدى مناسبا . ولن نرى حدوث تحول فى الشعر الا بظهور طبقة أخرى من الشعراء — هم الشباب — مالوا بحكم نـوع ثقافتهـم ، وبحكم نـوع مطامحهم وتطلعاتهم ، وبحكم وجودهم الهامشى فى الغالب الى تطوير أداة التعبير .

ولا بد لنا أن نثير هنا مشكل الشكل والمضمون اللذين تكمن فى علاقتهما الجدلية القيمة الحقيقية للعمل الفنى . فالقضية ليست قضية الشكل كما فهمها كثير من شعرائنا الشباب ، ولا يكفـى الخروج على الشكل القديم ، بل هى قضية تعبير ، أى التعبير عن مضامين جديدة بأساليب نابعة ومنسجمة مع هذه المضامين .

* * *

وشعرنا خلال هذه المرحلة يتميز بخصائص ، منها الـروح الدينى الذى يتضح عند مختلف شعرائنا على اختلاف فى قوته وفتوره على هذا النحو :

1 — عند شعراء الاتجاه التقليدى كان طاغيا الى حد كبير وكان يمس الشكل والمضمون .

2 — عند شعراء الاتجاه التقليدى الجديد حدث تطور داخل

اطار هذا الروح ، وهو تطور من جانب المضمون وجانب الشكل كذلك ، حيث بدأنا نسمع « الاستعمار » بدل « الكفر » وبدأنا بالتالى نسمع كلمات جديدة كالوطن والحرية ، بل ان شخص الملك نفسه تطور فى الشعر الوطنى ولا سيما فى قصائد العرش ، فلم يعد ينظر اليه باعتباره حامى الدين وهادى الامة فقط ، بل غدا بالاضافة الى ذلك رمز الوطن وقائد الشعب والمحرر من الاستعمار .

3 ــ عند الشعراء الجدد ، ومع اختلاف اتجاهاتهم وتأثرهم بالافكار المتضاربة المطروحة فى السوق ، نجد بعض التأثر الدينى على نحو ما نلاحظ عند الطريبق الذى يبدو فى شعره يعانى صراعا بين اليأس والامل ، ولكن الامل فى النهاية يشده اليه اما بحافز من الحب أو الايمان . ومثل هذا نجده كذلك عند البقالى الذى يميل فى بعض قصائده الذاتية الى الايمان فى نزعة تصوفية رومانسية.

والواقع أنه يغلب على طابع الشعر عندنا النفس الرومانسى، وربما كان ذلك بسبب عوامل نفسية واجتماعية . وليس هذا عيبا، فان الشاعر من خلال ذاته ينظر الى العالم الخارجى ، والا فهو سلبى وخاصة اذا سيطر عليه الشك والتشاؤم والحيرة وانعدام الاختيار والثورة الداخلية ، وهى ثورة غير منتجة لا تنظر الى العالم الخارجى ولا تستهدف التغيير ، ولانها تنبع من داخل فردية النفس وتصب فيها .

كذلك فان الوعي الجديد الذى ظهر ابتداء من هذه المرحلة المبكرة (أو اخر سنوات العشرين وبدايات الثلاثين) وجه الشعر

للنظر فى قضايا الشعب وللارتباط بهذه القضايا . والحقيقة ان الشعر حتى فى اطاره السياسى — وكما رأينا — لم يكن ليغفل بعض الظواهر المرضية فى المجتمع مثل الجهل والفقر . فالشعر فى هذه المرحلة وعند طائفة شعراء الوطنية أو السياسة كان ملتحما مع الوجدان الجماعى .

وهو بهذه الخصائص حاول أن يتخلص من الاسراف فى المحسنات البديعية ومن الغلو فى التعقيدات اللغوية ، ومن كثير من القيود التى تعوق التعبير أو تجعله يتسم بالتصنع والتكلف ، مع اختلاف الشعراء بطبيعة الحال فى القدرة التعبيرية . فنحن حين نقيس مثلا شاعرا كالمختار السوسى وعلال الفاسى نجد متانة الاسلوب عند الاول ونوعا من التساهل فى التعبير عند الثانى .

ثم ان بعض شعرائنا الشباب يحاولون — ابتعادا عن الاسلوب التقريرى المباشر — أن يتوسلوا بالرمز والاسطورة ، وهم فى هذا متأثرون ببعض الشعراء العرب . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الشاعر الذى يستعين بالاسطورة — عن وعى وليس عن تقليد — يفعل ذلك فى اطار التوسل بها كما يتوسل بشخصيات من التاريخ وبالتراث العربى أو الانسانى . وهو حين يفعل يقصد الى تعميق التجربة واعطائها أبعادا تجعلها أقرب الى الخلود والشمول وأقرب الى أن تكتسى صبغة انسانية تخرج بها عن نطاق المحلية ، فضلا عن اطار الاحداث المباشرة والمحدودة .

ومن أبرز خصائص شعر النهضة بعد هذا : التأثر بالشرق :

1 — عند الاتجاه التقليدى الجديد كان التأثر أولا بالبعث

ثم الديوان وأبولو والمهجر .

2 ــ عند الاتجاه الجديد نجد التأثر :

أ ــ بشعراء الشرق الذين يكونون جيل ما بعـد الحرب الثانية ، وهو جيل قلق مضطرب تعرض لهزات سياسية وفكرية واجتماعيـة .

ب ــ بشعراء الوجدان الجماعى أو الواقعى أو الاشتراكى الذى ظهر بعد 1952 ، فى مقابل الوجدان الذاتى ، وفى ميل الى التحرر من وحدة البيت لجعل القصيدة كلها وحدة موسيقية متصلة مع اللجوء الى الاقصوصة الموضوعية والدراما القصيرة ليتخـذ منها موضوع للشعر .

ج ــ بشعراء الشعر الحر من حيث التكوين عامة .

وللتمثيل يكفى أن أطرح بعض النماذج :

1 ــ عند الاتجاه التقليدى الجديد :

أ ــ المختار السوسى فى قصيدته عن اللغة العربية :

باى خطـاب أم بأى عظـات   أوجه وجه الشعب شطر لغاتى

متأثر بقصيدة حافظ ابراهيم سواء فى الشكل أو المضمون ، وهى التـى أولهـا :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى   وناديت قومى فاحتسبت حياتى

ب ــ مثل هذا التأثر واضح كذلك فى قصيدة القرى « زفرة علـى اللغـة » :

رويـدك قد طبعت على أناة   وظلم مـا تلاقى مـن أذاة

2ـ عند الاتجاه الجديد : كثير . ويكفى منه أن أشير الى قصيدة المعداوى « من كلام الاموات » لالمح التأثر بالشعراء المعاصرين وخاصة البياتى الذى يعتبر الموت هو الجسر الذى يعبر به نحو الافضل والاكمل ، وفيها يقول :

يا أحبائى ، مضى عمر لم يمتد جسر بيننا
ما عادت الافراس تجمح أو تصول الريح
شد خنـاجر الفرسان فى أغمادها صـدأ
سأبقى ها هنا ظلا على سفح الجداريلمنى
جزر وينشرنى هدير الموج ، ما الانهار ؟
أنـا المنسى عنـد مقـالـع الاحجـار

واذن فتأثر الشعراء كان بالشرق ، أما التأثر بالغرب فلم يكن مباشرا وانما كان بالواسطة ، علما بأنه وجد شعراء رحلوا الى أوربا ولكنهم لم يستفيدوا فى تطوير شعرهم ، كعبد الرحمن حجى الذى أقام مدة بلندن ولكن هدفه كان التجارة . ولا نجد من آثار لهذه الاقامة فى شعره الا فى بعض القصائد التى تحدث فيها عن لندن وعن جوها وما تجشم فيها وتحمل . ومثله عبد المجيد بنجلون ، وكذلك امحمد الناصرى الذى رحل الى فرنسا لدراسة الحقوق دون أن يفيد من حركة الشعر هناك .

ومع ذلك ، واذا نحن تأملنا الشعر العربى عامة سواء فى المشرق أو المغرب ، فاننا لا شك منتهون الى أن مسيرة هـذا الشعر اتسمت على تعاقب العديد من العصور بغير قليل مـن البطء والرتابة ، لا سيما حين ننظر الى اطاره وصورته فى المرحلة

الحديثة ، فنجدهما غير متغيرين الا فى حدود لا تؤثر على ملامح الشعر الجوهرية ، من حيث نوعه وموضوعاته ومن حيث شكله كذلك . ولعل السبب فى ذلك ان الذين عادوا للتراث يحاولون بعث الشعر القديم لم يكونوا مؤهلين للنفاذ الى أعماق هذا الشعر ، فقد كانت تنقصهم لا شك المعرفة بتاريخه وتيارات نقده ، ومن ثم كانوا غير قادرين على غربلته وتذوقه وبقوا واقفين أمام واجهته الخارجية يطربون لاوزانه وايقاعاته وصوره ويتمثلونها ويستوحونها فى محاولة لتطويعها حتى تناسب العصر فى غير جهد ولا تعمق . بل انهم حتى فى هذا الاحياء للقديم ، ظلوا بعيدين عن الشعر الذى يحتاج الى شىء من المعاناة فى فهمه كشعر المعرى مثلا . كما ظلوا بعيدين عن التيارات الشعرية الاجنبية لم يستطيعوا هضمها ولا التفاعل معها . كل ذلك جعل حركة الشعر العربى الحديث لا تعدو أن تكون امتدادا للتيار القديم ، وجعل الشعراء يدورون فى حلقات فردية يعبرون عن ذواتهم . وحتى حين ظهر التعبير عن الشعور العام عند شعراء البعث فانه لم يكن صادقا وتلقائيا بقدر ما كان مجرد عملية مسايرة للاحداث والظروف . ولهذا لا نستغرب اذا وجدنا شعراء الديوان والمهجر يدعون الى الرومانسية والى أن يكون الشعر تعبيرا عن النفس ، فى حين كان هذا الاتجاه قد ولى فى أوربا وحلت مكانه الرمزية والواقعية . وعلى الرغم من أن بعض الشعراء العرب حاولوا تقليد هذا المذهب أو ذاك ، فان تأثرهم بالرومانسية كان أقوى من غيره . ولعل هذا راجع الى أن هذا المذهب غير غريب على طبيعة الشعر العربى المتسمة بالغنائية والتعبير عن ذات الشاعر .

ولعله راجع كذلك الى بعض العوامل النفسية والاجتماعية التى تكيف عواطف الشاعر وأحاسيسه وذهنيته ، كالشعور بالوحدة والضغط وظروف الاستعمار وما الى ذلك مما يحث على العزلة واليأس ، ويؤدى الى الشعور بالفردية والانصراف الى النفس للعزاء . وهى ظروف عانى منها العرب فى المشرق والمغرب على السواء .

* * *

ولا بأس ونحن بصدد انهاء هذه المحاضرة أن نشير الى الشعر الشعبى ، فلا يمكن الحديث عن الشعر المغربى دون الالتفات اليه وخاصة منه « الملحون » الغنى بأغراضه وأشكاله ، ولكن موضوعه يطول . ومع ذلك لا بد أن أسجل أن هذا الشعر كان أبدا يرفد مجالات القول سواء على صعيد الذات الفردية أو الجماعية ، واشتهر فيه « أشياخ » كبار على مر مرحلة النهضة من أمثال الحاج محمد بن عمر الملحونى ومحمد بلكبير وعثمان الزكى وبنعيسى الدراز واليعقوبى وعبد القادر الجرارى والحاج محمد العوفير . وقد استمر هذا الشعر فى المرحلة المعاصرة نابضا بالحياة عند « أشياخ » من الشباب ساروا به فى اتجاهين :

1 — أحدهما محافظ ، ومن خير من يمثله أحمد سهوم ومحمد بن بوستة .

2 — والثانى جديد ، ومن خير من يمثله الطيب لعلج وحسن المفتى .

كذلك لا بد أن أشير الى الشعر المغربى المكتوب بالفرنسية، ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل هذا الشعر باعتباره مقبولا أو مرفوضا فى مجال الادب المغربى ، حيث انه يتوسل بلغـة أجنبية ، فهذا مما سيحيد بى عن الموضوع ، ولكن يكفـى أن آذكر من الاسماء التى برزت فيه : كمال الزبدى ، عبد اللطيف اللعبى ، الطاهر بنجلون ، محمد الوكيرة ومصطفى النيسابورى، ومثلهم محمد أبو طالب الذى يتوسل باللغة الانجليزية . وتجدر الاشارة الى أن بعض هؤلاء تجاوبوا الى حد بعيد مع القضايا والمشكلات الوطنيـة .

* * *

وبعد ، فماذا عن هذا الشعر ؟ ومن خلاله ماذا عن أدبنا ؟

الواقع أنه على الرغم من الرؤيا التشاؤمية التى ينظر بها البعض ، فان لدينا أدبا ثابت الوجود ، وان لم يرق الى المستوى المنشود ، لانه ما زال يتكىء على أشكال ومضامين غير منبثقـة من تجربته وواقعه ، ولانه ما زال مقلدا وتابعا يكتفى بالتسجيل أو السير فى دروب الآخرين والنسج على منوالهم . ثم ان اتجاه الادباء غير واضح ، ولا متبلور ، ولا ثابت الاصول أو متعمق الجذور . ومن ثم فانهم يجدون أنفسهم فى أشياء ، ولكنهم فى مواطن أخرى يفلت منهم الزمام . فليس فى كل مرة يتوفر لهم الموضوع الحيوى الفعال ، ويتسنى لهم التجاوب التلقائى مـع أنفسهم والآخرين ، فى موقف ينم عن صدق التجربة والالتحام مع قضايا الذات والمجتمع ، بما يساعد على سبر الاغـوار

واكتشاف الجديد ، وهى عناصر لا بد منها فى تحديد قيمة الشعر والادب عامة .

وأقول هنا ما كررته غير ما مرة من أننا فى حاجة الى أدب يكون له تأثير قيادى فى الجماهير ويعرف كيف يخاطبها لتفهمه . فقد انتهى العهد الذى كان فيه الاديب يخاطب فئة معينة . ونريد لادبنا أن تكون له قيمة ذاتية يعترف بها الآخرون ، وأن يكون أصيلا تتوفر فيه سلامة التعبير والاخلاص الفنى وصدق الموقف . ثم نريده بعد هذا أن يكون طليعيا ومثقفا واعيا واسع الافق متجاوبا مع المجتمع ومشاكله وقضاياه ، وأن يكون قادرا على أن يستقبل كل التيارات الاجنبية الوافدة .

ان عندنا طاقات ابداعية تتجلى فى المضامين المختلفة ، وعندنا وسائل متعددة للتعبير ، كما أن عندنا تعددا فى الرؤى يزيد فى اغناء طاقات التعبير الفنى ، ولكن لا بد من رؤيا مجتمعية جماعية ، ولا بد كذلك من تجارب تكون واضحة الآفاق مميزة الملامح ، ثم لا بد من عناصر فنية أخرى تنتج عن هذه التجارب وتلك الرؤيا لكى يكون للادب دوره ، أى لكى يكون فى خدمة قضايا الانسان المغربى . وهذا يستدعى تجاوز النظر الفردى المحدود الى النظر الشامل المتكامل . واذا ما توفرت هذه المقومات استطاع الاديب أن يتجاوز نطاق التمرد الذاتى الى تفجير الطاقات على صعيد مواطنيه ، واستطاع بالتالى أن يخرج من مرحلة الشعارات والهتافات الى مرحلة التعبير الفنى الناضج والواعى والملتزم .

ان الالتحام الحق مع الجماهير لا يعنى فقط أن يتناول

الاديب بعض القضايا والمشكلات التى تعانى منها هذه الجماهير، ولا يعنى فقط ان يحاول تعرية بعض البنيات المزيفة أو المريضة فى محاولة للكشف عن بعض مواطن الداء والفساد ، ولكن يعنى كذلك أن يعانق المشاكل بصدق وعمق ، وأن يكون له رأى فيما يتحدث عنه نابع من الاحساس بهذه المشاكل ومن الانصهار مع المجتمع وادراك مطامحه وتطلعاته . وبهذا يكون الاديب حاضرا وعلى الدوام وبصورة فعلية ايجابية .

والحديث عن الابداع يحث دائما على التعرض للنقد من حيث دوره فى التوجيه والتصحيح ، ولكن النقد عندنا يتمثل فى محاولات هى أقرب اما الى التقاريظ أو الى الخصومات ، مما يجعله ليس نقدا بقدر ما هو رد فعل . فهو يواجه العمل الادبى من احدى هذه الزوايا :

1 ـ اما من خلال ذات الناقد ومدى العلاقة الشخصية التى له مع المنتج ، دون النظر الى الانتاج نفسه . وقد يصل هذا الموقف الى حد الاشادة والتنويه كما قد يصل الى حد الطعن والتحطيم ، بل انه يتجلى حين العجز عن مواجهة الانتاج فى اهماله والاعراض عن ذكره .

2 ـ واما من خلال مفاهيم أو مبادىء هيئة معينة ، وهنا يتدخل عنصر الانتماء السياسى فيوجه النقد سلبا وايجابا ، حيث يتم النظر الى الانتاج من خلال انتماء صاحبه ، ان كان هو نفس انتماء الناقد أو هو غيره ، فيتغير النظر تبعا لذلك .

3 ـ وحتى حين يوجد نقد ، فهو ـ بحكم عدم توفر

الشروط فى الناقد غالبا من ثقافة وحس نقدى وقدرة على التعبير ـ يبقى نقدا سطحيا لا يستطيع صاحبه أن يتعمق فيه .

4 ـ على انه لا ينبغى أن ننسى شيئا آخـر فى موضوع النقد ، وهو قلة الانتاج الابداعى وضعفه .

والحقيقة ان هذا موضوع كبير وهام ، يحتاج الى تناول مستقـل .

المسرح

عند العرب والمغاربة (*)

(*) نشر بمجلة (المناهل) العدد 13 السنة الخامسة

يجمع الدارسون ــ أو يكادون ــ على أن المسرح فــن أوربى ، وأن العرب لم يعرفوه الا فى عهد النهضة الحديثة ، بعد أن أتيح لهم أن يحتكوا بالغرب ويتأثروا بحضارته وثقافته .

ويعتبر هؤلاء الدارسون أن العرب اتصلــوا لاول مــرة بالمسرح فى أيام حملة نابليون على مصر ، ويعتمدون فى ذلك على ما روى الجبرتى أثناء تسجيله لاحداث هذه الفترة من أن بونابارت أنشأ بأزبكية القاهرة بناء عند المكان المعروف بباء الهواء ، أطلق عليه كما فى لغتهم « الكوميدى » ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة ، يتفرجون على ملاعيب يلعبهــا جماعة منهم قصد التسلى بمقدار أربع ساعات ، ولا يدخل أحد الا وبيده ورقة . كما يعتمدون على بعض الرسائل التى بعثهــا نابلون لكليبر نائبه فى القاهرة ، يخبره فيها بحرصــه علــى أن يرسل له فرقة « الكوميدى فرانسيز » لتسلية الجيوش الفرنسية فى مصر ، ولتغيير عوائد هذه البلاد واثارة عواطف السكان .

ويستمر أولئك الدارسون فيرون أن تاريخ المسرح العربى مرتبط بسنة 1848 ، وباسم مارون النقاش ، وهو أديب وتاجر من الشام كان كثير السفر الى أوربا بحكم أعماله التجارية ،

وكان أنشأ فى هذه السنة ــ اثر عودته من احدى رحلاته الى ايطاليا ــ فرقة تمثيلية فى بيروت ، وترجم بتصرف الى العربية الدارجة مسرحتى البخيل وطرطوف لموليير ، وقدم هذه الاخيرة بعنوان : الحسود . كما ألف مسرحيات أخرى ، متأثرا بمخزونه من التراث العربى ، ولا سيما فى مجال السير .

ولم يلبث هذا الحدث الادبى الفنى أن انتقل صداه الى مصر ، فأنشىء سنة 1868 مسرح الازبكية بالقاهرة ، ثم أسست فيها دار الاوبرا بعد ذلك بعام . ولم يكن هذا غريبا ، فقد كان اسماعيل ــ وهو الخديوى يومئذ ــ متطلعا الى الاخذ بأسباب الحياة الاوربية العصرية ، وشغوفا بتحقيق الكثير من المظاهر الحضارية والثقافية .

وفى نفس هذه الفترة ، وبالضبط فى عام 1865 أنشأ أبو خليل أحمد القبانى حركة التمثيل فى دمشق . وما أن حلت سنة 1870 حتى تكونت على يد يعقوب بن صنوع أول فرقة مصرية للتمثيل تلتها على مر السنين فرق كثيرة لعل أهمها فرقة جورج أبيض التى تأسست عام 1912، وكان قد أوفده الخديوى عباس الى فرنسا ليتعلم التمثيل .

ولم تكن مصر تقتصر فى نهضتها المسرحية على هذه الفرق المحلية ، ولكنها فتحت الباب لاستقبال الفرق الاوربية ، ولا سيما الايطالية والفرنسية والانجليزية ، وكذلك استقبال الفرق الشامية ، وأهمها الفرقة التى قادها سليم النقاش عام 1876 ، وهو ابن أخى مارون النقاش وتلميذه فى الفن ، والتى قدمت

فى القاهرة مسرحية أندروماك لراسين ، وكان قد ترجمها صديقه أديب اسحق الذى كان معه مسؤولا عن الفرقة .

وتعتبر هذه المسرحية من أهم ما قدم المسرح العربى من مترجمات كلاسية فى تلك المرحلة المبكرة ، ومثلها ايفيجينى لراسين ، والسيد لكورنى ، كما قدم مترجمات رومانسية فى طليعتها هاملت وعطيل وروميو وجولييت لشكسبير ، وهرنانى لفكتور هيجو .

وتجدر الاشارة الى اعتماد الفرق التمثيلية فى هذه الفترة على عنصر الغناء الذى تجلى خاصة فى الفرقة التى أسسها اسكندر فرح فى مصر سنة 1904 ، والتى كانت تضم من بين أعضائها البارزين الشيخ سلامة حجازى أحد أقطاب الطرب والغناء فى وقته .

أما بالنسبة للمغرب العربى فيؤرخ لاول حدث مسرحى سنة 1908 حين زارت فرقة سليمان القرداحى المصرية قطرى تونس والجزائر . ولعلها لم تصل الى المغرب بسبب الظروف العصيبة التى كان يمر بها يومئذ والتى أفضت به الى عقد الحماية، مع أن القرداحى أقام بتونس عامين ، وفيها توفى .

وقد شهد المغرب فى سنوات العشرين حركة مسرحية كبيرة بدأت عام ثلاثة وعشرين حين قدمت فرقة المغنى محمد عز الدين ــ وهو تلميذ جورج أبيض الذى أشرف على تكوين هذه الفرقة فى تونس ــ وقدمت فى الرباط ومدن أخرى مسرحيات كانت أبرزها رواية صلاح الدين لنجيب الحداد . وبلغ من تقدير

السلطان المرحوم مولاى يوسف لهذا الحدث الفنى ، وكان شاهد المسرحية فى القصر الملكى بالرباط ، أن أنعم بوسام علـــى رئيس الفرقـــة .

وفى سنة 1924 زارت المغرب فرقة مكونة من مشارقـــة وتونسيين ، كان من بين أعضائها عبد الرزاق كرباكة وعلياء وبهية الشامية ، ومثلت رواية صلاح الدين ومسرحيتى روميو وجولييت لشكسبير والطبيب المغصوب لموليير .

ولم يلبث المغاربة أن أخذوا فى تأسيس فرق وطنية ساعـــد فى بعضها فنانون وافدون كالخياط وحسن بنان ، وكانت تتكون فى الغالب من تلاميذ المدارس وأعضاء الجمعيات الثقافية ، نذكـــر مـــن أبرزهـــا :

1 ــ جوق التمثيل الفاسى الذى كانت تشرف عليه جمعية قدماء ثانوية المولى ادريس . وقد قدم مسرحيات كتبها مؤلفون مغاربة مـــن بينهـــم محمـــد بـــن الشيـــخ ومحمـــد القـــرى ومحمد الزغارى والمهدى المنيعى وعبد الواحد الشاوى . وبلـــغ من عناية هذه الجمعية بالتأليف أنها دعت سنة 1928 الى مباراة لكتابة المسرحية ، فلم تصلها غير رواية واحدة هى التى ألف والدنا حفظه الله بعنوان : « الى الفضيلة » ، واستحقت بذلك جائزة الجمعية وقيمتها مائتان وخمسون فرنكا حسبما تثبت الرسالـــة التى كتبت الجمعية للمؤلف ، مؤرخة فى فاتح جمادى الثانية سنة 1348 هـ .

2ــ فرقة التمثيل العربى فى الرباط باشراف محمد اليزيدى.

3 — فرقة فى مراكش أسسها مصطفى الجزار سنة 1927.

4 — جوق السعى والفضيلة فى الرباط من تأسيس عبد الله ابن العباس الجرارى عام 1928 ، وكان مكونا من بعض تلاميذ مدرسته الحرة ، وقدم محاورات وتمثيليات ، بعضها من تأليفه كرواية « الى الفضيلة » التى كان تتقدم بها لمباراة جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الادريسية بفاس .

5 — جـوق التمثيـل فى سلا .

6 — فرقة من قدماء تلاميذ مدرسة أبناء الاعيان بالدار البيضـاء .

7 — جمعية الهلال المؤسسة فى طنجة سنة 1923 ، والتى كان يرأسها أحمد ياسين ، قامت بنشاط فى مجال التمثيل اذ قدمت مسرحيات عربية ومترجمة ـ ولم يكن المسرح غريبا على هـذه المدينة التى كانت يومئذ تعيش وضعية دولية ، اذ أنشىء فيهـا سنة 1912 مسرح سرفانتس ، وزارتها فرق أجنبية للتمثيـل والغناء ، من بينها فرقة بديعة المصابنى والمغنية نادرة .

8 — جمعية الطالب المغربى التى تأسست فى تطوان برئاسة عبد الخالق الطريس على اثر الزيارة التى قامت بهـا الفنانـة فاطمة رشدى وزوجها عزيز عيد لهذه المدينة سنة 1933 ، وكانت تقوم بنشاط مسرحى ، اذ مثلت روايـة انتصار الحـق لرئيس الجمعيـة .

ولم يلبث المسرح المغربى فى أعقاب هذه المحاولات الرائدة أن دخل فى مسيرة مليئة بالتجارب ، بحثا عن مسرح مغربى متطور

قادر على التعبير عن الجماهير وقادر على مخاطبتها كذلك . وما زال مسرحيونا ـ كتابا ومخرجين وممثلين ـ يبذلون من أجل ذلك جهودا تكاد تكون فى معظمها من قبل الهواية .

* * *

هذه حقائق ووقائع تمثل فى رأينا طلائع مرحلة حديثة من تاريخ المسرح العربى ، ولا تمثل كل هذا التاريخ أو بداياته كما يذهب الدارسون الذين ينفون وجود أنماط مسرحية عند العرب والمغاربة قبل الاتصال بأوربا فى عصر النهضة العربية الحديثة .

وهم يعززون هذا النفى بعدة حجج نستطيع تجميعها فى العوامل الخمسة الآتية :

أولا : طبيعة العقلية العربية ، وهو الرأى الذى ظهر به باحثون نظروا للعرب وللشعوب السامية عامة باعتبارها ميالة للتجريد والتغييب ، وانتهوا الى نتائج تعدت مجال ظاهرة عدم وجود فن معين الى الطعن فى العرب ، وهى :

1 ـ ضعف القدرة الابداعية عند العرب .

2 ـ عدم اكتمال الخلق الفنى عندهم .

3 ـ ميلهم الى الواقعية وانعدام الطاقة التخييلية .

4 ـ عجزهم عن النظرة الشمولية للحياة والكون ، واكتفاؤهم بالجزئيات .

5 ـ وقوفهم عند ملاحظة ظواهر الاشياء بسطحية وارتجال .

6 ــ عدم وجود احساس مأساوى عندهم بالحياة .

7 ــ اكتفاؤهم بالتعبير عن المواقف دون تصويرها .

ومن ثم اتخذ المناقضون لهذا الرأى موقف الدفاع ــ ليس من منطلق اثبات مسرح وهو مثبت بالفعل كما سنرى بعد فقرات ــ ولكن من منطلق الدفاع عن طبيعة العقلية العربية ، وهى فى غير حاجة الى دفاع . ولو فرضنا جدلا أن المسرح لم يكن معروفا عند العرب ، فليس فى ذلك ما يدعو الى اثارة أى طعن فيهم ، لان الفن ــ أى فن ــ انما ينشأ فى مجتمع ما بحكم ضرورة معينة أو حاجة تقتضى التوسل به فيظهر ويتبلور ويتأصل .

ثانيا : مانع لغوى عند من رأوا أن العرب لم يعرفوا التعبير المسرحى لانهم لم يوفقوا الى ايجاد لغة مناسبة له ، وأن لغتهم تعبر عن دلالات معينة ولا تصور التجارب ، مما يجعلها أميل الى الجمود منها الى التحرك . وهذا رأى تبطله حقيقتان :

1 ــ لغة المسرح الكلاسى الاوربى والفرنسى خاصة ، وهى لغة أرستقراطية لم تكن تفهمها الا طبقة معينة من الذين أتيحت لهم ثقافة عميقة .

2 ــ مطاوعة اللغة العربية فى قالبها المدرسى والعامى للتأليف المسرحى ، سواء فى عصر النهضة المعترف بوجود مسرح فيه أو قبل هذا العصر ، على حد ما سنبين بعد . بل ان مؤلفى المسرح ومترجميه فى أوائل النهضة لم يجدوا أدنى صعوبة تتصل بالجانب اللغوى الفنى من شأنها أن تعوقهم عن ادخال الشعر الى المسرح ترجمة وتأليفا . ولهذا لا نستغرب اذا وجدنا

حركة التأليف تكاد تواكب حركة الترجمة . فمن أولى المسرحيات المؤلفة شعرا تذكر « المروءة والوفاء » لخليل اليازجي (1876) وخمس مسرحيات لعبد الله البستانى (1889) هى : حرب الوردتين، يوسف بن يعقوب ، بروتس أيام تروكن الظالم، بروتس أيام يوليوس قيصر ، مقتل هيرودس لولديه . ومن أولى المسرحيات المترجمة شعرا نذكر « تسلية القلوب فى رواية ميروب » لفولتير ، وقد قام بترجمتها محمد عفت سنة 1889 ، ومسرحية مكبث لشكسبير من ترجمته أيضا . كذلك ترجم محمد عثمان جلال من ملاهى موليير الى الزجل : الشيخ متلوف ، النساء العالمات ، مدرسة الازواج ، مدرسة النساء ، ونشرها فى كتاب بعنوان « الاربع روايات من نخب التياترات » (1307 هـ) ثم ترجم بعد ذلك الثقلاء لموليير ، واستر وافغانية واسكندر الاكبر من مآسى راسين .

ثالثا : مانع دينى ، علل به كثير من الدارسين ، انطلاقا من تحريم الاسلام للتصوير . وفى اعتقادى أن العلاقة جد بعيدة بين فنى الرسم والتمثيل ، الا أن تكون كامنة فى التشخيص والتجسيم . ومع ذلك فقد عرف الرسم والتصوير ازدهارا فى مختلف البلاد الاسلامية ، على الرغم من مواقف الفقهاء الذين كانوا يستندون الى بعض الاحاديث النبوية الشريفة كقوله عليه السلام : (ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصور) و « ان الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة » .

رابعا : عدم ترجمة العرب للمسرح الاغريقى ، وهو رأى

اعتمد أصحابه على أمرين :

1 ـ أن العرب لم يترجموا أدب اليونان وشعـرهم ، فى الوقت الذى نقلوا فلسفتهم ، لاحساسهم بان ابداعهم فى الشعر والادب يفـوق كـل ابـداع .

2 ـ حتى حين ترجموا بعض المؤلفات المتعلقة بالشعر لم يفهموا المصطلحات على حقيقتها . فابن رشد فى نقلـه لكتـاب أرسطو عن « فن الشعر » ترجم الدراما بالشعر .والكوميديـا بالهجاء والتراجيديا بالمديح .

ويمكننا الرد على هذا الرأى بجملة حقائق :

1 ـ ان المسرح عمل معقد ومتكامل لا يقوم على النص فحسب حتى تكون الترجمة كافية فى نقله .

2 ـ أن المسرح لا ينقل بالترجمة ، ولكن ينقل بالاحتكاك الحضارى والثقافى وما ينشأ عنه من تأثير . حقيقة أنه لم يتح للعرب فى جزيرتهم أن يتصلوا بالثقافة اليونانية والرومانيـة ، ولكن الشمال الافريقى بحكم احتكاكه مع التيارات الحضاريـة والثقافية التى كانت تعتمل فى حوض المتوسط أتيح له أن يعرف جوانب من هذه الثقافة ، ومنها المسرح .

3 ـ انه فى الوقت الذى كان الاسلام ينتشر وينتقل الى حوض المتوسط ، كانت الثقافة الاغريقية قد تقلصت ، ومعهـا تقلص المسرح ، ولم يتح له أن يظهر فى أوربا الا بعد فترة غير قصيرة وفى نطاق ضيق تمثل فى المسرح الدينى Le Theatre Religieux الذى كانت تشرف عليه الكنيسة ، وان لم يلبث أن واجهه مسرح

آخــر دنيوى Le Theatre Profane ثم ظهرت الحركة الاتباعية فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وبعدها فى انجلترا ظهرت الحركة الـرومـانسيــة .

4 ــ أن العرب لم يترفعوا عن التعرف على أدب الشعوب الاخرى بدليل ترجمتهم للانتاج الادبى الفــارسى كالشاهنامــة وجداى نامة . واذا كانوا لم يترجمــوا أدب اليونـــان فللسببين السالفين . ومع ذلك فترجمتهم لكتاب أرسطو فى فن الشعر ــ على ما قد يكون فى نقل مصطلحاته من تحريف ــ دليل على أنهم كانوا مستعدين للنظر فى الادب اليونانى لو أتيح لهم أن يعرفوه .

خامسا : عامل سياسى يعلل به بعض الباحثين الذين يعتبرون أن المسرح يقوم على النقد والتوجيه ، وأنه بهذه الصفة لا يمكنه أن يزدهر الا فى ظل أنظمة ديموقراطية تشجع حريــة الــرأى والتعبير ، فى حين أن النظم فى الدول العربية الاسلامية تعتمــد على الحكم الفردى المصطبغ بالدين .

وقد تؤيد مثل هذا الرأى بعض الاحداث على حد ما وقع فى مصر على عهد الخديوى اسماعيل ، وكان حضر فى دار الاوبرا عرض مسرحية « المظلوم » التى قدمتها فرقة يوسف الخياط ، وهو أحد الوافدين مع سليم النقاش ، غظنها الخديوى تعريضا به ، فأمر بطرد أعضاء الفرقة من مصر .

ولكن هذا الرأى ليس صحيحا الى الحد الذى يمكن أن يكون له تأثير فى ظهور المسرح أو عدم ظهوره ، بدليل استمراره فى مصر وازدهاره على الرغم من ذلك . ويمكن مناقشته من زوايا متعددة :

1 ـــ أن المسرح ليس كله نقدا ، وان كان فى نشأته عند الاغريق ومن ماثلهم قام على الصراع ، أى على عنصر يتعدى النقد فى التعبير . ولنا فى هذا رأى سوف نذكره بعد فقرات متعلقا بالاسباب التى جعلت المغاربة فى العهد الاسلامى لا يحتفظون بالمسرح كما أخذوه عن القرطاجنيين والرومان .

2 ـــ أن فى الانماط المسرحية التى عرفها العرب نقدا كثيرا يصل أحيانا ـــ وكما سنرى بعد ـــ الى درجة مسرح سياسى جماهيرى .

3 ـــ أن الشعوب التى ازدهر فيها المسرح ، وخاصة أوربا فى عصر نهضتها ، لم تكن تعيش فى ظل أنظمة ديموقراطية ، وأن الشعوب العربية فى عهد انبعاثها واتصالها بالغرب وأخذها بالفن المسرحى الاوربى كانت قد فقدت حريتها واستقلالها وعاشت تحت وطأة الاستعمار ، وأنه لو كان الامر كما يزعم هذا الرأى لتوقف المسرح ولما انطلق

4 ـــ أنه لا يمكن اطلاق القول بأن نظام الحكم فى الدول العربية الاسلامية كان يتسم خلال التاريخ بالفردية التى من شأنها أن تعوق ظاهرة ما ثقافية . ولعل أحدا لا يستطيع أن ينكر عهودا مشرقة عرفها العرب والمسلمون انطلاقا من الدين وأسس حكمه العادلة . ولعل أحدا لا يستطيع أن ينكر كذلك أنه حتى فى احلك الفترات ـــ وما أكثرها ـــ كان يوجد من يعبر عن رأيه ويجهر بالنقد ، بل كان يوجد من يتوسل ببعض فنون المسرح فى هذا التعبير .

5 ـ أن تأثير أنظمة الحكم لا ينحصر فى فن معين دون غيره، بل هو يتعداه الى كل المظاهر الحضارية والثقافية التى هى فى حاجة أبدا الى جو من الحرية تتنفس فيه حتى تنمو وتزدهر . وما أعتقد أن المسلمين كانوا سيصلون الى اقامة حضارة وثقافة تشعان على العالم لو كان نظام الحكم قائما دوما عندهم على التسلط والكبت .

* * *

ثم ان هناك حقيقتين أود أن أطرحهما ـ قبل أن أعرض للانماط المسرحية التى عرفناها ـ لكى أنفى من جهة أن يكون العرب فى جزيرتهم قد عرفوا المسرح على الشكل الذى شاع عند الاغريق ، ولكى أثبت من جهة ثانية أن المسرح من حيث هو فن انسانى ليس شرطا فيه أن يكون على هذا الشكل دون غيره .

الحقيقـــة الاولـــى :

أن المسرح اليونانى نشأ فى أحضان طقوس دينية كانت غالبا ما تؤدى فى معابد ؛ ويتوسل فيها بالقص الاسطورى وترديد التراتيل والاناشيد وأداء الرقص القائم على حركات مضبوطة وأزياء خاصة يغلب فيها استعمال الاقنعة .

ومن هذه الزاوية يمكن أن ننظر الى البدايات التمثيلية ، وخاصة تلك التى نشأت حول أسطورة الاه الخصب اليونانـــى ديونيسيوس . وشيئا فشيئا ، وبحكم ظروف حضارية وثقافية متطورة ، ولا سيما ظهور الملاحم ، انحدر هذا القصص الدينـــى من عالم الاساطير المعتقدية الى مرحلة التأليف الفنى ، وشيئا

فشيئا كذلك بدأ التمثيل يخرج من المعابد وينسلخ من اطارها .

وعلى الرغم من أن العرب احتكوا قبل الاسلام بمختلف الديانات ، ولا سيما اليهودية والنصرانية ، فانهم ظلوا فى أغلبهم وثنيين ، لم يقبلوا الانصهار فى هاتين الديانتين ، ربما لارتباط اليهودية بالميز العنصرى ، والنصرانية بالمد الاستعمارى الذى كان يهدد العرب وخاصة من بلاد الحبشة .

على أن الوثنية العربية تمت بأسلوب فطرى قادر على الجمع بين المتناقضات ، وكانت تقوم على تقديس مظاهر الكون والطبيعة، وعلى اعتبار وجود الخير والشر ، وعلى الاعتقاد بالتالى فى الاه قادر قوى خالق لذلك كله . وهو الالاه الذى نجده فى مختلف الروايات التى تتحدث عن بلاد العرب فى الفترات الاولى للتاريخ .

ثم ان هذه الوثنية كانت تعيش فى ضمير الفرد العربى بشكل ذاتى ، وتداخل وجدانه بعفوية وتلقائية ، وهو يؤدى شعائرها وطقوسها دونما حاجة الى كهنوت منظم يشرف على أداء هذه الشعائر والطقوس .

ومع ذلك فان هذه الوثنية لم تلبث أن فقدت مقوماتها مع توالى العصور ، واحتكاك العرب بالاديان ، ثم اعتناقهم للاسلام القائم على التوحيد وعلى العقل والحقيقة .

ولئن كان العرب لم يعرفوا الطقوس الدينية الشبيهة بما كان فى بلاد اليونان ، والتى من شأنها أن تجعل الناس يتجمعون فى جوقة معينة للترديد والانشاد على هيئة مضبوطة ، فانهم عرفوا ألوانا مختلفة من القص والحكى ، قائمة فى بعضها على

الروح الاسطورية والبطولة الملحمية ، وان لم تنشأ عنها ملاحم شبيهة بما كان عند الاغريق ، لاسباب كثيرة ، ربما من أهمها أن العرب لم يكونوا يحلمون بالبطولات أو يتخيلونها ، ولكنهم كانوا يعيشـونها ويخلقونها بما خاضوا من معارك وما حققوا فيها مـن انتصارات . وحين سجلوا هذه البطولات عرضوهـا فى نطـاق الحدث والواقع ، وبأسلوب القص التاريخى الذى يستلهم العبرة وليس روح المأساة .

واذا كان العرب فى جزيرتهم لم يعرفوا المسرح على الشكل الذى شاع عند الاغريق ، فانهم فى أقاليم أخرى كانوا على معرفة به ، وخاصة فى منطقة الشمال الافريقى ، بدءا من مصر التى ازدهر فيها نوع من التمثيل نشأ حول أسطورة الالاه الشهيد أوزوريس. فقد تحدث أحد الكهنة فى نقش يرجع تاريخه الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد عن عرض ايزيس وأوزوريس ، كما تحدث عنه وعن المسرح المصرى المؤرخ هيرودوت فى السنة الخمسمائة قبل الميلاد.

وسيتجلى هذا الفن على أوسع نطاق فى بلـدان المغـرب العربى التى ارتبطت بالفينيقيين زهـاء ألف عـام ، وتأثـرت بمظاهرهم الحضارية والثقافية ، وهى مظاهر شرقية ، مصرية واغريقية فى الغالب ، فضلا عن أن هذه البلدان احتكت بعد ذلك بالرومان ، وكان الفن المسرحى موجودا فى كلا العهدين علـى حـد مـا سنـرى بعـد .

الحقيقـة الثـانيـة :

أن المسرحية فى جوهر مفهومها لا تعدو كونها قصة تحكيها

شخصيات فى حوار وحركة ، والحركة أهم خصائصها ، وهى التى نميزها عن غيرها من الالوان الفنية ، بل هى محور كل الخصائص الاخرى . وانطلاقا من هذا المدلول ، ومنذ الاغريق حتى المرحلة المعاصرة ، اصطلح المسرحيون على مقاييس كانت تتطور وتتجدد باستمرار ان لم نقل تتعرض للتبديل والتغيير ، الى حد أننا لـو قارنا مسرحية يونانية وأخرى معاصرة ، لكدنـا — مـن شدة الاختلاف بينهما — نظن أنهما لا ينتسبان لفن واحد . ويكفينـا لتوضيح هذه الحقيقة أن نشير الى التطورات الآتية :

1 — كان المسرح يقوم على عظمة الشخصيات ، بأن يكونوا من الآلهة أو أنصافها ، أو ملوك وأبطال خارقى القوة والحول ، فجاء زعماء الكلاسية الفرنسية وغضوا الطرف عن هذا الشرط .

2 — تحدث أرسطو عن وحدتى الزمان والفعل ، فأضاف لها الايطاليون والفرنسيون وحدة المكان ، بل ان هـؤلاء زادوا عليها وحدة الخطـر : Unite de Peril

3 — بعد أن كان الصراع فى المسرح اليونـانى متجها ضد القضاء والقدر ، حوله الكلاسيون الفرنسيون ، وخاصة كورنى، الى صراع بين الاهواء وقوى أخرى كالواجب والوطنية ، مما جعل العواطف والاهواء تحل مكان القدر والقضاء .

4 — بعض المسرحيين — كموليير — تحللوا تقريبا مـن كل القواعد ، والتفتوا الى المجتمع ليصوروا مشكلاته ، والـى الشعب ليلتقطوا مناظرهم منه ، ونزلوا باللغـة تبعا لـذلك الى مستوى لهجة التخاطب ، وكادوا يتحللون من العقدة ، مكتفين

بعرض بعض الصور الجذابة من الحياة .

5 ـ ثار كتاب الحركة الرومانسية فى القرن الثامن عشر أمثال دوماس الاب وهيجو وفينيى على التقاليد المسرحية القديمة ، وخاصة على قانون الوحدات ، وعلى موضوعات التاريخ القديم ، وعلى ارستقراطية اللغة والشخصيات وعلى تصنع الاسلوب .

6 ـ وجاءت حركة اللامعقول فى أعقاب الحرب العالمية يتزعمها بيكيت ويونسكو لتثور على المفاهيم وتتحرر من القواعد مكتفية بالحوار الداخلى النابع من رواسب الاعماق اللاواعية للشخصيات المعروضة ، فى انفصال عن بعضها ، ان لم تكن وهمية لا وجود لها الا فى مخيلة المشاهدين .

7 ـ لم تلبث الحركة المسرحية فى سنوات الستين أن تطلعت الى مسرح شعبى يلح على المضمون الاجتماعى السياسى ويبحث على الشكل الذى يكون قادرا على احتواء هذا المضمون .

واذا كان تطلع هذه الحركة قد انطلق متأثرا بمسرحيين كبريخت Brecht وفيلار Vilar ، فانه سيتبلور عند بعض الكتاب الملتزمين كأرمان غاتى Armand Gatti الذى تناول حرب فيتنام ونظام فرانكو الديكتاتورى . وما عرض قضية صاكو وفانزيتى Sacco et Vanzetti ببعيد عنا . ولعلنا نذكر كذلك الشاعر والكاتب المرتينيكى ايمى سيزير Aimé Césaire الذى ندد بالاستعمار فى « مأساة الملك كريستوف » وبقتل الوزير الكونجولى لومومبا فى « فى موسم بالكونغو » .

8 ـ ثم ان محاولات البحث عن دراما معاصرة جديدة بلغت حدا أصبح فيه المسرح احتفالا أو حلقة مفتوحة ذات جو سريالى يختلط فيه الرقص بالاعمال السحرية والمشاهد الصدمية والحوار الحر ، ويكون فيه للاخراج دور رئيسى كما فى مسرحية أكـــارا Akara لرومان ونكارتن Romain Weingarten وقد أخرجها دانيـــال زسكى Daniel Zeski فى استوديو شانزيليزى سنة 1967 ، ومسرحية مقبرة السيارات Le cimetière des voitures لاكـــاتب الاسبـــانى الاصـــل فرناندو أرابال Fernando Arrabal وكان أخرجها فى نفس السنة لمسرح الفنون فيكتـــور كارسيـــا Victor Garcia

* * *

أظن أننا بعد توضيح هاتين الحقيقتين ، نستطيع أن ننظر الى الانماط المسرحية التى عرفها العرب ، فى رؤيا متفتحـــة لا تتقيد بشكل معين ومحدد للمسرح ، لا سيما اذا عد هذا الشكل من التقليد المتجاوز ، ولا سيما كذلك ونحن واجدون فى بعض تلك الانماط ما يقربها من المحاولات الحديثة التى تبحث عن فن درامى جديد .

وربما كانت من أبرزها وأكثرها شيوعا فى مجموع البلاد العربية الاسلامية حلقة القاص الشعبى الـــذى يحكـــى السير الشعبية العربية كعنترة والهلالية وسيف بن ذى يزن ، وقصص البطولات الاسلامية وخاصة مواقف سيدنا على بن أبى طالب الذى غدا فى ضمير الشعب رمز هذه البطولات ، كما يحكى المقامات التى كانت تجد اقبالا عند الجماهير بما كانت تعتمد عليه مـــن

نقـــد وتوجيـــه .

وقد كان القاص الشعبى من خلال ذلك كله يقدم فى الحقيقة تمثيلية فردية أو مسرحية بممثل واحد ، يحكى ويتحاور مـــع نفسه ، ويغير صوته ، وقد يغنى ان اقتضى الحال ، وربما يتوسل بآلة يعزف هو عليها أو يعزف غيره ، وهى فى الغالب ربابة عند المشارقة وكمبرى أو تعريجة عند المغاربة .

اذا أضفنا هذه الظاهرة الى حقيقة أخرى ، وهى أن بعض البلدان العربية كانت تعرف تقاليد المسرح فى مرحلة مـــا قبـــل الاسلام ، فاننا لن نستغرب اذا وجدنا هذه البلدان فى العهـــد الاسلامى الاول تتوسل بالفن المسرحى فى تبليغ الاسلام والتبشير بحضارته ، على حد ما يروى المؤرخون مرتبطا بفتح كاشغر سنة 96 هـ . فقد ذكر ابن الاثير فى تاريخه (1) أنه « فى هذه السنـــة غزا قتيبة كاشغر ... فغنم وسبى :: وأوغل حتى بلغ قريب الصين، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلا شريفا يخبرنى عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك وخيول حسنة ... فساروا وعليهم هبيرة ، فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومـــه ... فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشى والعمائم والخز والمطارف وغدوا عليه ... فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهـــم

---

(1) انظر ج 4 ص 135 ــ 136 (ط المنيرية ــ مصر 1375) .

ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا فنظر اليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين فقيل لهم : ارجعوا . فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون ، فقال الملك لاصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء . فلما أمسى بعث اليهم أن ابعثوا الى زعيمكم ، فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج فقال له حين دخل عليه ... لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثانى والثالث ما صنعتم ؟ قال : أما زينا اليوم الاول فلباسنا فى أهلنا ، وأما اليوم الثانى فزينا اذا أممنا أمراءنا، وأما الثالث فزينا لعدونا . قال : ما أحسن ما دبرتم دهركم ... »

ولعلنا لا نستغرب كذلك اذا وجدنا المسلمين يتوسلون بالفن المسرحى فى التعبير عن أهم مشكل واجه دولة العروبة والاسلام ، وهو المتمثل فى الصراع السياسى من أجل الخلافة والحكم .

ففى الاقاليم التى تنتمى للاتجاه الشيعى ، كالعراق وما اليها ، كانت تنتظم فى موضوع مقتل الحسين — وما زالت ولا سيما فى كربلاء — تجمعات مسرحية شعبية تستغرق من غائح محرم الى العاشر منه ، وهو اليوم الذى يمثل فيه مشهد مقتل الحسين ، أو ما يعرف بـ : « التعازى » . وقبله تستعرض المراحل التى سبقت مقتله والتى حكى قصة الصراع حول الخلافة منذ وفاة الرسول عليه السلام ويقدم المشهد للجمهور من مكان مرتفع تلقى فيه مواعظ ومراثى تشيد بمناقب القتيل ، تتخللها أدوار غنائية بكائية وترديد نائح حزين .

ويروى (2) أنه كان فى زمن المهدى العباسى رجل صوفى ، وكان عاقلا عالما لا يترك أسلوبا ولا سبيلا للامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتهذيب الاخلاق وتربية النفوس الا فعله . وكان يخرج كل يوم اثنين وخميس الى جهة بخارج بغداد فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان ، فيصعد تلا وينادى بأعلى صوته : « ما فعل النبيون والمرسلون ؟ أليسوا فى أعلى عليين ؟ » فيقولون : (نعم) فيقول : « هاتوا أبا بكر الصديق » فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول : « جزاك الله خيرا أبا بكر عن الرعية فقد عدلت وقمت بما فرضه الله وخلفت محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسنت الخلافة ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى أوثق عروة وأحسن ثقة وفعلت وفعلت ... » ويذكر ما قام به من جليل الاعمال ثم يقول : « اذهبوا به الى أعلى عليين » . ثم ينادى : (هاتوا عمر) فيتقدم رجل آخر فيقول : « جزاك الله خيرا أبا حفص عن الاسلام ، قد فتحت الفتوح ووسعت الفىء وسلكت سبيل الصالحين ، اذهبوا به الى أعلى عليين بحذاء أبى بكر » . ثم يقول : « هاتوا عثمان » فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول له : « خلطت فى تلك السنين ولكن الله تعالى يقول : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ... اذهبوا به الى صاحبيه » . ثم يقول : « هاتوا على بن أبى طالب » فيتقدم رجل فيقول : « جزاك الله خيرا عن الامة أبا الحسن بسطت العدل وزهدت فى الدنيا واعتزلت الفىء

---

(2) انظر كتاب صهاريج اللؤلؤ تأليف محمد توفيق البكرى وشرح احمد بن أمين الشنقيطى وابى بكر محمد لطفى ص 258 — 259 (ط مصر 1906) .

فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر ، وأنت أبو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به الى أعلى عليين » . ثم يقول : « هاتوا معاوية » فيجلس بين يديه رجل فيقول له : « أنت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين وحجر الكندى الذى أخلقت وجهه العبادة ، وأنت الذى جعل الخلافة ملكا واستأثر بالفىء واستبطر بالنعمة وأنت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض أحكامه وفعل كذا وكذا » ويعدد أعماله ، ثم يقول : « اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة » ثم يقول : « هاتوا يزيد » فيجلس بين يديه رجل فيقول له : « ياباغى أنت الذى قتلت أهل الحرة وأبحت المدينة ثلاثة أيام انتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآويت الملحدين بؤت باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثلت بشعر الجاهلية :

ليت أشياخى ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسينا وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الابل ، اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار » . ولا يزال يذكر واليا بعد وال حتى يبلغ عمر بن عبد العزيز ، فيقول : « هاتوا عمر » فيجلس بين يديه رجل فيقول : « جزاك الله خيرا عن الاسلام فقد أحييت العدل بعد موته وألنت لقلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق وأبطلت اللعن على المنابر ، اذهبوا به فألحقوه بالصديقين » . ثم يذكر من كان بعده من الخلفاء الى

أن يبلغ دولة بنى العباس فيسكت فيقال له : « هذا أبو العباس السفاح أمير المومنين » فيقول : « فبلغ أمرنا الى بنى هاشم ارفعوا حساب هؤلاء جميعا واقذفوا بهم فى النار » .

وفى مصر ، حيث التقاليد المسرحية عريقة ، ازدهر منذ العهد الفاطمى مسرح الظل المعروف بخيال الظل أو ظل الخيال أو خيال الستار (3) ، وهو المعروف عند الاتراك بقراقوز ومعناه ذو العين السوداء . ولعله انتقل فى زمن مبكر الى بلاد العرب من الهند والصين عبر فارس ، وربما عن طريق تركيا ، وان مال الظن الى اعتبار الاتراك تلاميذ للمصريين فى هذا الفن ، استنادا الى أن فرقة مصرية لخيال الظل زارت تركيا سنة اثنتى عشرة وستمائة وألف ، وكانت برئاسة الشاعر الزجال داوود العطار .

ومع ذلك ، ففى الاساطير التركية أن نشأة كراكوز ترجع الى حادث وقع فى أيام السلطان أورهان عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادى . فقد كان أمر هذا السلطان ببناء جامع ، وكان يشرف على بنائه شخصان : أحدهما بناء هو كراكوز ، والثانى حداد هو حاجى عيواظ . ولكن مرح هذين الرجلين وميلهما الى القص والحكى والتسلية حالا دون انجاز العمال للبناء فى الوقت المحدد . وأصدر السلطان أمره بقتل الرجلين ، ولكنه سرعان ما تملكه الندم والحزن على ذلك فلجأ أحد مسليه ، واسمه كوسترى ، الى وضع ستار فى احدى غرف القصر ، وأخذ من خلالها يعرض أمام السلطان شخصية الرجلين المرحين

---

(3) انظر كتابنا « من وحى التراث » ص 102 و 114 الى 117 و 155 .

بمغامراتهمـــا المضحكـــة .

على أننا نجد لفظ « الخيال » واردا فى كتاب الديارات لابى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى لدا حديثه عن ديـــر الشياطين الواقع فى ضواحى الموصل وعن عبادة المخنث المتوفى فى حدود سنة 250 هـ وما كان له من فكاهة وخلاعة .

فقد ذكر أن الشاعر دعبلا الخزاعى المتوفى سنة 246 هـ هدده مرة بالهجاء ، فرد عليه عبادة : « والله لئن فعلت لاخرجن أمك فى الخيـــال » (4) .

وعلى الرغم من أن هذا الجواب قد يؤول تأويلات متعددة ، فانه اذا كان يقصد بالخيال هنا خيال الظل ، فستكون لا شك اشارة عبادة دليلا على أن مسرح الظل كان معروفا فى العراق على هذا العهد ، وربما من قبل .

ويعتمد خيال الظل على ثلاثة عنـــاصر ، هـــى : الصورة والضوء والسرد . وصفته أن اللاعبين « يتخذون له بيتا مربعا يقام بروافد من الخشب ويكسى بالخيش أو نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر أبيض يشد من جهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب ، وفيه يكون ظهور الشخوص . فاذا أظلم الليل دخل اللاعبون هذا البيت ويكونون خمسة فى العادة ، منهم غلام يقلد النساء وآخر حسن الصوت للغناء ، فاذا أرادوا اللعب أشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين أيدى اللاعبين ، أى بينهم وبين الشخوص ، ويحـــرك الشخص

(4) الديارات ص 119 (ت كوركيس عواد ط المعارف بغداد 1951)

بعودين دقيقين من خشب الزان ، يمسك اللاعب كل واحد بيد فيحرك بهما الشخص على ما يريد . وتتخذ الشخوص من جلود البقر وهى فى الغالب جلود تأتى من السودان ، فيشترى بعضها لاعبو الخيال من التجار ويصورون منها ما يشاء من الشخوص ثم يصبغوها بالاصباغ على ما تقتضيه ألوان الوجوه والثياب وأجسام الحيوان وجذوع الاشجار وأوراقها وأثمارها وأحجار المبانى وغير ذلك ، بحيث اذا عرضت الصور أمام ضوء النار المشعلة ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود » (5) .

وفى المصادر القديمة كبدائع الزهور لابن اياس (6) أنه فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة أمر الظاهر جقمق بابطال اللعب بخيال الظل واحراق شخوصه ، وكتب على لاعبيه العهد بألا يعودوا اليه .

ويروى الابشيهى فى المستطرف (7) أبياتا ثلاثة فى تشبيه الدنيا بخيال الظل ، منسوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم وهى :

رأيت خيال الظل أعظم عبرة ... لمن كان فى علم الحقائق راقى

شخوصا وأصواتا يخالفبعضها ... لبعض وأشكالا بغير وفاق

تجىء وتمضى بابة بعد بابة ... وتفنى جميعا والمحرك باقى

وورد لصلاح الدين الصفدى قوله :

---

(5) خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب لاحمد تيمور ص 19 — 20 .

(6) ج 2 ص 33 .

(7) ج 2 ص 307 (ط الثانية ـ القاهرة 1953) .

هويت خياليا حكى الغصن قده اذا ما انثنى هاجت عليه البلابل
أراق دم العشاق سيف جفونه ومن بعد ذا أضحى عليهم يخايل

ولعلنا نلاحظ فى آخر الابيات الثلاثة الاولى كلمة «البابة» وهو الاسم الذى كان يطلق على التمثيلية ، وتجمع على بابات ، كما نلاحظ عند الصفدى مصطلح الخيالى ، ويقصد به اللاعب الذى يحرك الشخوص . وكذلك فعل يخايل الدال على عملية التحريك .

وقد اشتهر من بين مؤلفى مسرح الظل الطبيب الشاعر محمد بن دانيال الموصلى المتوفى سنة عشر وسبعمائة للهجرة بعد أن خلف ثلاث تمثيليات :

1 ــ الامير وصال

2 ــ عجيب وغريب

3 ــ المتيم والضائع اليتيم

وهى مجموعة فى مخطوط توجد منه نسخة فى القاهرة وأخرى فى اسطنبول .

وتكاد تكون مسرحية « حرب العجم » أو « لعب المنار » من أقدم ما وصلنا من نصوص خيال الظل ، وسميت كذلك لانها تتناول الحروب الصليبية ، ولان أحداثها وقعت فى الاسكندرية ، وترجع الى القرن السادس أو السابع الهجرى . وقد أخبر عنها وأورد جزءا منها الشاعر الزجال داود العطار ــ السالف الذكر ــ فى مخطوطة ضمنها بعض أزجاله . وفيها تبرز شخصية أحد المغاربة كان ذهب يبلغ المصريين رسالة

يكشف لهم فيها عن خطر الصليبيين ويدعوهم الى ضرورة الاستعداد للمواجهة . يقول النص :

صيحوا على ميمون أخى   يجى ويزعق بالنفير
دا المغربى أدى قد أتى   ياخل من أقصى البلاد
قد جا يخبر يا رجال   عن اللئام أهل العناد
صيحوا على ميمون أخى
يا عصبة الدين والصلاة   يا مسلمين ياهل الصيام
قوموا الى الفرض الذى   قد أفرضوا رب الانام
فمن يبادر يلتقى   له فى الجنان أعلى مقام
مع الكرام أهل التقى   وينجبر قلب الكسير
صيحوا على ميمون أخى

****

وكما كانت لبلاد المشرق تقاليد مسرحية عريقة ، فكذلك كانت لاقطار المغرب العربى تقاليد نشأت بالاحتكاك المستمر مع مختلف التيارات الحضارية والثقافية التى أتيحت لها معايشتها ، ولا سيما فى عهد القرطاجنيين والرومان . ولا تكاد توجد مدينة فى هذه الاقطار الا وتوجد بها أماكن للتمثيل مشهورة ، كمسرح تيمكاد ودقة وتيبازة ، الى حد قيل ان « عدد المسارح فى افريقية يفوق عدد الملاعب » (8) .

وقد ذكر البكرى (9) فى وصفه لقرطاجنة أن أعجب ما بها

(8) تاريخ افريقيا الشمالية لاندرى جوليان ترجمة محمد مزالى والبشير بن سلامة (الدار التونسية للنشر 1969) ص 242 .
(9) كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) ص 43 — 44 نشر دسلان (الجزائر 1857) .

« دار الملعب وهم يسمونها الطياطر قد بنيت أقواسا على سوارى وعليها مثلها ما أحاط بالدار وقد صور فى حيطانها جميع الحيوان وصور أصحاب جميع الصناعات وجعلت فيه صور الرياح فجعل صورة الصبا وجهه مستبشر وصورة الدبور وجهه عابس .... وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو أقبـــاء معقـــودة طبقات كثيرة مطل على البحر فى غربيه قصر يعرف بالطياطر وهو الذى فيه دار الملعب المذكورة ، وهو كثير الابواب والتراويـــح وهو أيضا طبقات على كل باب صورة حيوان وصـــور جميـــع الصناع » .

ومن المؤكد أن المغاربة تأثروا بالقرطاجنيين ثم الرومـــان بعدهم ، ومارسوا فن التمثيل القايم على الاناشيد والحركات الراقصة التى تؤدى بها الطقوس والشعائر الدينية والتى ترمز الى التوسل بالآلهـــة .

وقد ازدهر فن التمثيل بصفة خاصة فى منتصف القرن الاول على عهد أغسطس زوج كليوباترة الصغيرة بنت كليوباترة ملكة مصر المشهورة ، وهو المعروف بـــ « يوبا الثانى » وكانت له عناية بالفنون والآداب (10) . وأسس مدينة وليلى لتكون شبيهة برومة، واتخذها عاصمة ثانية له بعد شرشال .

واشتهر من بين كتاب الدراما البربر أبوليوس المولود حوالى سنة 125 وصـــاحب الابولوجيـــا Apologie والازاهيـــر Les Florides وقصة المسوخ Les metamorphoses وكـــانت

---

(10) انظر بحثنا « وجود المغرب الحضارى والثقافى فى العصر الجاهلى » ضمـــن موضوعـــات هـــذا الجزء .

تعرف بالحمار الذهبى . وهى : « قصة كان رواها لوسيان فى كتابه الحمار لتحول المدعو لوسيوس الى حمار يعود الى صورتهالآدمية الاولى بعد مغامرات عديدة تتخللها أطـوار جزئيـة » (11) . وفى اعتراف للمؤلف ذكر أنه ينظم « القصائد فى جميع الاغراض الملائمة لروح الملحمة أو فيض الوجدان لمرح الملهاة أو جـلال المـأسـاة » (12) .

واذا كان المغاربة لم يحتفظوا بهذه التقاليد المسرحية فى ظل الاسلام ، فذلك راجع الى أن هذا الدين جاء بثقافة جديدة ، وأنهم لم يجدوا فى نطاق ثقافته حاجة الى التعبير بالمسرح على الشكل الاغريقى الرومانى الذى عرفوه . اذ لا يخفى أن هـذا المسرح كان يتوسل به فى أداء الطقوس والشعائر الدينية ، فضلا عن أنه كان مرتبطا بالصراع ، ولا سيما فى مواجهـة القضـاء والقدر ، والدين الاسلامى يحد من هذا الصراع ويحث علـى الطمأنينة النفسية بالدعوة الى الايمان بالقدر خيره وشره .

ومع ذلك ، فقد بقيت لتلك التقاليد آثار غير قليلة تتجلى فى الرقص الشعبى ، سواء منه الرقص البربرى والبدوى أو رقص الطوائف الطرقية . كما تتجلى هذه الآثار فى الاستعداد الذى ظل عند المغاربة للعمل المسرحى ، والذى جعلهم يقتبسون « خيال الظل » ولا سيما فى تونس والجزائر ، لما كان لهما من علاقـة مع الدولة العثمانية . ويبدو أنه كان مزدهرا فى القطر الجزائرى حتى منتصف القرن الماضى ، حيث قررت سلطات الاحتلال منعه،

---

(11) تاريخ افريقيا الشمالية لجوليان ص 252 .
(12) نفـس المصـدر .

لما كان له من دور في توعية المواطنين ولعله كان معروفا بمغربنا الاقصى فى فترة ما من التاريخ ، ولا سيما أيام السعديين الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع الاتراك .

ولم يكتف المغاربة بالاقتباس ، ولكنهم ـ بحكم موروثهم التقليدى وما تولد عنه من استعداد ـ أنشأوا فى العهد الاسلامى فنونا متعددة تتوسل ببعض عناصر الدراما كالحوار والحكي والغناء والترديد والرقص والتمثيل القائم على الحركة والايماء وتلـــويـــن الصـــوت .

وتعتبر « الحلقة » فى طليعة هذه الفنون ، يديرها أمـــام جمهور متحلق فى شكل دائرى ممثلون فرديون ، يروون المقامات، ويقصون الحكايات الخرافية والسير الشعبية وقصص البطولة والانبياء ، وينشدون قصائد الملحون والمحاورات منها خاصة ، مازجين فى ذلك بين السرد القصصى والانشاد الشعرى والاداء الغنائى ، ومعتمدين على التشـخيص بجميع ما يقتضيه مـــن عناصر التمثيـــل .

وقد اشتهر من هذه الحلق نمط كان يطلق عليه « لفراجا » يلح على المقومات المسرحية ، وخاصة ما كان منه يقام فى بعض المناسبات ، ولا سيما ليلة عاشوراء . وبلغ من انتشاره أن أغنى فيه الفقهاء ، على حد ما كتب فى رسالته محمد بن العربى الرشاى عاشور الرباطى الذى تولى قضاء الجماعة بمراكش فى منتصف القرن الهجرى الماضى . وهى رسالة فى بدع عاشوراء وضعها (13)

(13) انظر الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 من 301 الى 307 (الطبعة الاولى) .

فى « رد ما اشتهر بمراكش ليلة عاشوراء من أمور أحدثوها وسموها الافراجة ... وكتشبه الرجال بالنساء وتشبه الرجال باليهود والنصارى ، وكالمحاكاة لاناس من قبيلة أو من بلد أو تجار ، أو كاتخاذ الصور ، وضرب الرجال آلات اللهو من اجوالات ومزامير وغيرها ... » وفى خاتمتها ذكر « أن الناس كانوا يصورون صورة قاتل الحسين ويلقونها فى النار » .

وشبيه بأصحاب الحلقة والفراجة شعراء « ايمديازن » الجوالون الذين يتنقلون فى ربوع الاطلس ، منطلقين فى الغالب من قبيلة آيت احديدو ، تصحبهم جوقات من المرددين .

وفى نفس الاطار تذكر مجالس « آهال » الشعرية الفنية التى كانت تقام فى الصحراء تحت قبة خيمة كبيرة وباشراف سيدة نبيلة مثقفة تدير تبارى الشعراء وتحاور الفنانين .

ويعد مهرجان « سلطان الطلبة » أضخم عرض فنى عرفه المغاربة فى العصور الحديثة ، وهو تقليد سنه المولى الرشيد فى منتصف القرن السابع عشر تكريما للعلماء والطلبة ، وتقديرا منه لموقفهم الوطنى فى مساندة السلطة الشرعية ، حيث أقام لهم حفلا (انزاهة) ظل تقليده ساريا الى الآن ، وان لم ينتظم فى السنوات الاخيرة . ويقضى تنظيم نزهة ربيعية تدوم زهاء أسبوع ينوج خلاله أحد الطلبة سلطانا يكون الى جانبه وزراء وحاشية وحرس . وطوال هذا الاسبوع يعيش الاساتذة والطلبة ، بمشاركة جميع فئات المواطنين ، مهرجانات تقام فيها المآدب والحفلات الادبية والغنائية والتمثيلية . ويختم كل ذلك بمقابلة تجرى بين

الملك وسلطان الطلبة ، وتتم فى حفل هائل يستقبل فيه الطالب المتوج ، وهو راكب فرسه ، ملك البلاد الذى يحضر فى موكب عظيم على صهوة جواد لزيارة الطلبة ومشاركتهم أفراحهم . وتجرى المقابلة فى جو من الفرح والمرح ، اذ تلقى من طرف بعض أفراد حاشية سلطان الطلبة خطب هزلية تنتهى بنزول هذا الاخير عن فرسه والتقدم لتقبيل ركاب الملك وتقديم بعض المطالب التى يصدر أمر مولوى بتنفيذها على الفور .

وقد عرفت بعض المدن المغربية ، ولا سيما مراكش وفاس والرباط ، نوعا من التمثيل كان يقدم أثناء الاعياد الدينية والمواسم الشعبية ، وخاصة عاشوراء ، وهو المشهور بـ « البساط » . وكانت تتم عروضه فى الميادين العمومية وساحات القصور بدور المخزن ، بعد أن تكون الفرقة قد جالت عبر المدينة فى موكب غناء ورقص .

وترجع بدايات هذا النمط من المسرح الى عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله ثم لم يلبث ان شهد ازدهارا فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ويبدو أنه استمر الى عهد المغفور له محمد الخامس ، وان كنا لم ندرك شيئا منه .

ويتضح من روايات الذين أتيح لهم أن يشاهدوا عروضه أنه كان يهدف الى التسلية والترويح ، والى الوعظ والتوجيه ، والى تبليغ المظالم ، وأنه كان يتوسل لتحقيق هذه الاهداف بتقديم تمثيليات كان يطلق على الواحدة منها « الواقعة » ، يعتمد فى تأليفها واخراجها على جميع أنماط الادب والفن الشعبيين ،

من قص وغناء ورقص ، وعلى مختلف العناصر التمثيلية المعروفة يومئذ ، والقائمة فى جملتها على التنكر والتقليد .

واشتهر من مؤدى أدواره شخوص كـ : « الشاط » الذى يمثل الرجل الشجاع القوى ، و « الياهو » الذى يقوم بدور المنافق المخادع وهو اليهودى ، و « الغول » الذى يرمز به الى عنصر الشر ، و « احديدان » الذى يضطلع بدور الذكى ، ويكون بمثابة البطل فى الواقعة . ويطلق عليهم جميعا اسم « بوهو » أو « المسيح » حسب الشائع فى الجنوب أو الشمال ، وهو ما يرادف الممثل ، وربما خصوا به رئيس الفرقة .

ويعتبر « سيد الكتفى » من الانماط المسرحية المتأخرة فى المغرب ، اذ شهد ازدهارا كبيرا فى عهد المولى يوسف ، وكانت قد أسسته جماعة من محترفى الخرازة بمدينة الرباط ، يرأسهم مقدم . وهو أشبه ما يكون بالبساط الا أن ممثليه يجتمعون فى مكان غالبا ما يكون بيت المقدم أو بيت أحدهم أو أحد أعيان المدينة . وقد يجتمعون فى قصر السلطان ، ويبدأ المشهد بدخولهم على المقدم والسلام عليه ليستمعوا منه الى وصايا يقرأون بعدها الفاتحة . ويأخذ المقدم بعد ذلك فى انشاد قصائد غالبا ما تكون فى الهجاء ، ثم يدخلون فى شبه حضرة يتعالى فيها الانشاد والصياح ، ويتطاير اللكم والبصاق ، وهم يهزون أكتافهم ويرددون « آلولى سيدى الكتفى » . والمقدم فى غمرة ذلك يحاول أن يتغلب على أصحابه ، ولكنهم فى آخر العرض ينتصرون عليه .

* * *

وبعد ، فاننا لا شك نستطيع أن نؤكد من خلال هذا البحث أن العرب فى الجزيرة لم يعرفوا المسرح على الشكل الارسطى الذى شاع عند الاغريق وأوربا فيما بعد ، ولكنهم فى أقاليم أخرى عرفوه ، وان لم يستمر ، وخاصة فى المغرب ومصر .

كما نستطيع أن نؤكد أن العرب والمغاربة أبدعوا خلال التاريخ ألوانا مختلفة ومتطورة من المسرح . وهو بذلك فن متأصل عندهم . وهذا ما جعلهم يقبلون عليه فى شكله الاوربى ابان النهضة الحديثة ، وجعلهم كذلك — وهم ينشئون فرقا عصرية للتمثيل — يقدمون الى جانب مسرحياتهم المؤلفة والمترجمة والمقتبسة نصوصا عربية أصيلة متمثلة فى السير الشعبية العربية المعروفة ، وكان التمثيل فيها غالبا ما يقوم على الانشاد والحكى ، وكأنه استمرار للقاص الشعبى القديم . بل ان المسرحيات المترجمة نفسها كانت تقدم فى أسلوب لا يبتعد بها عن القص ، وكانت تشتمل أحيانا على الغناء كما هو الحال مثلا بالنسبة لكثير من الروايات التى قدمتها فرقة اسكندر فرح فى مصر ، والتى كان يقوم فيها الشيخ سلامة حجازى بدور الممثل الاول أو البطل .

ولكن رجوع العرب المحدود الى هذه الانماط التراثية لم يكن من شأنه أن يلفت النظر الى ما عندهم من تجربة مسرحية حتى يرجعوا الى رصيدهم الغنى فيها ويحتفلوا بما فيه ويبعثوه ويطوروه . ومن ثم استعاروا الدراما الغربية وتبنوا أحكام المستعربين الذين قطعوا بقصور العرب عن انشاء التمثيل .

فهرس المصادر والمراجع

المعتمدة فى موضوعات هذا الجزء (*)

ـ د . آمنـة اللـوه

حول الثقافة العربية المعاصرة فى شمال المملكة المغربية
(دعوة الحق س 16 ع 6 مايو 1974)

ـ ابـراهيـم بـن خفـاجـة

الـديـوان
ط القـاهـرة

ـ ابراهيـم السـولامـى

الشعر الوطنى المغربى فى عهد الحماية
نشر دار الثقافة ـ الدار البيضاء

ـ أحمـد الابشيهـى

المستطرف من كل فن مستظرف
ط الثانيـة ـ القاهـرة 1953

ـ أحمد بن الامين الشنجيطى

الوسيط فى تراجم ادباء شنجيط
ط مصر 1329 ـ 1911

ـ أحمـد تيمـور

خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب
ط دار الكتاب العربى ـ مصر 1376 ـ 1957

(*) كانت فى الاصل ملحقة بكل موضوع على حدة ، ولكن بعـد جمـع الموضوعات ، وحتى لا يتكرر ذكر بعض المصادر والمراجع التى اعتمدت فى اكثر من بحث ، ارتأيت أن اجمعها فى هذا الفهرس .

ــ أبــو العبــاس أحمــد بــن خلكــان

وفيــات الاعيــان وانباء أبنان الزمان

(ط بولاق ــ مصر 1299)

ــ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

(مطبعة دار الكتاب ــ الدار البيضاء 1954)

ــ أحمــد سكيــرج

ــ) قصيدة (السحر الحلال في مدح سيد الرجال)

ط حجــريــة

ــ) ضوء الظلام في مدح خير الانام ط حجرية

ــ) مورد الصفا في محاذاة الشفا

مخطوط عند ولد المؤلف الاستاذ عبد الكريم سكيرج

ــ) الوردة (تخميس قصيدة البردة)

ط حجــريــة

ــ أحمــد بن عبد الله (الاعمى التطيلى)

ديــوان الاعمــى التطيلــى

تحقيق الدكتور احسان عباس ــ دار الثقافة ، بيروت

ــ أحمــد بــن عمــار

نبذة من كتاب (نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب)

مطبعة فونتانة ــ الجزائر 1902

ــ أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ابن أبى أصيبعة)

عيون الانباء في طبقــات الاطبــاء

تحقيق نزار رضا ــ نشر دار مكتبة الحياة ، بيروت 1965

ــ أحمد بــن القــاضى المكنــاسى

جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس

(ط حجــريــة)

ـــ أحمـــد بـــن محمـــد العلمـــى

مـــولـــد

مطبـــوع

ـــ أبـــو العبـــاس أحمـــد المقـــرى

ـــ) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب

ت محمد محى الدين عبد الحميد

(المكتبة التجارية الكبرى ـــ مصر 1367 ـــ 1949)

وتحقيق الدكتور احسان عباس ـــ دار صادر ، بيروت 1968

ـــ) ازهـــار الرياض فى أخبار عياض

تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى

ـــ مطبعة لجنة التأليف والترجمـــة والنشر ـــ القاهـــرة

1939 ـــ 1942 .

ـــ د . أحمـــد هيكـــل

الادب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة

(مكتبة الشباب ـــ المنيرة ـــ القاهرة)

ـــ ادريس بن على السنانى (لحنش)

ديوان (الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح)

مخطوط بخزانة الرباط العامة ك 1378

ـــ بـــدر شاكـــر السيـــاب

ديـــوان (أزهـــار ذابلـــة)

بغـــداد 1947

ـــ بلـــوط L. BALOUT

Quelques problèmes nord-Africains de chronologie pré-histoirque
Revue Africaine T 13 - 1948

ـــ باسيـــه R. Basset

دائـــرة المعـــارف الاسلاميـــة

(مـــادة بـــربـــر)

ـ بنشنهـــو
A — Benachenhou
Connaissance du Maghreb
Alger 1971

ـ بـــوسكـــى
G. H. Bousquet
Les Berbères
Presses universitaires - Que sais-je ? 1961

ـ بـــريمـــون
GL. E. Bremond
Berbères et Arabes
Paris-Payot 1938

ـ ليفـــى بـــروفنســـال :
E. LEVI Provençal : —) La Fondation de Fès, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales T 4 1938 pp 23-53. Faculté des Lettres de l'Université d'Alger.
—) Islam d'Occident
Paris 1948

ـ بـــروكلمـــان (كـــارل)
تاريخ الادب العربى (ج 2)
ترجمة د . عبد الحليم النجار
(دار المعـــارف ـ مصر 1961)

ـ جـــرمـــان
G. Germain
Qu'est ce que le périphe d'Hannon
Hespéris 1957

ـ جوليـــان (شارل أندرى)
تاريخ افريقيا الشمالية
تعريب محمد مزالى والبشير بن سلامة
ط الدار التونسية للنشر

ـ حازم القرطـــاجنـــى
منهـــاج البلغـــاء وسراج الادبـــاء
ت محمد الحبيب بـــن الخوجـــة
ط تونس 1386 ـ 1966

— الحســن بــن رشيــق القيروانى
—) العمدة فى محاسن الشعر وأدبه ونقده
ط الثانيــة — مصر 1963
—) شعراء القيروان من أنموذج الزمان
جمع وتعليق زين العابدين السنوسى
ط دار المغرب العربى — تونس

— حسن الرهونــى المراكشى
ارجوزة نظم فيها كتاب (الاحكام لسياق ما لسيدنا محمد من الآيات البينات والمعجزات الباهرات والاعلام) لابن القطان
مخطوط بخزانة القرويين رقم 291
وكتاب ابن القطان مخطوط بنفس الخزانة رقم 292

— حمدون بــن الحــاج (ثم ولده أحمــد)
—) شرح منظومــة فى السيرة
5 أجزاء طبع منها الاول والاخرى مبعثرة
—) معارضة وتريات ابن رشيد البغدادى
مخطوطة بالمكتبة الملكية رقم 1003

— د و ز ى
R. Dozy
Histoire des Musulmans d'Espagne
Leyde 1932

— ابــن سعيــد
المغرب فى حلى المغــرب
تحقيق الدكتور شوقى ضيف — طبع دار المعارف ، مصر

— سعيد بن سليمان السملالى الكرامى
شرح البــردة
مخطوط بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقمه 1372 د

— سليمــان العجميسى
شفـــاء الصــــدور (ج 2)
مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 5733

ـ شاكر البتلوني الحاصباني

نفح الازهار فى منتخبات الاشعار
تصحيح ابراهيم اليازجى ـ طبع بيروت

ـ شيخو (الاب)

شعراء النصرانية قبل الاسلام
ط الثانية ـ دار المشرق ـ بيروت

ـ العباس بن الاحنف

ت . د . عاتكة الخزرجى
المغرب 1397 ـ 1977

ـ د . عباس الجرارى

ـ) صفحات دراسية من القديم والحديث (موضوع تجديد الشابى)
ط الدار البيضاء 1976
ـ) القصيدة (الزجل فى المغرب)
الطبعة الاولى ـ الرباط 1970
ـ) المغرب وتيار المذاهب الاسلامية
(مجلة الايمان ـ المغرب ـ س 3 ع 4 ـ 5 ـ 6 ـ 1966)
ـ) من أدب الدعوة الاسلامية
ط دار الثقافة ـ الدار البيضاء 1974
ـ) من وحى التراث
ط الرباط 1971
ـ) موشحات مغربية
دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء 1973

ـ عبد الحق المرينى

جمع ديوان (الحسنيات)
ط وزارة الدولة المكلفة بالاعلام ـ الرباط 1975

ـ عبد الرحمن بن خلدون

التاريخ (ديوان العبر)
(ط بولاق)

ـ عبد الرحمن الدكالى

قصيدة مولدية
مجلة دعوة الحق العدد 8 السنة 10 ـ يونيو 1967

ـ عبد الرحمن بن زيدان

ـ) العز والصولة فى معالم نظم الدولة
المطبعة الملكية ـ الرباط 1961 ـ 1962
ـ) اليمن الوافر الوفى فى امتداح الجناب اليوسفى
مطبعة المكينة المخزنية ـ فاس 1342
ـ) النور اللائح بمولد الرسول الخاتم الفاتح
مطبوع

ـ عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى

ديوان فى المديح النبوى
مخطوط بالمكتبة الملكية رقم 3071

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ابن عبد الحكم)

فتوح مصر وأخبارها
(ت شارل تورى ـ ط ليدن 1920)

ـ د . عبد السلام الهراس

خطبة طارق من جديد
(دعوة الحق س 11 ع 5 مارس ـ ابريل 1968)

ـ عبد العزيز الفشتالى

مناهل الصفا (مختصر الجزء الثانى)
ت عبد الله جنون ـ المطبعة المهدية 1964

ـ عبـد الكريم بـن ثابت

ديـوان الحـريـة
كتـاب العلـم رقم 5

ـ عبـد الكريم بـن زاكـور

ديوان (السراج الوهاج فى مدح صاحب التاج والمعراج)
توجد أجزاء منه : فى الخزانة العامة رقم ك 1830 ، وفى المكتبة الملكيـة رقم 2356

ـ د . عبـد الكريـم كريـم

فتح الاندلس : الخطبة واحراق السفن
(مجلة الباحث س 3 م 3 1974 ـ المغرب)

ـ أبو محمد عبد الله بن ابراهيم المواعينى الاشبيلى

ريحان الالباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب
(مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 2647)

ـ عبـد الله بـن بلكيـن

التبيان (مذكرات الامير عبد الله)
ت بروفنسـال ـ القاهرة 1955

ـ عبـد الله الجـرارى

ـ) تاريخ الادب الناثر والشاعر بالمغرب قديما وحديثا
(مخطـوط المـؤلف)
ـ) شعراء المغرب الاقصى وأدباؤه المعاصرون
مخطوطـة المـؤلف

ـ عبـد اللـه كنـون

ـ) أمـراؤنـا الشعـراء
ط المهديـة ـ تطـوان
ـ) حـول خطبـة طـارق

(دعوة الحق س 11 ع 6 — 7 ماى 1968)
—) سابــق البــربــرى
(دعوة الحق س 2 ع 1 س 6 ع 8 — 9 س 8 ع 4)
—) النبــوغ المغربى فى الادب العربى
(دار الكتاب اللبنانى — بيروت 1961)

— أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى

المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك)
نشــــر د ســـلان
(الجــزائــر 1857)

— عبــد الله عنــان

دولة الاسلام فى الاندلس من الفتح الى بداية عهــد الناصر
العصر الاول — القسم الاول
(الطبعـــة الثـــالثـــة)

— أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة

الامـــامـــة والسيـــاســـة
(مطبعـــة القـــاهـــرة)

— عبــد الله بــن يحيــى الحامــدى

شرح البــردة (بالبــربــريـــة)
ضمن مجموع مخطوط فى خزانة الرباط العامة رقم 1098 د

— عبــد المجيــد بنجلــون

ديـــوان (بـــراعـــم)
ط الربـــاط

— عبــد الواحد المراكشى

المعجب فى تلخيص اخبار المغرب
تحقيق محمد سعيد العريـــان ومحمـــد العربى العلمـــى —
القـــاهـــرة 1949

ـ عثمان الكعاك

مراكز الثقافة فى المغرب

(منشورات معهد الدراسات العربية ـ القاهرة 1958)

ـ ابن عذارى المراكشى

البيان المغرب فى اخبار المغرب

ج 1 تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفى بروفنسال

(دار الثقافة ـ بيروت)

ج 3 ت امبروسى هويسي ميراندة

ط معهد مولاى الحسن

ـ عز الدين أبو الحسن على (ابن الاثير)

الكامل فى التاريخ

(ط ليدن 1869 ـ 1874)

وطبعة المنيرية ـ مصر 1375

ـ العزفى (أبو العباس ثم أبو القاسم)

الدر المنظم فى مولد النبى المعظم

مخطوط فى مكتبة ينى جامع بالسليمانية ـ اسطنبول رقم 851

ـ أبو الحسن على بن اسماعيل الاشعرى

مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ـ ج 1

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

(القاهرة 1369 ـ 1950)

ـ على بن بسام

الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ق 2 م 1

ت لطفى عبد البديع ـ مصر 1975

ـ على الجزنائى

جنى زهرة الآس فى بناء مدينة فاس

(المطبعة الملكية ـ الرباط 1387 ـ 1967)

ــ علي بن سليمان الدمناتي المراكشي

ديوان في المديح النبوي (مــع شرحه)
ط القــاهــرة 1298

ــ علي بــن محمــد الشابشتــي

الــديــارات
ت كوركيس عواد
ط المعــارف ــ بغــداد 1951

ــ عيــاض (القــاضي)

الفهــرســت
مخطوطة الخزانة العباسية رقم 3147

ــ الفــاطمــي الصقلــي

تخميس وتريــات البغــدادي
ط حجــريــة

ــ الفتــح بــن خاقــان

قــلائــد العقيــان
طبــع بــولاق 1284 هـ

ــ فتــح الله بنــانــي

فتح الله في مولد خير خلق الله
المطبعة المحمديــة ــ مصر 1323

ــ فتح بن موسى بن حماد القصري

نظم سيرة ابــن هشام (ج 5)
مخطوط بالمكتبــة الملكيــة رقم 1668

ــ فــالــوا

H. V. VALOIS
L'homme de Rabat
Bulletin d'archéologie marocaine
T III 1958 - 59

ـ فلامان

G. B. Flamand
Les pierres écrites du Nord-africain
Paris - Masson 1921

ـ أبو القاسم الزياني

الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا
نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالى
(وزارة الانباء ـ المغرب 1967)

ـ كامبس

G. Camps
Aux origines de la Berbérie,
rites et monuments funéraires
Paris 1961

ـ كاركو بينو

J. Carcopino
Le Maroc antique
Gallimard 1943

ـ كورطوا

C. H. courtois
Les vandales et l'Afrique
Paris 1955

ـ كارسيا كومث

Garcia Gomez
Poemas arabigoandaluces

الشعر الاندلسى
ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، طبع وزارة التربية والتعليم
ـ مصر (الالف كتاب)

ـ كوتيى

E. F. Gautier
Le passé de l'Afrique du nord
Payot - Paris 1921

ـ كزيل

St. Gsell
Histoire Ancienne de l'Afrique du nord
Paris - Hachette 1913 - 28

ـ لسان الديـــن بـــن الخطيب

اعمـــال الاعـــلام

تحقيق بروفنسال ـ طبع دار المكشوف ، بيروت 1956

ـ ليون الافريقى (الحسن الوزان) LEON L'AFRICAIN

Deseription de l'Afrique

Adrien - Maisonneuve

Paris 1956

ـ مالك بـــن المـــرحـــل

الوسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدنيا والاخرى

مخطوطة بخزانة الرباط العامة ج 89

ـ محمد بن أبى بكر القضاعى (ابن الابار)

الحـــلـــة السيـــراء

تحقيـــق د . حسيـــن مـــؤنس

(الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1963)

ـ أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى

جذوة المقتبس فى ذكـــر ولاة الاندلس

(الدار المصريـــة للتأليف والترجمة 1966)

ـ محمد بـــن أحمـــد (ابـــن اياس)

بدائع الزهور فى وقائع الدهـــور

ط القـــاهـــرة 1960 ـ 1963

ـ محمـــد بـــن التهـــامـــى جنـــون

هداية المحبين الى ذكر مولد سيد المرسلين

ط حجـــريـــة

ـ محمـــد توفيـــق البكـــرى

صهـــاريـــج اللـــؤلـــؤ

شرح احمد بن الامين الشنجيطى وابى بكر محمد لطفى

ط مصـــر 1906

ـ محمـد بـن جعفـر الكتـانـى

اسعاف الراغب الشائق بخبر ولادة خير الانبياء وسيد الخلائق
ط حجـريـة

ـ محمـد الحبيب الفرقـانـى

ديـوان (نجـوم فى يـدى)
ط دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء

ـ محمـد الحضيكـى

شـرح الهمـزيـة
مخطوط بخزانة الرباط العامة ك 1478 ـ 1658 د

ـ محمـد الحلـوى

ـ) ديـوان (أنغـام وأصـداء)
الطبعة الاولى ـ الدار البيضاء 1965
ـ) قصيدة فى معارضـة البوصيرى
مجلة دعوة الحق ع 7 س 12 ـ يونيو 1969

ـ محمد بن دحيـة (أبو الخطـاب)

ـ) الآيات البينات فى خصائص أعضاء رسول الله
مخطوط فى الجزائـر رقم 1679
ـ) المطرب مـن اشعـار اهـل المغـرب
تحقيق ابراهيم الابيارى والدكتور حامد عبد المجيد والدكتـور
احمـد بـدوى ، القـاهـرة 1954
ـ) نهايـة السول فى خصائص الرسـول
مخطوط بدار الكتب المصريـة رقم 612 حديث

ـ محمـد رمضـان شاوش

الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد
(الطبعة الاولى ـ مستغانم ـ الجزائر 1385 ـ 1966)

ـ محمــد بــن زاكــور

ديوان (الروض الاريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض)
مخطوط فى خزانة الرباط العامة ك 357

ـ محمــد بــن شرف القيروانى

مسائــل الانتقــاد
ت شارل بيلا ـ ط الجزائر 1953

ـ محمد الصادق عفيفى ـ محمد بن تاويت

الادب المغــربــى
(دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت 1960)

ـ محمــد بــن العبــاس القبــاج

الادب العربى فى المغرب الاقصى
الربــاط 1347 ـ 1929

ـ محمــد بــن عبــد الرحمن الدلائــى

ـ) زهر الحدائق وخلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق
مخطوط فى خزانة الرباط العامة ك 306
ـ) الزهــر النــدى فى الخلــق المحمــدى
مخطوط فى خزانة الرباط العامة 157 د

ـ محمــد القــادرى

حاشية على شرح الازهرى لبردة البوصيرى
ط حجــريــة

ـ محمــد بــن القاسم بــن داوود السلوى

ديوان (نوادر النظام فى شرف سيد الانام)
مخطوط فى خزانة الرباط العامة ك 360

ـ محمــد المختــار السوسي

ـ) الالغيــات

ط الدار البيضاء 1963
ــ) سوس العالمة
مطبعة فضالة 1960
ــ) المعسول (ج 7)
ط الدار البيضاء 1963

ــ محمد المرزوقى

الادب الشعبى
ط الدار التونسية للنشر 1967

ــ محمد بن المهيب

تخميس (ديوان الوسائل المتقبلة) لعبد الرحمن الفازازى
ط حجرية

ــ محمد بن الموقت المراكشى

الرحمة العامة فى مولد خ يرالامة
مطبوع

ــ محمد النيفر

عنوان الاريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم اديب
ط الاولى ــ تونس 1351

ــ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى

سراج الملوك
(ط الازهرية)

ــ د . محمود مكى :

Egipto y la historiografia arabico-espanola. :
مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد م 5 سنة 1957
(عدد خاص بمرور خس سنوات على انشاء الصحيفة)

ـ مصطفى المعداوى

ديوان
ط دار الكتاب ـ الدار البيضاء

ـ المعتمد بن عباد

الديوان
ت بدوى ـ عبد المجيد ـ ط الاميرية ـ القاهرة 1951

ـ مؤلف مجهول

الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية
نشر احمد علوش ـ الرباط 1936

ـ نازك الملائكة

قصيدة الكوليرا
مجلة العروبة عدد 1 كانون الاول 1947 بيروت

ـ ياقوت الحموى

معجم البلدان
طبع مصر 1324

ـ يحيى بن خلدون (أبو زكرياء)

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد
ط الجزائر 1910

ـ يوسف اشباخ

تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين
ترجمة محمد عبد الله عنان ، طبع مصر 1940

ـ يوسف بن يحيى التادلى (ابن الزيات)

التشوف الى رجال التصوف
مطبوعات معهد الابحاث العليا المغربية ـ الرباط 1958

فهرس الموضوعات



تمــت الطبعــة الثانيــة بمطبعــة
النجاح الجديــدة بالــدار البيضاء
بتاريخ 9 رجب 1402 موافق 3 ماى
1982

صدر للمؤلف

- القصيدة (الزجل في المغرب)
- من وحي التراث
- الحرية والأدب
- الثقافة في معركة التغيير
- موشحات مغربية
  (دراسة ونصوص)
- من أدب الدعوة الاسلامية
- في الشعر السياسي
- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي
  (عصره — حياته — شعره)
- النضال في الشعر العربي بالمغرب
  (من 1830 الى 1912)
- قضية فلسطين في الشعر المغربي
  (حتى حرب رمضان)
- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ
- صفحات دراسية من القديم والحديث
- فنية التعبير في شعر ابن زيدون
- ثقافة الصحراء
- معجم مصطلحات الملحون الفنية
- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه
  (ج 1)
- الفكر الاسلامي والاختيار الصعب
- عبقرية اليوسي

عن مكتبة المعارف
يصدر قريباً للمؤلف كتاب :

أثر الأندلس على أروبا
في مجال النغم والايقاع

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

رقم الايداع بالخزانة العامة 223 1979